الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة وهران

كلية اللغة والآداب

قسم اللغة والأدب العربي

بلاغة الإبدال في الخطاب القرآني

بحث مقدم لنيل شهادة ماجستير في اللغة العربية وآدابها

تخصص : بلاغة القرآن ، دراسة في الأساليب

إعداد الطالب :

محمد قاسمي

إشراف الدكتور:

ميلود منصوري

لجنة المناقشة

الإسم واللقب	الدرجة العلمية	الجامعة	الصفة
د /عبد القادر بوعزة	أستاذ التعليم العالي		رئيسا
د/ ميلود منصوري	أستاذا محاضرا (أ)	جامعة	مشرفا ومقررا
د/ نور الدين زرادي	أستاذا محاضرا (أ)	وهران	عضوا مناقشا
د/ مصطفاوي عمار	أستاذا محاضرا (أ)		عضوا مناقشا

السنة الجامعية :1436هـ- 2015/2014م.

الإهداء

أهدي هذا العمل المتواضع لروح والدي الكريمين ، وروح سيدي الحاج عبد القادر البكراوي ، ولزوجتي الميمونة المباركة ، ولأبنائي زينتي وفخري في الدنيا ، أيوب وعدنان وإبراهيم ويحيى، ولإخواني وأخواتي ، وزملائي وأساتذتي ، مشاعل العلم ومصابيح الهدى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الكريم المنان، الرحيم الرحمن، ذي الطول والإحسان، الذي علّم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان. نور بكتابه القلوب، وأنزله في أوجز لفظ وأعجز أسلوب، فأعيت بلاغته البلغاء، وأعجزت حكمته الحكماء، وأسكتت فصاحته الخطباء. أحمده تعالى حق حمده، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، وصفيه من خلقه وخليله ، أرسله الله بالحجة والبيان ، والهدى والفرقان ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحابته ، ومن اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين .

اما بعد : فمن فضل الله على العبد ولطفه به ، أن ييسر له سبل العلم والمعرفة ، ويسهل له طريقا يلتمس فيه علما نافعا ، وإن المرء ليشعر بالإفتخار بانضمامه إلى خدَمة القرآن الكريم ، وأن يكون له موضع قدم في رياض الجامعة ، ينهل من علم أساتذتها الكرام ، يتعلم من علومهم ويأخذ بتوصياتهم وتوجيهاتهم.

ولقد من الله الكريم علي بالإلتحاق بالدراسات العليا ، درجة الماجستير مشروع الأستاذ الكريم : عبد القادر بوعزة ، المعنون ب:" بلاغة القرءان الكريم دراسة في الأساليب " ؛ وفي إطار هذا المشروع وقع اختياري على الموضوع التالي : "بلاغة الإبدال في الخطابالقر آني،"نظرا لعلاقته بالدراسات القر آنية والبلاغية ، ولآثاره في ابراز جماليات القرءان وأسرار أساليبه .

وقد وقع نظري على مصطلح (الإبدال) في أبواب المتشابه في القرآن الكريم ، حيث وجدته مرددا ومكررا لدى جمع من العلماء المتخصصين في الدراسات القرآنية ، ومن هؤلاء :

تَاج الْقُرَّاء أَبُو الْقَاسِم مَحْمُود بن حَمْزَة بْن نصر الْكرْمَانِي(505هـ) . يقول في مقدمة كتابه (البرهان في توجيه متشابه القرءان): " فإن هذا كتاب أذكر فيه الآيات المتشابهات التي تكررت في القرءان الكريم وألفاظها متفقة ، ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان ، أو تقديم أو تأخير، **أو إبدال حرف مكان حرف**".

ـ وابن الجوزي أبو الفرج : (508 – 597 هـ) ؛ وقد عقد بابا للإبدال في كتابه فنون الأفنان بعنوان : باب إبدال كلمة بكلمة أو حرف بحرف من المتشابه.

وقد قسم أنواع المتشابه إلى ثلاثة أنواع :

01- ما وقع فيه الاختلاف بسبب الزيادة أو الحذف.

02- ما وقع فيه الاختلاف بسبب التقديم أو التأخير.

03- ما وقع فيه الاختلاف بسبب إبدال كلمة بكلمة أو حرف بحرف.

وهذا التقسيم قد اتفق عليه كل الذين اعتنوا بدراسة المتشابه في القر آن وتوجيهه ، كالخطيب الإسكافي (420هـ) في كتابه " **درة التنزيل وغرة التأويل**". والكرماني (505هـ) في كتابه "**البرهان في توجيه متشابه القر آن** ". وابن الزبير الغرناطي (708هـ) في كتابه " **ملاك التأويل** ". وبدر الدين ابن جماعة (733هـ) في كتابه :" **كشف المعاني عن متشابه المثاني** ". وغيرهم كالزركشي والسيوطي وابن عاشور... الخ .

واهتمامي بهذا الموضوع ينطلق من النقاط التالية :

1. حبي لكتاب الله عز وجل ، والشغف بخدمته ، خصوصا وأن الله قد حباني بحفظ القرءان الكريم .

2. بالرغم من أن هذا الموضوع تناوله العلماء قديما وحديثا ، إلا أن استقلالية هذه الجزئية بالدرس والتحليل لم تستوعب بالقدر الكافي ، مما جعلها جديرة بأن تدرس .

3. المساهمة في تيسير فهم كتاب الله وحفظه، نظرا لأن مسلة التشابه في القر آن الكريم من الأور التي يعاني منها الطلبة في استظهار القر آن .

4 ـ البحث عن إجابة للأسئلة التالية :

ـ ماهو السر البلاغي وراء إبدال حرف مكان حرف أو كلمة مكان كلمة ؟ .

ـ وهل يصلح أن يكون موضوع الإبدال موضوعا مستقلا بذاته ؟.

ـ وما هي الثمار التي يمكن أن تجنى من دراسة هذا الموضوع ؟ .

وقد تناول العلماء موضوع المتشابه في القرآن الكريم من زوايا مختلفة :

01- التوجيه اللغوي والبلاغي : وهذه زاوية مشتركة بين كل العلماء.

02- الرد على المشككين والمبطلين ، ويتضح ذلك من عنوان كتاب ابن الزبير الغرناطي (ملاك التاويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل).

03- الغرض التعليمي : وأشهر ما ألف فيه ، المنظومة المعروفة للإمام السخاوي (595هـ) وعنوانها "هداية المرتاب وغاية الحفاظ والطلاب".

04- إبراز بلاغة الكلمة والأداة في التعبير القر آني ، والوقوف على سر الإعجاز من خلالهما . وهذا ما يطبع أغلب الدراسات القرآنية في عصرنا الحالي ، ويعتبر فاضل صالح السامرائي أبرز العلماء المهتمين بذلك .

وبالنسبة لطبيعة الكتب التي تناولت هذا الموضوع ، فيمكن أن تُصنف إلى مجموعتين :

ـ **المجموعة الأولى** : وهي الكتب التي تناولت هذا الموضوع على حدة ، واهتم مؤلفوها بتوجيه ما جاء في القرءان من متشابهات ، ومن هذه الكتب :

ـ " درة التنزيل وغرة التأويل". للخطيب الإسكافي (420 هـ).

ـ" كشف المعاني في المتشابه من المثاني " لبدر الدين بن جماعة(733هـ).

ومن المعاصرين :

ـ " الإعجاز البياني للقرآن ومسائل نافع بن الأزرق " لعائشة بنت عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطيء .

. بّلاغة الكلمة في التعبير القر آني" . و "لمسات بيانية " للدكتور فاضل السامرائي .

. "آيات متشابهات الألفاظ في القرءان الكريم وكيف التمييز بينها " لعبد المحسن بن حمد بن عبد المحسن.

المجموعة الثانية :

ـ كتب التفسير ، كـ " الكشاف " للزمخشري ، " ومفاتيح الغيب" للرازي ، و "التحرير والتنوير" لابن عاشور ، و" المحرر الوجيز " لابن عطية ، وغيرهم .

ـ كتب علوم القرآن ، كالبرهان للزركشي ، والإتقان للسيوطي .

وبالنسبة للدراسات السابقة لموضوع هذا البحث ، فلم أقف على من أفرد التأليف فيه حسب اطلاعي ، وكل من ألف في توجيه المتشابه أو البحث عن أسرار الإعجاز في القرآن الكريم ، كان يدرج هذا الموضوع (الإبدال) كجزئية في دراسته ، إلا أنني وجدت كتابا وحيدا ألف في هذا الموضوع بعنوان " وجوه الإستبدال في القرآن الكريم " لمؤلفه :عز الدين محمد الكردي ، (دار المعرفة بيروت ، ط1، 2007.) . وقد استفدت من هذا الكتاب في حصر بعض وجوه الإبدال في القرآن الكريم . وأما في التحليل والتوجيه فلم يكن سوى جامع لآراء الإسكافي والكرماني وابن الزبير وغيرهم ..

وقد استفدت من بعض الدراسات الحديثة في بيان القرآن وبلاغته، وهي كالتالي :

1- وجوه الإستبدال في القرآن الكريم ، لعز الدين محمد الكردي .

2- المتشابه اللفظي من آي التنزيل ، لمحمد فاضل السامرائي ، دار عمار الأردن ،ط20011/3م.

3- عادات القرآن الأسلوبية للدكتور راشد بن حمود بن راشد الثنيان، مجلدين ، دار التدمرية ، ط1 ، 2012 .

4- المتشابه اللفظي في القرآن الكريم للدكتور محمد القاضي ، دار الصحوة بالقاهرة ، ط1 ، 2009م.

5- عموم كتب الدكتور فاضل صالح السامرائي .

ـ وأما الصعوبات التي واجهتني في البحث ، فهي كثيرة ، من أهمها:

1- عدم اتضاح محددات البحث ابتداء ، وعدم توفر دراسات سابقة كافية.

2- تعلـق الموضـوع بمجـالات عـدة ، كالتفسـير وعلـوم القـرآن ، والتوجيهـات البلاغية ، وغيرها.

3- اعتماد البحث بشكل كبير على الإستقراء ، ويكتنف ذلك : تعرض الإستقراء لعدم الإستقصاء ، وعدم وصول الكمال .

4- سعة الموضوع ، وصعوبة السيطرة عليه .

5- ضيق الوقت المحدد لإعداد مثل هذه البحوث .

خطة البحث :

ـ المقدمة وفيها:

ـ أهمية الموضوع وأسباب اختياره .

ـ هدف البحث .

ـ الدراسات السابقة .

ـ خطة البحث.

ـ المنهج في كتابة البحث .

ـ المدخل وفيه :

ـ تعريف البلاغة ، والإبدال ، والسياق وأثره في تحديد الدلالة .

الفصل الأول : الأثر البلاغي للإبدال بين حروف المعاني، ويتناول:

ـ 1 . حروف العطف

ـ 2 . حروف الجر.

ـ3 . حروف النفي .

ـ 4 . الإبدال بين حروف مختلفة .

الفصل الثاني : الأثر البلاغي للإبدال في باب الأسماء ، وفيه :

ـ 1 . الإبدال بين الأسماء .

ـ 2 . الإبدال بين المصادر.

ـ 3 . الإبدال بين أسماء الفاعلين والمفعولين .

ـ 4 ـ الإبدال في باب الصفة المشبهة واسم التفضيل .

الفصل الثالث : الأثر البلاغي للإبدال في باب الأفعال ، وفيه :

ـ 1 . الإبدال بين الأفعال الماضية .

ـ 2 . الإبدال بين الأفعال المضارعة .

ـ 3 . الإبدال بين الأفعال المبنية للمجهول.

ـ 4 . الإبدال بين أفعال الأمر.

. **الخاتمة وفيها** : أهم النتائج التي توصل إليها البحث ، وبعض التوصيات.

وأما المنهج المتبع في البحث فيشمل المناهج التالية : (الإحصائي ، الإستقرائي ، التحليلي) .

وقبل الختام أتوجه بالشكر الجزيل لله عز وجل على ما من به علي من نعم عظيمة ، ويسر لي من منن جسيمة ، فلله الحمد أولا وآخرا ، وظاهرا وباطنا.

ثم أثني بالشكر والتقدير لأهل الفضل الأساتذة الكرام ، صاحب المشروع : الأستاذ الدكتور عبد القادر بوعزة ، والأستاذ الفاضل الدكتور: ميلود منصوري المشرف على هذه الرسالة ، الذي يعود له الفضل في إعداد هذه الرسالة وإخراجها في شكلها

الأخير ، بتوجيهاته القيمة ، وجهده الكبير في القراءة والتصويب ، سائلا المولى القدير أن يجعل ذلك في ميزان حسناته .

كما أشكر السادة الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة على قبولهم مناقشة هذه الرسالة ، وأسأل الله عز وجل أن ينفعني بتوجيهاتهم القيمة ، والشكر يتجدد لجامعتنا الغراء ، جامعة وهران، وبالخصوص كلية اللغات والآداب والفنون ، قسم اللغة العربية وآدابها ، أساتذة ، وإداريين ، وطلبة ، وبالخصوص رفاقي في هذا المشروع ، سائلا المولى العظيم الجليل أن يوفقنا جميعا لما فيه الخير والصلاح ، وأن يبارك لنا في أعمارنا وأوقاتنا ، وأن يستعملنا في ما يحبه ويرضاه ، إنه على ذلك قدير ، وبالإجابة جدير ، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وعبده محمد النبي الكريم ، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين .

.

مدخـــــــــــــل :

من أهم وجوه الإعجاز في القرآن الكريم الإعجاز البياني ، وهو المتعلق ببلاغة القرآن وأساليبه ؛ وقد اعتنى العلماء بدراسة نظم القرآن اعتناء كبيرا ، وألفوا في ذلك مؤلفات كثيرة ، والمكتبة الإسلامية تزخر بذلك الكم الهائل من التصانيف ، التي تدل على عمق عناية المسلمين بكتاب الله ودراسته ؛ ولم تزل جهود العلماء مبذولة في التعرف على بلاغة القرآن الكريم واكتشاف أسراره ، فكان للدراسات القرآنية العناية الخاصة بالبيان والإعجاز ، حتى كان القول في البيان مندرجا تحت القول بالإعجاز ؛ يقول أبو هلال العسكري : " وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة ، وأخل بمعرفة الفصاحة ، لم يقع علمه بإعجاز القرآن ، من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف ، وبراعة التركيب ، وما شحنه به من الإيجاز البديع ، والإختصار اللطيف ..." [1] فالدراسة البلاغية مهمة في إبراز جوانب الإعجاز ، فما هي البلاغة ؟ وماهو تعريفها ؟.

البلاغة في اللغة :

يدل الفعل (بلغ) في اللغة العربية على عدة معان ، فيأتي بمعنى الوصول والإنتهاء ، وتارة يأتي بمعنى المقاربة والمشارفة ، وأخرى يأتي بمعنى الكفاية ؛ تقول : " بلغت المكان إذا وصلت إليه أو قاربته "[2] ، والبلوغ والبلاغ : الإنتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى ، مكانا كان أو زمانا ، أو أمرا من الأمور المقدرة ، وربما يعبر عنه بالمشارفة عليه وإن لم ينته إليه ، ومن الإنتهاء قوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا

---

[1] – الصناعتين لأبي هلال العسكري (395هـ) ، ت/علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1999م ، ص :01.

[2] – معجم مقاييس اللغة لابن فارس (395هـ) ، ت/ عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، بيروت، (1399هـ .1979م) ، ج/1، ص:301.

بَلَغَ أَشُدَّهُ و بَلَغَ أَر ْبَعِينَ سَنَةً ﴾ الأحقاف :15. وفي معنى المقاربة قوله سبحانه وتعالى :فَإِذَا﴿ بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّفَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ..﴾ الطلاق :02. أي : قاربنه ، فإن المرأة إذا انتهت إلى أقصى الأجل لا يصح للزوج مراجعتها وإمساكها .[1]

والبلاغ : الكفاية أيضا ، كقولهم : لي في هذا بلاغ ، أي كفاية ، وقد جاء في التنزيل هذا المعنى في قوله سبحانه:إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ الأنبياء :106. والإبلاغ : الإيصال ، وكذلك التبليغ ، والإسم منه البلاغ ، وبلغت الرسالة ، وشيء بالغ : أي جيد ، وقد بلغ في الجودة مبلغا ، ويقال : أمر الله بَلَغ بالفتح ، أي بالغ ، من قول الله تعالى :إِلَّا﴿ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ الطلاق :03.[2]

والبلاغة : الفصاحة ، والمتقدمون من أهل البلاغة أغلبهم كان يستعمل الكلمتين لمعنى واحد ، وقد تكرر عند عبد القاهر الجرجاني في " دلائل الإعجاز " من أن الفصاحة راجعة إلى المعنى دون اللفظ ، كقوله في أثناء فصل منه : " ..علمتَ أن الفصاحة والبلاغة وسائر ما يجري في طريقهما أوصاف راجعة إلى المعاني ، وإلى ما يدل عليه بالألفاظ دون الألفاظ أنفسها " [3]. فالفصاحة تسند للسان ، وتمام آلة البيان ، والبلاغة غايتها النفوس والمشاعر .

وقد ورد في القرآن الكريم قوله سبحانه وَ﴿ قُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ النساء :63. أي : يبلغ منهم ويؤثر فيهم ، فكلمة (بليغ) جاءت صفة للقول ، وهذا القول ينبغي أن يؤثر فيهم ، وتتحرك له نفوسهم .

ومما سبق نجد أن أغلب المعاني المذكورة لمادة (بلغ) ترجع إلى معنى الوصول إلى الشيء وبلوغه أو مقاربته ، والكلام البليغ ما وصل إلى درجة عالية في

---

[1] – المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (502هـ) ، ت/صفوان عدنان الداودي ، دار القلم دمشق ، (1412هـ،1991م) ، ص:05.

[2] – تاج اللغة وصحاح العربية ، لاسماعيل بن حماد الجوهري (393هـ) ، ت/ أحمد عبد الغفور عطار ، ط/4،(1407هـ،1987م) ، دار العلم للملايين ، ج/4 ، ص :1316.

[3] – بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح ، عبد المتعال الصعيدي (1391هـ) ، ط/17، (1426هـ ،2005م) ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ج/1، ص :26.

فصاحة ألفاظه ، ودقة معانيه ، وانتهى إلى قلب سامعه ، وأحدث الأثر المرجو فيه ؛ يقول ابن القيم رحمه الله : " قال علماء هذا الشأن : إن اشتقاق البلاغة من البلوغ إلى الشيء وهو الوصول إليه ، ويجوز عندي أن يكون الكلام البليغ : الذي بلغ من جودة الألفاظ ، وعذوبة المعاني إلى غاية لا يبلغ إلى مثلها إلا مثله ."[1]

البلاغة في الإصطلاح :

عرف الخطيب القزويني البلاغة بقوله : هي " مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته "[2] ، " ولما كانت أحوال المخاطبين مختلفة ، وكانت كل حالة منها تحتاج طريقة من الكلام تلائمها ، كانت البلاغة في الكلام تستدعي انتقاء الطريقة الأكثر ملاءمة لحالة المخاطب به ، لبلوغ الكلام من نفسه مبلغ التمثيل المرجو."[3]

يقول ابن القيم رحمه الله : " قال علماء هذا الشأن : إن حد البلاغة بلوغ الرجل بعبارته كنه ما في نفسه ، مع الإحتراز من الإيجاز المخل ، والتطويل الممل." [4] ، ويقول أبوهلال العسكري : " البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه ، كتمكنه في نفسك ، مع صورة مقبولة ، ومعرض حسن ، وإنما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطا في البلاغة لأن الكلام إذا كانت عبارته رثة ، ومعرضه خلقا ، لم يسم بليغا ، وإن كان مفهوم المعنى مكشوف المغزى ."[5]

ويقول الراغب الأصفهاني : " البلاغة تقال على وجهين ، أحدهما : أن يكون بذاته بليغا ، وذلك بأن يجمع ثلاث أوصاف :

---

[1] – الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن وعلم البيان لابن قيم الجوزية (751هـ) ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، 1987م، ص :26/25.

[2] – بغية الإيضاح ، ج/1 ، ص:24.

[3] – البلاغة العربية ، لعبد الرحمن حبنكة الميداني ، دار القلم بيروت ، (ط/1، 1416هـ،1996م) ، ج/1 ، ص:129.

[4] – الفوائد المشوقة لعلوم القرآن ، ص :25.

[5] – الصناعتين ، ص :10.

01- أن يكون صوبا في موضوع لغته ، بمعنى : سلامته من العيوب المخلة بفصاحة الألفاظ ، وهي : تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس اللغوي ، وخلوص الكلام من ضعف التأليف ، وتنافر الكلمات ، والتعقيد المعنوي .[1]

02- وأن يكون طبقا للمعنى المقصود به ، أي : بأن تتطابق الألفاظ مع المعاني ، وتؤدى الأغراض دون تطويل ممل أو إيجاز مخل .

03- وأن يكون صدقا في نفسه .

ومتى اخترم وصف من ذلك كان ناقصا في البلاغة . " [2] فأضاف الراغب لتعريف البلاغة الصدق ، وهو : مطابقة الكلام للواقع .

فحسن البيان يتوقف على اختيار اللفظ الفصيح المناسب لأداء المعنى المراد ، أي : " أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ، وتختار له اللفظ الذي هو أخص به ، وأكشف عنه وأتم ، وأحرى أن يكسبه نبلا ، ويظهر فيه مزية ."[3]

ومن خلال هذه التعريفات يمكن أن نحدد العناصر المهمة لبلاغة الكلام في الإصطلاح ، وهي كما يلاحظ :

01- الإلتزام بما ثبت في متن اللغة وقواعد النحو والصرف ، واختيار الفصيح من المفردات والجمل والقواعد.

02- الإحتراز عن الخطإ في تأدية المعنى .

03- الإحتراز عن التعقيد في أداء المعاني المرادة ، سواء من جهة اللفظ أو من جهة المعنى .

04- انتقاء الكلمات والعبارات الجميلة التي يدرك جمالها الحس المرهف ، والذوق الرفيع لدى البلغاء .

05- تصيد المعاني الجميلة ، وتقديمها في قوالب لفظية ذات جمال .

---

[1] – ينظر بغية الإيضاح ، ج/1 ، من ص :11 إلى ص:20.

[2] – المفردات في غريب القرآن ، ص:145.

[3] – دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، ت/ محمود محمد شاكر، مطبعة المدني ، القاهرة ، (ط/3، 1413هـ،1992م) ،ص: 43.

06- تزيين الكلام بالمحسنات التي تستثير إعجاب المخاطبين .[1]

وللكلام البليغ حد أعلى رفيع ، وهو حد الإعجاز وما يقرب منه ، وله حد أسفل ، منه تبتدئ ، وهو ما إذا غير الكلام عنه إلى ما هو دونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات ، وإن كان صحيح الإعراب .[2]

البلاغة عند علماء الإعجاز:

يرى أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (386هـ) أن البلاغة لها ثلاث طبقات ، طبقة أعلى ، وطبقة أدنى ، وطبقة في الوسط ، فما كان في أعلاها فهو معجز ، وهو بلاغة القرآن الكريم ، وما كان دون الطبقة الأعلى فهو الممكن ، كبلاغة البلغاء من الناس ؛ ويقول في تعريف البلاغة : أن " ليست البلاغة إفهام المعنى ، لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ ، والآخر عيي ، ولا البلاغة أيضا بتحقيق اللفظ على المعنى ، لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ، ونافر متكلف ، وإنما البلاغة : إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ ."[3]

ويرى الخطابي (388هـ) أن الكلام البليغ ينقسم إلى ثلاثة أقسام : رصين جزل ، وفصيح قريب سهل ، وجائز مطلق رسل ، ويقرر بعد ذلك أن بلاغات القرآن الكريم " حازت من كل قسم من هذه الأقسام حصة ، وأخذت من كل نوع من أنواعه شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة ... فكان اجتماع الأمرين مع نبو كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص

---

[1] – ينظر: البلاغة العربية للميداني ، ص :132/131.

[2] – ينظر بغية الإيضاح ، ج/1، ص :28.

[3] – النكت في إعجاز القرآن للرماني ، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ، ت/ محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف مصر، ط/3 ، 1976م. ص: 76/75.

بها القرآن ." [1] فالخطابي قسم الكلام إلى طبقات كما فعل الرماني ، وأضاف إلى ذلك ذكر مقومات الكلام وخصائص البلاغة القرآنية على وجه الخصوص.

يقول رحمه الله : "وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم ، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه ."[2]

ومع عبد القاهر الجرجاني تحددت نظرية النظم التي كانت لا تزال قيد التبلور عند سابقيه ، بدءا من الجاحظ ، ومرورا بالرماني والخطابي وغيرهم ، ووصولا إليه ؛ فعبد القاهر هو الذي حدد السمات البلاغية ومقوماتها ، وأكد على أن النظم هو محور كل إبداع في القول ، وعليه تقوم البلاغة والإعجاز.

يقول رحمه الله : " ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر في ما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة ، وفي بيان المغزى من هذه العبارات ، وتفسير المراد بها ، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء ، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب ، وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج ... ووجدت المعول على أن ههنا نظما وترتيبا ، وتأليفا وتركيبا ، وصياغة وتصويرا ، ونسجا وتحبيرا ، وأن سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هو مجاز فيه ، سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها ، وأنه كما يفضل هناك النظمُ النظمَ ، والتأليف التأليف ، والنسج النسج ، والصياغة الصياغة ، ثم يعظم الفضل ، وتكثر المزية ، حتى يفوق الشيء نظيره والمجانس له درجات كثيرة ، وحتى تتفاوت القيم التفاوت الشديد ، كذلك يفضل بعض الكلام بعضا ، ويتقدم منه الشيء الشيء ، ثم يزداد فضله ذلك ويترقى منزلة فوق منزلة ، ويعلو مرقبا بعد مرقب ، ويستأنف له غاية بعد غاية ، حتى

---

[1] – بيان إعجاز القرآن للخطابي ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، ص:26/25.

[2] – نفس المصدر ، ص :27.

ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع ، وتحسر الظنون ، وتسقط القوى ، وتستوي الأقدام في العجز. "[1]

فالبلاغة عند الجرجاني هي الصفة التي ينتظم بها الكلام ، أي أن البلاغة ليست في اللفظ ، ولا في ضم الكلمة إلى أختها كيفما اتفق، وإنما البلاغة هي الضم المبني على الفكرة المقصودة ، المؤسسة على نظام النحو ، كالتقديم والتأخير المقصود للعناية وغيرها ؛ يقول رحمه الله : " واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا تخل بشيء منها "[2] .

والنظم في رأي ابن الأثير صناعة لفظية ، وصاحب هذه الصناعة يحتاج إلى ثلاثة أشياء :

01- اختيار الألفاظ المفردة .

02- نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها .

03- الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه .

فهذه ثلاثة أشياء ، لا بد للخطيب والشاعر من العناية بها ، وهي الأصل المعتمد عليه في تأليف الكلام من النظم والنثر.[3]

ولعل من أحسن الأمثلة في تفصيل فكرة النظم ما قاله الدكتور دراز ، فتحت عنوان " القرآن معجزة لغوية " بين أن صناعة البيان كصناعة البنيان ، في احتياج كل منهما إلى مواد وإنسان على دراية باستخدام هذه المواد الإستخدام المفيد ، يقول رحمه الله : " فالمهندسون والبناءون لا يخلقون مادة بناء لم تكن في الأرض ، ولا يخرجون في صنعتهم عن قواعدها العامة ، ولا يعدو ما يصنعونه أن يكون جدرانا

---

[1] – دلائل الإعجاز ، ص:35/34.

[2] – نفس المصدر ، ص :81.

[3] – ينظر المثل السائر لابن الأثير (637هـ) ، ت/ أحمد الحوفي ، وبدوي طبانة ، دار نهضة مصر ، ج/1، ص :163.

مرفوعة ، وسقفا موضوعة ، وأبوابا مشروعة ، ولكنهم تتفاضل صناعتهم وراء ذلك في اختيار أمتن المواد وأبقاها على الدهر ، وأكنها للناس من الحر والقر ، وفي تعميق الأساس وتطويل البنيان ، وتخفيف المحمول منها على حامله ، والإنتفاع بالمساحة اليسيرة في المرافق الكثيرة ، وترتيب الحجرات ، والإبهاء بحيث يتخللها الضوء والهواء ، فمنهم من يفي بذلك كله أو جله ، ومنهم من يخل بشيء منه أو أشياء إلى فنون من الزينة والزخرفة يتفاوت الذوق الهندسي فيها تفاوتا بعيدا ."[1]

وبهذه الموازنة الواضحة بين فن الأسلوب وفن البناء استطاع الدكتور دراز أن يقرب للمتلقي في صورة أجلى وأظهر سمو البلاغة القرآنية ، وأن اللغة قد استعملت في البيان القرآني بدقة لا نظير لها ، " إذ وضعت كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به ، بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا المرآة الناصعة ، وصورته الكاملة ، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين وقراره المكين ، لا يوما أو بعض يوم ، بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور ، فلا المكان يريد بساكنه بدلا ، ولا الساكن يبغي عن منزله حولا .. وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان ." [2]

وسيحاول هذا البحث إبراز بلاغة القرآن الكريم ، من زاوية المتشابه اللفظي ، وفي أحد عناصره المعروفة بالإبدال ، وذلك بالنظر في الحروف المبدلة والكلمات ، وعلاقة الكل بسياق السور والآيات.

---

[1] – النبأ العظيم ، محمد بن عبد الله دراز (المتوفى : 1377هـ) ، ت/ أحمد مصطفى فضلية ، دار القلم بيروت (1426، 2005). ص:119.

[2] – نفس المصدر ، ص:121.

الإبـــــــــــــدال :

يتعلق مصطلح الإبدال في الدراسات القرآنية بموضوع المتشابه اللفظي في القرآن الكريم ، وقبل الحديث عن المعنى اللغو ي والإصطلاحي للإبدال يتعين أن نوضح معنى المتشابه اللفظي ، فما معنى المتشابه اللفظي ؟.

تعريف المتشابه اللفظي :

المتشابه اللفظي هو علم من علوم القرآن ؛ عده الزركشي في كتابه " البرهان" النوع الخامس من علوم القرآن " علم المتشابه " ، كما ذكره السيوطي أيضا في كتابه "الإتقان" ، وعده وجها من وجوه الإعجاز في كتابه " معترك الأقران " قائلا :" الوجه السادس من وجوه إعجازه : مشتبهات آياته ..." مفرقا بينه وبين المتشابه الذي يقابل المحكم .

ومن خلال تقسيم العلماء لأبواب المتشابه اللفظي نقف على معنى هذا المصطلح ، فقد قسمه بعضهم إلى ثلاثة أقسام [1]، هي : الإبدال ، والزيادة والنقص ، والتقديم والتأخير ، وبعضهم يزيد على هذه الأنواع الثلاثة التعريف والتنكير ، والجمع والإفراد ، والإدغام وتركه ؛ يقول الكرماني في مقدمة كتابه " البرهان في متشابه القرآن " : " هذا كتاب أذكر فيه الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن وألفاظها متفقة ، ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان ، أو تقديم أو تأخير ، أو إبدال حرف مكان حرف ، أو غير ذلك مما يوجب اختلافا بين الآيتين أو الآيات التي تكررت ..."[2] ويمكن من كل ما سبق أن نعرف المتشابه اللفظي بأنه : اتفاق الآيتين أو أكثر في أغلب الألفاظ ، واختلافهما في بعض ، بسبب إبدال أوزيادة أو

---

[1] – ينظر : المدهش لابن الجوزي ، ص :21/20/18.

[2] – البرهان في متشابه القرآن ، ص :63.

نقصان أو تقديم أو تأخير أو تعريف أو تنكير أو جمع أو إفراد ، أو إدغام أو فكه ، وغير ذلك مما يوجب الإختلاف ، وقد عرفه الدكتور أبو موسى بقوله : " هو تلك الأساليب المتشابهة في الكتاب العزيز، والتي تتمثل فروقها في ذكر فاء مكان واو ، أو في ذكر لفظة هنا وحذفها هناك ، أوفي تقديم هنا وتأخير هناك...[1]

وقد تبين أن الإبدال فرع من فروع المتشابه اللفظي ، وفي بيان أهمية دراسته يقول الدكتور أبو موسى : " ... كأن هذا الفرع هو التطبيق الحي والحق لمنهج الشيخ عبد القاهر ـ يعني نظرية النظم ـ وقد تفلت من أيدي البلاغيين لأنهم انصرفوا إلى مدارسة تراث الشيخ في جانبه النظري ، ولم يلتفتوا إلى المناحي التطبيقية لمنهجه ... والقصص والحوادث التي تتكرر وتتكرر معها عناصر كثيرة في الأسلوب بينهما فروق ، ترتبط بالسياق ارتباطا بالغ الدقة والرفاهة ، والكشف عنه يحتاج إلى مهارة ووعي ، وإحاطة شاملة ، وليس هناك أدخل في باب البلاغة العالية من مثل هذه البحوث ...[2]

تعريف الإبدال في اللغة :

الإبدال في اللغة هو : التغيير والتحويل ، سواء أكان هذا التغيير حسيا أم معنويا ، وسواء أكان في الصورة أم في الجوهر ؛ يقول ابن منظور نقلا عن أبي العباس ثعلب[3] : " يقال أبدلت الخاتم بالحلقة إذا نحيت هذا وجعلت هذا مكانه ـ إفناء الذات الأولى وإحداث ذات أخرى ـ وبدلت الخاتم بالحلقة إذا أذبته وسويته حلقة

---

[1] – دلالات التراكيب ، دراسة بلاغية ، د/محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، (ط/2، 1408هـ،1987م) ، ص:348/347.

[2] – نفس المصدر: ص :347.

[3] – أبو العباس ثعلب هو: أحمد بن يحيى بن يزيد، أبو العباس الشيباني، إمام الكوفيين في النحو،. ولد سنة (200هـ). قال الخطيب: وكان ثقة حجة، دينا صالحا، مشهورا بالحفظ وصدق اللهجة، والمعرفة بالغريب ورواية الشعر القديم، مقدما عند الشيوخ مذ هو حدث.. توفي رحمه الله سنة (291هـ). ينظر: طبقات النحويين للزبيدي (3/ 141) وتاريخ بغداد (5/ 204 – 212)وطبقات الحنابلة (1/ 83 – 84) وسير أعلام النبلاء (14/ 5 – 7).

ـ تغيير الشيء مع بقاء عينه ـ قال : وحقيقته أن التبديل : تغيير الصورة إلى صورة أخرى ، والجوهرة بعينها ، والإبدال تنحية الجوهرة واستئناف جوهرة أخرى ."[1]

ويقول الراغب الأصفهاني : " الإبدال والتبديل والتبدل والإستبدال : جعل شيء مكان آخر...والتبديل قد يقال للتغيير مطلقا وإن لم يأت ببدل ، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ البقرة :59. وقوله : ﴿ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ﴾ البقرة :181. وقوله : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ﴾ النحل :101. ... وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾ إبراهيم :48. وقوله: ﴿ إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ التوبة : 39.[2]

ومن خلال استعمالات القرآن الكريم لمادة (بدل) يتضح المعنى الأصلي للكلمة وهو: مطلق التغيير ، وهذا المعنى لا يغيب في التعريف الإصطلاحي لكلمة (الإبدال) ، إلا أن له حضورا في مجالين :

01- مجال علم الصرف .

02- مجال الدراسات القرآنية ، وبالتحديد في مجال المتشابه اللفظي .

تعريف الإبدال في الإصطلاح :

يعرف الإبدال في علم الصرف بأنه : " إزالة حرف ووضع آخر مكانه ، فهو يشبه الإعلال من حيث ، أن كلا منهما تغيير في الموضع ، إلا أن الإعلال يختص بحروف العلة ، فيقلب أحدهما إلى آخر ، وأما الإبدال : فإنه عام يشمل كل الحروف ."[3]

---

[1] – لسان العرب ، لابن منظور(711ه) ، دار صادر بيروت ، ط/3 (1414ه،1997م) ، ج/11 ، ص:48.

[2] – المفردات في غريب القرآن ، ص :111.

[3] – ينظر : الشافية في علم التصريف ، لابن الحاجب المالكي (646ه) ، ت/ حسن أحمد العثمان ، المكتبة المكية ، مكة ، ط/1، (1415ه،1995م) ، ص:109. وشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، ت/ محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار التراث بمصر، ط/20 ، (1400ه،1980م) ، ج/4 ، ص :214.

وأما الإبدال في الدراسات القرآنية فهو : قسم من أقسام المتشابه اللفظي ، ومجاله الآيات المتشابهة في القرآن الكريم ، التي تتفق في أغلب مكوناتها ، وتختلف في حرف أو كلمة.

وجوه الإبدال في القرآن الكريم :

ينقسم الإبدال في القرآن الكريم إلى ثلاثة أقسام هي :

01 ـ الإبدال بين حروف المعاني ، كحروف العطف والجر، وغيرهما ، كالإبدال بين (الفاء ، وثم) في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ **فَأَعْرَضَ** عَنْهَ ﴾ الكهف :75. وقوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ **ثُمَّ أَعْرَضَ** عَنْهَا ﴾ السجدة: وكالإبدال بين (إلى ، وعلى) في قوله تعالى : ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ **إِلَيْنَا** وَمَا أُنزِلَ **إِلَى** إِبْرَاهِيمَ ﴾ البقرة :136. وقوله : ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ **عَلَيْنَا** وَمَا أُنزِلَ **عَلَى** إِبْرَاهِيمَ ﴾ آل عمران :84.

02 ـ الإبدال بين الأسماء أو الأفعال ، كالإبدال بين (حية ، وثعبان) وبين (انفجرت ، وانبجست) .

03 . الإبدال بين النوع الأول والثاني ، كإبدال كلمة (خشية) بحرف الجر (من) في قوله تعالى : (من إملاق ، خشية إملاق) ، وهو في القرآن قليل جدا.

ويعتبر الإبدال ظاهرة عامة في القرآن الكريم ، لا يزال يحتاج إلى إحصاء وترتيب وتصنيف ، نظرا لكثرته ، لذلك سنحاول في هذه الدراسة الكشف عن أهم وجوهه ، وأسراره البلاغية ، وبيان أهميته في إبراز الفروق اللغوية والدلالية بين حروف المعاني ، وبين المفردات المعجمية ، فلغة القرآن لا تقر بالترادف ، باعتبارها قد استعملت أدق ما يكون الإستعمال ، ولا يمكن أن ينوب فيها حرف عن حرف أو كلمة عن كلمة .

تقول عائشة بنت عبد الرحمن " بنت الشاطيء " : " شهد التتبع الإستقرائي لألفاظ القرآن الكريم في سياقها ، أنه يستعمل اللفظ بدلالة معينة لايؤديها لفظ آخر ، في المعنى الذي تحشد له المعاجم وكتب التفسير عددا قل أو كثر من الألفاظ ."[1]

وموضوع الإبدال يزيدنا يقينا وتأكيدا أن لغة القرآن لغة محكمة ، لاترادف بين مفرداتها وإن ظهر ذلك لعامة الناس ، وفي ذلك يقول الدكتور سعيد رمضان البوطي رحمه الله : " ... بيد أن هذه الألفاظ إنما تعد مترادفة إذا ما أريدت منها الدلالة الإجمالية على المعنى ، وهي التي يقتنع بها العامة من المتكلمين ، وهم الذين لا يطمعون في أكثر من إيصال خلاصة إحساساتهم وأفكارهم إلى الآخرين ، اما عند من يسبر أغوار هذه الكلمات ، ويستخرج ما يمتاز كل منها من الخصائص والفروق ، فهي ليست من المترادف في شيء ، بل لكل منها دلالته الخاصة ، وإشاراته المتميزة ، وإيماؤه الذي لا يشترك فيه غيره ، وتصويره الذي ينفرد به عن سائر نظائره ، وإنما تتضح هذه الفروق وتتجلى للعيان عندما يريد الكاتب أو المتكلم أن ينهي إلى السامع صورة لدقائق إحساسه أو فكره وتأملاته ، فتراه يمايز بين هذه المترادفات ، ويتأمل في جرس كل منها ووقعه ودلالته ..."[2]

ولموضوع الإبدال أيضا ربط وثيق بنظرية السياق ، ويعد مصطلح (السياق) في الدراسات اللغوية الحديثة من المصطلحات العصية على التحديد الدقيق ، وإن كان يمثل نظرية دلالية من أكثر نظريات علم الدلالة (Semantics) تماسكا وأضبطها منهجا ، ومن ثم فلا بد من مقدمة تكشف عن طبيعة هذه النظرية ومحاورها الأساسية ، حتى يتضح لنا منهج الدراسة والنقطة المحورية التي تحاول أن تصل إليها.[3]

---

[1]– الإعجاز البياني للقرآن ومسائل نافع بن الأزرق ، عائشة محمدعلي عبد الرحمن (بنت الشاطيء) ، دار المعارف ، مصر ، ط/3، ص :215/214.

[2] – من روائع القرآن ، تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عزوجل ، د/سعيد رمضان البوطي ، مؤسسة الرسالة (1420هـ،1999) ، ص :137.

[3] – المتشابه اللفظي في القرآن الكريم د/ محمد القاضي ، دار الصحوة ، القاهرة ، (ط/1، 1430هـ، 2009م) ، ص :33.

مفهوم مصطلح السياق :

يطلق مصطلح السياق (Contexte) في الدراسات الحديثة على أجزاء القول أو النص المجاورة أو القريبة من الوحدة اللغوية المراد تفسيرها ؛ بمعنى : المحيط اللغوي الذي تقع فيه الوحدة اللغوية سواء أكانت كلمة أم جملة ، في إطار من العناصر اللغوية أو غير اللغوية " [1] ؛ يقول هاليداي : " السياق هو النص الآخر ، أو هو النص المصاحب للنص " .[2]

ولا شك أن للسياق دورا كبيرا في تحديد معنى الكلمة ، بل إن الكلمة خارج السياق ليس لها إلا المعنى المعجمي ، وقد لا تعني شيئا محددا حتى توظف في سياق معين ؛ فإذا أخذنا على سبيل المثال كلمة (يد) فهي قد تعني أشياء كثيرة لا نستطيع تحديدها إلا إذا وضعت في سياق معين ، وهذه قائمة بعدد من السياقات :

- يد الفأس : مقبضها .
- يد الطائر جناحه .
- فلان طويل (اليد) : إذا كان جوادا كريما.
- حتى يعطوا الجزية عن (يد) : عن ذل واعتراف للمسلمين بعلو أيديهم.
- بايعته (يدا) بيد : أي نقدا .

فمعنى الكلمة في كل مثال يتوقف على السياق الذي تظهر فيه ، ولذلك كانت العناية بالسياق من ضروريات تحليل النصوص وفهم دليل الخطاب .[3] وتعتبر مدرسة لندن بزعامة (Firth) زعيمة الإتجاه السياقي الذي يضع تأكيدا على الوظيفة الإجتماعية للغة ، ينظر أصحاب هذه النظرية السياقية إلى المعنى

---

[1] – السياق والمعنى، دراسة في أساليب النحو العربي ، د/ عرفات فيصل المناع ، مؤسسة السياب ، لندن ، ط/1 ، 2013 ، ص:11.

[2] – نفس المصدر، ص: 12.

[3] – علم الدلالة ، د/أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط/5 ،1998م. ص:70.

على أنه وظيفة السياق ، فالكلمة عندهم لا ينكشف معناها إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية ، أي : وضعها في سياقات مختلفة .[1]

ويعتبر السياق من أهم أنواع الدلالة في تراثنا العربي والإسلامي ، واعتناء العلماء به كان بالغا ، ومن أقوالهم في ذلك " لكل مقام مقال " وقولهم " المساقات تختلف باختلاف الأحوال "[2] ، وقد استعمل مصطلح السياق استعمالات مختلفة ، كالحال ، والمشاهدة ، والدليل ، والقرينة ، والمقام ، والبلاغيون بوجه خاص استعملوا مصطلح الحال والمقام ، واستخدم النحاة مصطلح القرينة والسياق ، ونحو قولهم :" النكرة في سياق النفي تفيد العموم "[3] .

وقد اعتبر الزركشي السياق السبيل الأقوم في فهم مدلولات الألفاظ حيث يقول في تقسيم تفسير القرآن : " والقسم الثاني : مالم يرد فيه نقل عن المفسرين وهو قليل ، وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق ، وهذا يعتني به الراغب كثيرا في كتاب " المفردات " فيذكر قيدا زائدا على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ ، لأنه اقتنصه من السياق "[4]

ويقول أيضا : " ... ليكن محط نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له ، وإن خالف أصل الوضع اللغوي لثبوت التجوز ، ولهذا ترى صاحب الكشاف يجعل الذي سيق له الكلام معتمدا حتى كأنه غير مطروح " [5]، أي : أنه يعتبر السياق آكد وجوه الدلالة.

---

[1] – نفس المصدر، ص :68.

[2] – الموافقات للشاطبي ، ت/ أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ، دار ابن عفان ، ط/1 ،1997م. ج/4، ص:266.

[3] – ينظر: بغية الإيضاح ، ج/4 ، ص :606.

[4] – البرهان في علوم القرآن ، ج/2، ص:172.

[5] – نفس المصدر ، ج/1 ، ص : 317.

أنواع السياق :

السياق نوعان : السياق اللغوي ، والسياق غير اللغوي ؛ يقول الدكتور فيصل المناع : " ... أما السياقيون فقد ابتعدوا عن تلك النظرة العقلية في تحديد المعنى ، ووضعوا بدلا منها عناصر تكون مسؤولة عن توجيه دلالة النص ، وهذه العناصر منها ما يكون لفظيا وهو ما يعرف بالسياق اللغوي ، ومنها ما يكون غير لفظي ، وهو قسمان : سياق موقف وسياق ثقافي " .[1]

فالسياق اللغوي يعني : جزءا من نص يحيط بكلمة أو قطعة معينة ، يساهم بشكل كبير في تحديد معناها ، ويعبر عنه الأسلوبيون بالسياق الصغير.

أما السياق غير اللغوي ، فهو يشمل كلا من سياق الموقف ، والسياق الثقافي ، والمفسرون المهتمون بعلوم القرآن يعتبرون السياق بنوعيه أحد أهم القرآئن في تحديد المعنى ، وفهم كتاب الله عز وجل ، لذلك كان اهتمامهم بالغا بأسباب النزول ، وفي بيان أهمية أسباب النزول يقول الشاطبي : " إن معرفة أسباب النزول لازمة لمن أراد علم القرآن ، والدليل على ذلك أمران :

أولا : أن علم المعاني والبيان الذي يعرف به إعجاز نظم القرآن فضلا عن مقاصد العرب ، إنما حواره على معرفة مقتضيات الأحوال ... إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين ، وبحسب مخاطبين ، وبحسب غير ذلك ، كالإستفهام ، لفظه واحد ، ويدخله معان أخر، من تقرير وتوبيخ وغير ذلك ، وكالأمر يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهها ، ولا يدل على المعنى المراد إلا الأمور الخارجة (السياق) ... ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط ، فهي من المهمات في فهم الكلام بلا بد ، ومعنى معرفة السبب : هو معنى معرفة مقتضى الحال...

ثانيا : وهو أن الجهل بأسباب النزول موقع الشُبه والإشكالات ، ومُورد النصوص الظاهرة مَوْرد الإجمال حتى يقع الإختلاف ، وذلك مظنة وقوع النزاع ."[2]

---

[1] – السياق والمعنى ، ص :13.

[2] – الموافقات ، ج/4 ، ص :146.

ومنهج العلماء في التعامل مع الخطاب القرآني يلخصها الإمام الزركشي بقوله : " أحسن طريق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أُجمل في مكان فقد فصل في موضع آخر ، وما اختصر في مكان فإنه قد بُسط في مكان آخر ، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له ... فإن لم يوجد في السنة يُرجع إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن ، ولما أعطاهم الله من الفهم العجيب ، فإن لم يوجد ذلك يرجع إلى النظر والإستنباط ...[1]

وتكمن أهمية المنهج السياقي في : أنه يجعل المعنى سهل الإنقياد للملاحظة والتحليل الموضوعي ، كما أنه يزيل الإشكال الذي يعترض النص أو الكلام ، وله دور كبير في تحديد معنى الكلمة ومجالات استعمالها ، وذلك ما يساعد على كشف الخلاف بين ما يعد مترادفا من الكلمات .

ودراسة الإبدال في الخطاب القرآني تعتمد على المنهج السياقي بشكل كبير، وذلك لأن الإبدال يقوم على مقارنة بين الآيتين المتشابهتين ، وكشف أوجه الإختلاف بينها ، إن كان الإختلاف في استعمال حروف المعاني ، أو في المفردات ، والسياق هو الذي يحدد لنا الأبعاد الدلالية للحرف والكلمة ، ويساعد الباحث في القرآن الكريم على كشف نقاط الترابط ، وإدراك أو جه الإتساق والإنسجام .

وما يميز الأدوات النحوية عن المفردات المعجمية هو القائمة المتاحة للإختيار في كل نوع ، فالنظام النحوي يعرف بأنه نظام مغلق ، وقائمة الاختيار فيه محدودة ، كالاختيار بين أدوات العطف ، وأسماء الإشارة وغيرها ، أما القائمة من النوع الثاني ، فهي قائمة مفتوحة تتيح لنا مجموعة من الاختيارات اللامحدودة في الغالب ، وهذا ما يوضحه (هاليداي) حين يفرق بين علمي النحو والمعجم على أساس مفهوم الاختيار ، يقول : " فلو قلت لك ضع في المكان الخالي مما بين القوسين كلمة مناسبة (.... الرجل كان جالسا) ، لقلت (هذا) ، لقد اخترت (هذا)

---

[1] – البرهان في علوم القرآن ، ج/2 ، ص : 158/157.

من بين مجموعة محدودة جدا من العناصر اللغوية هي ما يطلق عليه أسماء الإشارة ، وهي (هذا وهذه وهذان وهاتان ، وهؤلاء).

ولكنني لو قلت لك ضع كلمة مناسبة في المكان الخالي مما بين القوسين (هـــذا الرجل كان جالسا على....) ؛ فمن المحتمل أن تقول : كرسي ، أريكة ، الحشائش ، بساط ، ومن المحتمل أن تقول شيئا آخر ، بل من المحتمل ألا يتفق الشخصان فيما يمكن أن يضعاه من كلمات ".[1]

ومن أجل ذلك كان الاهتمام بالجانب الوظيفي للغة من أهم مبادئ الدراسات اللغوية الحديثة ، واعتُبر السياق من أهم المحددات الدلالية التي تحدد استقرار الوحدة اللغوية على المعنى المقصود ، وهذا ما أكد عليه (فندريس Vendryes) بقوله : " الذي يعين قيمة الكلمة ... إنما هو السياق ، إذ أن الكلمة توجد في كل مرة تستعمل فيها في جو يحدد معناها تحديدا مؤقتا ، والسياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أن تدل عليها ...". [2]

---

[1] – علم اللغة الحديث ، د. محمد حسن عبد العزيز ، مكتبة الآداب القاهرة ، ط/1،2011م ، ص :210.

[2] – السياق والمعنى ، ص :22.

1 ـ الفصل الأول : الأثر البلاغي للإبدال بين حروف المعاني .

عالج العلماء قضية الإبدال في القرآن الكريم على مستوى الحرف ، وعلى مستوى الكلمة ، وفي ذلك يقول الخطيب الإسكافي (420هـ) : " ونتعرف بهذا العلم على أسلوب القرآن الكريم في تكرير بعض الآيات بالكلمات المتفقة أو المختلفة، وحروفها المتشابهة، بأن تذكر الآية الواحدة ذات الموضوع الواحد في أكثر من موقع، مع إختلاف في جوانب التناول بين موقع وآخر، تقديما وتأخيرا، أو تعريفا وتنكيرا، أو جمعا وإفرادا، أو إبدال كلمة بأخرى، أو حرف بآخر، إلى غير ذلك من أنواع التشابه، وكثيرا ما يتصل هذا الاختلاف بمناسبة السياق القرآني في عرض الآيات، وذكر الأحداث التي يشتمل عليها." [1]

وموضوع هذا الفصل (الإبدال بين حروف المعاني) ، وقبل الشروع في عناصر هذا الفصل لا بد من تمهيد نتعرف فيه إلى معنى حرف المعنى .

1 ـ 1 ـ 1 ـ تعريف الحرف في اللغة والإصطلاح

1 ـ 1 ـ 1 ـ أ ـ معنى الحرف في اللغة :

يتفق أهل اللغة على أن معنى الحرف : الطرف والناحية ، ولابن جني (392هـ) كلام جميل يلخص لنا فيه معنى الحرف يغنينا عن غيره ، يقول رحمه الله : " فأما الحرف فالقول فيه وفيما كان من لفظه: أن "ح ر ف" أينما وقعت في الكلام يراد به حد الشيء وحدته، من ذلك حرف الشيء إنما هو حده وناحيته، وطعام حريف: يراد حدته، ورجل محارف، أي محدود عن الكسب والخير...وقال أبو عبيدة في قوله عز اسمه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ الحج:11. أي لا يدوم، تقول: إنما أنت على حرف، أي لا أثق بك ... لأن تأويله أنه قلق في دينه، على

---

[1] – درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ، تحقيق د/ محمد مصطفى آيدين ، معهد البحوث العلمية بمكة المكرمة ، ط/1 ،2001م. ج/1، ص:11.

غير ثبات ولا طمأنينة ولا استحكام بصيرة ، فكأنه معتمد علي حرف دينه، غير واسط فيه، كالذي هو على حرف الجبل ونحوه.

وقال أحمد بن يحيي: أي على شك، وهذا هو المعنى الأول، ومن هنا سميت حروف المعجم حروفا، وذلك أن الحرف حد منقطع الصوت وغايته وطرفه، كحرف الجبل ونحوه. "[1]

1 . 1 . 1 . ب . وفي الإصطلاح :

عرفه النحاة بأنه : ما دل على معنى في غيره ، [2]؛ فخرج بذلك الفعل، وأكثر الأسماء، لأن الفعل لا يدل على معنى في غيره. وكذلك أكثر الأسماء.

ومعنى دلالة الحرف في غيره : " أن دلالة الحرف على معناه الإفرادي متوقفة على ذكر متعلقه، بخلاف الاسم والفعل. فإن دلالة كل منهما، على معناه الإفرادي، غير متوقفة على ذكر متعلق؛ ألا ترى أنك إذا قلت الغلام فهم منه التعريف. ولو قلت أل مفردة لم يفهم منه معنى. فإذا قرن بالاسم أفاد التعريف. وكذلك باء الجر فإنها لا تدل على الإلصاق، حتى تضاف إلى الاسم الذي بعدها، لأنه يتحصل منها مفردة. وكذلك القول في سائر الحروف." [3]

وفي هذا التعريف عدم اعتبار حرف المبنى ، الذي تنتظم منه الكلمات ، كالزاي ، والياء ، والدال من زيد ، فالإهتمام به في الغالب يكون من الوجهة الصرفية ، لذلك إن نظرنا إلى الحروف من جهة الدلالة نجدها تنقسم إلى قسمين : حروف المباني ، وهي مكونات الكلمة ، وحروف المعاني ، وهي المقصودة في التعريف .

وتخصيص الإبدال بحروف المعاني لا المباني سببه أن الإبدال يعني إحلال عنصر مكان عنصر آخر ، وهذا الإحلال لا يتحقق إلا في حروف المعاني ، لأن

---

[1] – سر صناعة الإعراب ، لأبي الفتح ابن جني (392هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط/1، 1421هـ،2000م، ج/1، ص:28.

[2] – ينظر : المفصل في صناعة الإعراب للزمخشري (538هـ) ، ت/ د. علي بوملحم ، مكتبة الهلال ، بيروت ، ط/1 ، 1993. ص :379. و:الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي (749هـ) ، ت ، / فخر الدين قباوة ، ومحمد نديم فاضل ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط/1، 1413هـ،1992م ص:20.

[3] – الجنى الداني ، ص : 22.

حرف المبنى إذا تغير في الكلمة تغيرت رأسا ، كقعد وقصد ، او سجد وسجن ، إضافة إلى أن العلماء درسوا حرف المبنى في أبواب الزيادة والنقص ، والإدغام وفكه ، أي : في باب اختلاف الصيغ الصرفية ، كساحر وسحّار ، وبحار وأبحر ، وخطيئة وخطايا ، وهذا لا يدخل في باب الإبدال.

1 . 1 . 1 . جـ . أنواع حروف المعاني :

تنقسم حروف المعاني باعتبار اختصاصها إلى قسمين : حروف مختصة ، وحروف مشتركة .

الحروف المختصة : وهي إما مختصة بالأسماء كحروف الجر ، أو مختصة بالأفعال كحروف الجزم .

الحروف المشتركة : وهي الحروف المشتركة بين الأسماء والأفعال كحروف العطف .

وتنقسم حروف المعاني أيضا باعتبار عملها وعدمه إلى قسمين : **حروف عاملة ، وحروف لا تعمل** . فالحروف العاملة : هي التي تؤثر فيما تدخل عليه رفعاً، أو نصباً، أو جراً، أو جزماً. وغير العاملة بخلافها، وتسمى المهملة ، وهي المختصة .

وهناك قاعدة ذكرها العلماء في هذا الباب ، وهي : أن المختص بالإسم لا يخلو من أن يتنزل منه منزلة الجزء، أولا. فإن تنزل منه منزلة الجزء لم يعمل، كلام التعريف. وإن لم يتنزل منزلة الجزء فحقه أن يعمل، لأن ما لازم شيئاً، ولم يكن كالجزء منه، أثر فيه غالباً. وإذا عمل فأصله أن يعمل الجر، لأنه العمل المخصوص بالاسم. ولا يعمل الرفع ولا النصب، وأما المختص بالفعل فلا يخلو أيضاً من أن يتنزل منه منزلة الجزء أولا. فإن تنزل منه منزلة الجزء لم يعمل، كحرف التنفيس، وإن لم يتنزل منه منزلة الجزء فحقه أن يعمل.وإذا عمل فأصله أن يعمل الجزم، لأن الجزم في الفعل نظير الجر في الاسم. ولا يعمل النصب ؛ وأما المشترك فحقه ألا يعمل، لعدم اختصاصه بأحدهما، وقد خالف هذا الأصل أحرف، منها ما

الحجازية أعملها أهل الحجاز عمل ليس، لشبهها بها، وأهملها بنو تميم على الأصل.[1]

والإبدال بين حروف المعاني في القرآن الكريم جاء في مواطن كثيرة يصعب حصرها ، لكن من الممكن أن يصنف في وجوه ، وهذا ما سنتاوله في ثنايا هذا الفصل ، الذي خُصص لدراسة الإبدال بين حروف المعاني التالية (العطف ، والجر ، والنفي ، والإسم الموصول) فهذه أهم وجوهه التي وردت في القرآن الكريم.

[1] – ينظر الجنى الداني ، ص : 25. و همع الهوامع في شرح جمع الجوامع للسيوطي (911ه) ت/ عبد الحميد هنداوي ، المكتبة التوقيفية. مصر، ج/1 ، ص :46.

1 . 1 . 2 . الإبدال بين حروف المعاني .

1 . 1 . 2 . أ . حروف العطف ومعانيها :

اختار النحاة كلمة العطف للدلالة على صيغة معينة من صيغ التعبير اللغوي حيث يكون التابع دالا على معنى مقصود بالنسبة مع متبوعه ، وحيث يتوسط بينه وبين متبوعه أحد الحروف المسماة بحروف العطف ، مثل : قام زيد وعمر ، فعمرو تابع مقصود بنسبة القيام إليه مع زيد .

ولقد سمى البصريون هذا النمط من التعبير أسلوب العطف ، لملاحظة هذا المعنى ، وسموا الحروف المستعملة فيه حروف العطف ؛ أما الكوفيون فقد سموها حروف النسق ، لملاحظة المتابعة الإعرابية بين المعطوف والمعطوف عليه . وقد فرق ابن يعيش بين استعمالات البصريين والكوفيين في ذلك فقال : " يقال : حروف العطف وحروف النسق ، فالعطف من عبارات البصريين ، وهو مصدر عطفت الشيء على الشيء ، إذا أملته إليه ؛ يقال : عطف فلان على فلان ، وعطفت زمام الناقة إلى كذا ، وعطف الفارس عنانه ، أي : ثناه وأماله ، وسمي هذا القبيل عطفا لأن الثاني مثني إلى الأول ، ومحمول عليه في إعرابه ؛ والنسق من عبارات الكوفيين ، وهو من قولهم : ثغر نسق ، إذا كانت أسنانه مستوية ، وكلام نسق ، إذا كان على نظام واحد ، فلما شارك الثاني الأول ، وساواه في إعرابه سمي نسقا." [1]

وأهم قضايا العطف التي عالجها النحاة ما يلي :

1 . فكرة التبعية :

إذا ألقينا نظرة على كتاب سيبويه ، سنجد معالجته لقضايا العطف متناثرة في أبواب شتى ، بحسب مناسبة الحديث عن حروف العطف أو أحوال

---

[1] – شرح المفصل ، لعلي بن يعيش النحوي (643هـ) ، ت: أحمد السيد أحمد ، المكتبة التوفيقية ، مصر ، ج/8 ، ص :88.

الإعـراب ، دون أن يسميه بالاسم إلا نـــــادرا ، ومن ذلك مثلا : حديثه عن العطف تحت باب من أبواب الجر ، عنوانه : هذا باب ما أشرك من الإسمين في الحرف الجار فجريا عليه كما أشرك بينهما في النعت ، فجريا على المنعوت ، فهو يقـول فيه : " وذلك قولك مررت برجل وحمار ، فالواو أشركت بينهما في الباء ، فجـــــريا عليه ، ولم تجعل للرجل منزلة بتقديمك إياه يكون بها أولى من الحمار، ... ومن ذلك قولك مـررت بـــزيد فعمرو ، ومـررت برجل فامرأة ، فالفاء أشـركت بينهما في المرور ، وجعلت الأول مبدوءا به ..." [1]

وقد تابع النحاة سيبويه في ذلك ، فاهتموا بفكرة الإتباع الإعرابي ، وبعضهم كان يسمي التوابع كلها عطفا ، كابن يعيش الذي يقول :" وقد كان يـــلزم ذلك ، إلا أنهم خصوا هذا الباب بهذا الإسم . " [2]

2 . قضية الإشراك :

من المقولات النحوية في باب العطف ، أن المتعاطفين يشتركان في اللـفظ والمعنى ، أو في اللفظ ، فالحروف التي تفيد التشريك في الحكم والإعـراب (و، ف ثم ، حتى ، وأم ، وأو إن كانتا لغير الإضراب) ، وأما الحـروف الباقية (بل ، لا)لكن لا تفيد التشريك في الحكم وإنما تفيد التشـريك في اللفظ فحسب ، أي : في الإتباع الإعرابي فقط.[3]

وهكذا بحثـــوا مسألة العطف في حدود معنى التشريك في الحكم واللفظ ، أو في اللفظ فقط ، وهذه الفكرة أوقعت النحـاة في إشكـال كبير خصوصا في إسقاطـــها على القرآن الكريم ، فقد اعترضتهم آيات كثيرة تُنقض ما قرروه في هذا الباب ، ومن ذلك قولنا (الله ورسوله أعلم) ، ومن القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿إِنَّ

---

[1] – الكتاب ، لسيبويه (180هـ) ، ت: عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط/3، (1408هـ،1988)، ج/1، ص:473.

[2] – شرح المفصل لابن يعيش ، ج/8، ص:89.

[3] – ينظر جامع الدروس العربية للغلاييني ، المكتبة العصرية ، صيدا بيروت ، ط/28، (1414هـ،1993م) ج/3، ص:244.

اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ الأحزاب :56. وغير ذلك من الآيات الكثيرة ، التي لا ينبغي أن تفهم في إطار فكرة التشريك المطلق ، فعلم الله ليس هو علم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصلاة الله على النبي ليست هي صلاة الملائكة ، فلذلك يجب إعادة النظر في هذه المعايير النحوية التي أصبحت في بعض الأحيان عائقا للإبداع ، وفتحُ المجال للحس البلاغي الذي بمقدوره أن يخترق جدار الطوق النحوي ، ويمكن أن يكتشف معان جديدة لحروف المعاني ، كما فعل الزمخشري في الكثير من الأحيان .[1]

3 . مسألة الترتيب :

تحدث النحويون عن بعض حروف العطف التي تفيد الترتيب ، وقرروا أن المعطوفات إذا توسط بينها أحد حروف العطف ، فإنها مع (الواو) لا تفيد الترتيب وإنما تفيد الجمع المطلق ، أما إذا توسط المعطوفات حرف (الفا) فذلك يعني أن بين المعطوفين ترتيبا واتصالا ، وإذا كان حرف العطف (ثم) أفادت الترتيب مع التراخي في الإتصال ؛ " ورغم محاولة النحويين تقرير أنماط ثابتة للتعبير بهذه الحروف من حيث فكرة الترتيب ، فقد أشكل عليهم منذ وقت مبكر تطبيق النصوص القرآنية عليها في كثير من الأحيان ، وقد كتب الزجاج مثلا فصلا كاملا يتناول هذا الموضوع في الكتاب المنسوب إليه " إعراب القرآن " وعنوانه : باب ما جاء في التنزيل معطوفا بالواو والفاء وثم من غير ترتيب الثاني عن الأول ... "[2]

ومن النصوص التي أشكلت على النحاة ، قوله تعالى :﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ الأعراف :4. فالبأس لا يأتي

---

[1] – ينظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، لجار الله الزمخشري (538هـ) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط/3 ،1407هـ، ج/3، ص:515. وهو يتحدث عن معنى الإستبعاد في (ثم) ، وسيأتي الحديث عنها في مبحث الإبدال بين الفاء وثم .

[2] – بلاغة العطف في القرآن الكريم ، د/ عفت الشرقاوي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط/1 ، 1981م ، ص : 88،89.

المهلكيـــن بعد الإهلاك ؛ ومن ذلك أيضا قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ الأنعام :154. بعد خطاب النبي صلى الله عليه وسلم بآيات الوصايا :﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًاوَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾151. ولم تخل أجوبة النحاة وبعض المفسرين من البحث عن التقديرات والمحذوفات ليستقر لهم المعنى المقـــرر مسبقا لحروف العطف ، وهذا في نظر كثير من الدارسين ضرب من التعسف ، لا ينبغي أن يطبق على النص القرآني .

1 . 2 . ب . **تعريف العطف :**

ب . 1 **. تعريفه في اللغة :**

يعود معنى العطف في اللغة العربية الى معنى الرد ، والصرف ، والرجوع ، والثني ، والاشتمال ، يقال : عطف يعطف عطفا : انصرف ، وعطف عليه يعطف عطفا : رجع عليه بما يكره أو له بما يريد ، ويقال في الشيء اذا ثني احد طرفيه الى الاخر عطاف ، ومنه قيل للرداء المثني عطاف، ويقولون ثنى عطفه إذا اعرض وجفا ، قال تعالى : ﴿ ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله ﴾الحج :09. ويستعار للميل والشفقة ، يقال : عطف عليه : أي اشتمله بالرحمة والشفقة .[1]

وبهذا المعنى لكلمة العطف تدخل جميع التوابع (النعت والعطف والتوكيد والبدل) ، إلا أن العطف الاصطلاحي يختلف عن البقية في استعمال الواسطة بينه وبين متبوعه .

والعطف ثلاثة انواع : عطف النسق (وهو موضوع الدراسة) ، وعطف البيان ، وعطف التوهم أو العطف الصوري أو العطف على المعنى .

---

[1] – ينظر : لسان العرب ، ج/9 ، ص :310 ، والمفردات في غريب القرآن ، ص :372.

ب . 2 . **تعريف عطف النسق في الإصطلاح :**

عرف النحاة عطف النسق بأنه : " التابع المتوسط بينه وبين متبوعه أحد حروف العطف العشرة ." [1] وعرفه ابن مالك بقوله :

تال بحرف متبع عطف النسق ... كاخصص بود وثناء من صدق [2]

ومعناه التابع لما قبله بواسطة أحد حروف العطف ؛ والملاحظ أن أغلب كتب النحو لم تضع للعطف حدا ، وإنما باشرت الحديث عن حروفه ، ونذكر من ذلك " كتاب سيبويه " ، و " سر صناعة الإعراب لابن جني "، و " المقتضب للمبرد" ، و " المفصل للزمخشري "، و " أسرار العربية لابن الأنباري "... وغيرهم . وقد نقل السيوطي كلاما لابن حيان في نقد تعريف ابن مالك ؛ يقول : "قَالَ أَبُو حَيَّان : ولكونه بأدوات محصورة لاَ يحْتَاج إِلَى حَده وَمن حَده كَابْن مَالك بِكَوْنِهِ تَابعا بِأحد حُرُوف الْعَطف لم يصب مَعَ مَا فِيهِ من الدّور ولتوقف معرفَة الْمَعْطُوف على حرفه وَمَعْرِفَة الْحَرْف على الْعَطف ."[3]

فالعطف إشراك اللاحق بالسابق ، وأحكام هذا الإشراك تختلف من حرف إلى حرف وقد تصل إلى الإضراب والإبطال ، كما هو الحال في حرف العطف (بل) ، لذلك كان من الصعب تحديد معنى جامعا مانعا للعطف ؛ وهذه من القضايا الخلافية بين النحاة تطلب في مظانها لمن أراد التوسع فيها.

وحروف العطف عشرة ، حاز موضوع هذه الدراسة منها على أربعة حروف وهي كالتالي : (و ، ف ، ثم ، بل) ، ولم يرد في القرآن الكريم إبدال في باب العطف إلا هذه الأربعة ، و سنقتصر على هذه الأربعة في هذا الفصل .

---

[1] – ينظر: كتاب التعريفات للشريف الجرجاني (816هـ) ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط/1 ، 1403هـ،1983م.ص:151.

[2] – شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، ج/3، ص :101.

[3] – همع الهوامع للسيوطي ، ج/3 ، ص :155.

1 . 1 . 3 . معاني حروف العطف :

من المهم هنا أن نعيد التذكير بأنه سيقع الإقتصار فقط على حروف العطف التي ورد بينها الإبدال في القرآن الكريم ، وهي أربعة :

3 . 1 . حرف الواو :

واو العطف أصل حروف العطف ، وأم الباب لكثرة استعماله ودوره فيه ، فبقية الحروف تزيد على معنى العطف معان أخرى ، كزيادة الترتيب والتعقيب في (الفاء) والتراخي في (ثم) ... الخ .

وتتلخص معاني (الواو) في أنها تعطف الشيء على مصاحبه ، نحو قوله تعالى : ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة ﴾ العنكبوت :15 ، وعلى سابقه ، نحو قوله سبحانه : ﴿ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم ﴾ الحديد :26. [1]

ويقول ابن جني : " واعلم أن هذه الواو إذا كانت عاطفة فإنها دالة على شيئين : احدهما الجمع ، والأخر العطف ، إلا أن دلالتها على الجمع أعم فيها من دلالتها على العطف ." [2]

وتتلخص معاني الواو في :

أ- أنها لمطلق الجمع والاشتراك ، سواء كان ذلك في عطف المفردات أم عطف الجمل.

يقول الجرجاني : " أول ما ينبغي أن تعلم في الواو أن الذي أرادوه فيها بالجمع ؛ ليس هو مما يظنه الناس ؛ وذلك أنهم ظنوا أن المعنى إذا قلنا في مثل : جاءني زيد وعمرو ، أن الواو للجمع ، أنهما جاءا معا ، وفي حال واحدة ؛ وهذا خطأ منهم في الظن ، وإنما مرادهم بالجمع أن المعطوف يشارك المعطوف عليه في الحكم الذي علقته به ، فإذا قلت : جاءني زيد وعمرو ؛ كنت قد جمعت بينهما في

---

[1] – ينظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (1349هـ،1974م)،ج/2 ، ص:304.

[2] – سر صناعة الإعراب ، ج/2، ص :283.

إثبات المجيء لهما ، وجعلتهما شريكين في هذا الحكم ؛ فأما المجيء نفسه فليس القصد بالجمع إليه ".[1]

ب . عدم إفادة الترتيب ، وهذا مذهب جمهور النحاة والفقهاء ، يقول ابن جني :" فاما واو العطف فنحو قولك (قام زيد وعمرو) وليس فيها دليل على المبدوء به في المعنى لانها ليست مرتبة ."[2]

ويقول الجويني : " ومن اصدق الشواهد في إبطال ادعاء الترتيب : أن العرب استعملت الواو في باب التفاعل ، فقالت :تقاتل زيد وعمرو ، ولو قالت تقاتل زيد ثم عمرو ، لكان خلفا ." [3]

3 . 2 . حرف الفاء :

ومن حروف العطف حرف (الفاء) ، وفي الباب العطف لها عدة معان :

أ . الترتيب ، معنويا كان نحو ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ﴾ القصص:15، أو ذكريا : وهو عطف مفصل على مجمل نحو: ﴿ فأزلهما الشيطان فأخرجهما مما كانا فيه ﴾ البقرة :36.

ب . التعقيب ، ويراد به أن يكون المعطوف بالفاء متصلا بها بلا مهلة ، ومنه قول ابن مالك :

والفاء للترتيب باتصال ** وثم للترتيب بانفصـــال [4]

وهو في كل شيء بحسبه ، وبذلك ينفصل عن التراخي في نحو ﴿ أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ﴾ الحج :63.

---

[1] – شرح الجمل في النحو ، عبد القاهر الجرجاني ، ت : د/ خليل عبد القادر عيسى ، ط/10،2011م ، دار ابن حزم ، بيروت ، ص :281.

[2] – سر صناعة الإعراب ، ج/2 ، ص:277.

[3] – البرهان في أصول الفقه ، لإمام الحرمين الجويني (478هـ) ، ت: صلاح بن محمد بن عويضة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط/1، (1418هـ، 1997م) ، ج/1، ص : 50.

[4] – شرح ابن عقيل ، ج/3، ص:103.

جـ . السببية غالبا ، نحو قوله تعالى : ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ﴾ القصص :15.

3 . 3 ـ ثـــــم ومعانيها.

تختلف (ثم) عن (الفاء) بأنها تفيد :

أ– التراخي في التعقيب ، أي : أنه يكون بالعطف بها دلالة على عدم اتصال المعطوف بالمعطوف عليه مباشرة ، بل يكون بعد مهلة زمنية طالت أم قصرت ، بخلاف الفاء فإن العطف بها يقتضي الإتصال .

ب . التشريك في اللفظ والحكم ، وذلك نحو قولك : مررت برجل ثم امرأة ، ف(ثم) هنا أشركت بين الرجل والمرأة في المرور ، كما أشركت بينهما في الحكم الإعرابي ، فالتشريك في اللفظ والحكم شرط عطفيتها.

وتتفق ثم مع الفاء في :

جـ . أنها تفيد الترتيب في المعنى ، وهو كون ما بعدها متأخرا عن ما قبلها .

3 . 4 . بـــل ومعانيها :

بل حرف إضراب إذا ما تلاها جملة ، ثم تارة يكون معنى الإضراب [1]:

1 . الإبطال لما قبلها ، نحو قوله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحنه بل عباد مكرمون ﴾ الأنبياء:

2 . وتارة يكون معناها الإنتقال من غرض إلى آخر ، قوله تعالى : ﴿ ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لايظلمون بل قلوبهم في غمرة من هذا ﴾ المؤمنون :63/62.

ونقل السيوطي عن ابن مالك أنها لا تقع في القر آن إلا على هذا الوجه ، ووافقه على ذلك صاحب البسيط ، وابن الحاجب .

---

[1] – الإتقان ، ج/2، ص :219.

ولم ترد (بل) في القرءان الكريم عاطفة مفردا على مفرد.

وأهم قضايا العطف التي تناولها البلاغيون قضية الوصل والفصل بحرف (الواو) ، حتى قيل في حد البلاغة أنها : معرفة الوصل من الفصل [1]؛ واعتبر الجرجاني الفصل والوصل من أسرار البلاغة التي لا يحسنها ولا يصيب الغرض فيها إلا الخلّص من العرب ، أو من قوم طبعوا على البلاغة ، وأتوا فنا من المعرفة في ذوق الكلام ؛ وبقية حروف العطف لا يشكل الأمر فيها ، فالعطف بها جلي .

يقول الجرجاني : " والذي يشكل أمره هو الضرب الثاني ، وذلك أن تعطف على الجملة العارية الموضع من الإعراب جملة أخرى ، كقولك : زيد قائم وعمرو قاعد ، والعلم حسن والجهل قبيح ، لا سبيل لنا إلا أن ندعي أن الواو أشركت الثانية في إعراب قد وجب للأولى بوجه من الوجوه ؛ وإذا كان كذلك فينبغي أن تعلم المطلوب من هذا العطف والمغزى منه ...[2]

ويعتبر العطف في الدرس اللساني وبالتحديد في علم لغة النص أحد العوامل المهمة في تحقيق التماسك النصي ، وأحد عناصر السبك النحوي ، ويعتبر (هاليداي ورقية حسن) أن السبك النحوي يتمثل في الطريقة التي يرتبط بها اللاحق بالسابق بشكل منظم ، وأن النص يتمثل في جمل أو متتاليات متعاقبة خطيا ، ولكي تدرك بوصفها وحدة متماسكة تحتاج إلى عناصر رابطة بينها .[3]

---

[1] – ينظر دلائل الإعجاز ، ص :221.

[2] – نفس المصدر ، ص : 222.

[3] – ينظر : السبك في العربية المعاصرة ن د/ محمد سالم أبو عفرة ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط/1 ، 2010م، ص:136.

1 . 1 . 4 . الإبدال بين حروف العطف :

من وجوه الإبدال في القرءان الكريم ، الإبدال بين حروف العطف التاليـــة : (الواو ، الفاء ، ثم ، بل) ، وفي ما يلي ذكر أهم وجوهه .

1 . 1 . 4 . 1 . الإبدال بين الواو والفاء :

ومن ذلك قوله﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ البقرة: 35.

وَقَوْلِهِ ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾الاعراف :19.

فالإبدال بين الآيتين وقع في بين الكلمتين المعطوفتين (وكلا منها/ فكلا من حيث).

وقد تناول العلماء هذين الآيتين وبينوا السبب والمناسبة في مجيء كل حرف في موضعه ، وقد جاءت توجيهاتهم متقاربة حينا ومتباعدة ،لاعتباراتهم المتعددة في التوجيه ، فمنهم من اعتمد على المعنى النحـوي لأدوات العطف ، ومنهم من أضاف إلى ذلك دور السياق في استدعاء كل حرف إلى موضعه اللائق به .

وكانت انطلاقة معظم المفسرين والبلاغيين في توجيـــه الإبدال بين حروف المعاني في الآيات المتشابهة ، من المعاني التي حـددها النحاة لمعاني الحروف فإذا كان (الواو): يفيد الجمع المطلق ولا يفيد الترتيب ، و (الفاء) : يفيـــد الترتيب والتسبيب والإتصال الزمني دون مهلـــة ، فإن معاني هذه الحروف في نظرهم يجب أن تتحقق في دلالـــة كل تركيب جاء العطف فيه بهما ، ولذلك جاء توجيـه معنى الآيتين معتمدا على معنى كل حرف عند جمهرة من العلماء .

وبمعنى الحر ف حددوا المعنى المعجمي لكلمة (اسكن) ، فقد ذكـروا : أن السكـن في الآيتين ليس بمعنى :السكون الذي هو ضد الحركـــة ، وإنما الذي في البقـــرة من السكون الذي معناه : الإقامة ، فلم يصلح إلا بالواو ، لأن المعنـــى :

اجمعا بين الإقامة فيها والأكل من ثمارها ، ولو كان الفاء مكان الواو لوجب تأخير الأكل إلى الفراغ من الإقامة ، لأن الفاء للتعقيب والترتيب .

والذي في الأعراف من السكنى التي معناها : اتخاذ الموضع سكنا ... فكانت الفاء أولى ، لأن اتخاذ المسكن لا يستدعي زمانا ممتدا يمكن الجمع بين الإتخاذ والأكل فيه ، بل يقع الأكل عقيبه.[1] لأن معنى الواو لا مراعاة فيه لحدود الزمن ، بخلاف الفاء فانه يقتضي التعقيب والاتصال بدون تراخ ، فناسب أن يوضع كل حرف في مكانه الخاص به . فهذا المعنى أو التوجيه هو ما سار عليه اغلب المفسرين والعلماء الذي اهتموا بتوجيه الآيات المتشابهة في القرءان الكريم .

ونشير هنا إلى أن ابن جماعة أضاف زيادة نوعية ، حيث وسع نطاق الدلالة إلى السياق السابق واللاحق داخل الآية ، فهو يرى أن استفتاح الآية في سورة البقرة جاء بقوله تعالى ((وقلنا ياآدم)) ، فنسب المولى سبحانه وتعالى القول لنفسه زيادة في التكريم ، أما في سورة الأعراف فقال ((ويا آدم)) ؛ وأضاف في سورة البقرة كلمة (رغدا) التي تفيد زيادة التوسعة والتنعم ، وقال بعدها (حيث شئتما) لأنه أعم ، وفي الأعراف قال :(من حيث شئتما) وهي لا تفيد عموم معنى شئتما .[2]

وقد جمع السيوطي في كتابه معترك الأقران بين ما سبق من توجيه وبين توجيه الكرماني ولم يضف إلى ذلك شيئا. [3]

وقد برزت توجيهات بعض العلماء واتجهت نحو معنى أوسع ، متجاوزين في ذلك معنى الآية /الجملة ، إلى سياقها التي وردت فيه ، باعتبار أن السياق من أهم عناصر تحديد الدلالة وتمييزها ؛ ويلاحظ أن الاهتمام بدلالة السياق في هذين الآيتين ، لم يكن هو الأغلب عند العلماء ، لكنه كان من أكثر التوجيهات توفيقا

---

[1] – ينظر : البرهان في متشابه القرآن ، ص : 70.

[2] – ينظر : كشف المعاني في المتشابه من المثاني ، لبدر الدين بن جماعة (733هـ)، ت: د/عبد الجواد خلف ، دار الوفاء المنصورة ، ط/1 ،1410هـ-1990م ، ص : 92.

[3] – ينظر : معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط/1، 1408هـ،1988م، ج/1، ص:67.

في إبراز بلاغة الحرف في موضعه ، وأكثر التحليلات إقناعا واستـدلالا ، ونخـص بالذكر توجيهات ابن عاشور ، وفاضل السامرائي ، أما ابن الزبير الغرناطي فكان له توجيه جيد إلا أنه اتسم بعدم الوضوح ، ويرى الباحث أن توجيه ابن الزبير قد فتح بابا جديدا للنظر في سيـــاق الآيتين ، ولكنه لم يضعنا أمام دليل يقود الدارسين إلى تبني رأيه ، وإن كان بعض المعاصرين قد استساغوا توجيهاته إلا أنهم ذكروهـــا دون تعليق مناسب ، كما فعـــل كل من الدكتور محمد القاضي ، والدكتور محمد فاضل صالح السامرائي ، ومع ذلك يرى الباحث أن رأي ابن الزبير وجيه لكنه يحتاج إلى أدلة تمكنه من حق الوجود ؛ وهذا ما سنحاول الكشف عنه والإستدلال عليه ، لأن الرأي الذي يميل إليه الباحث منتزع من رأي ابن الزبير وابن عاشور .

يذكر فاضل السامرائي في بيان مناسبة كل حرف في موضعه رأيا وجيهـا وكانت انطلاقته من السياق العام لكل آية ، فقرر أن سياق سورة البقرة سياق تكريـم وتعظـيم وتفضل على سيدنا آدم ، بدلالة المعاني التاليـة : (الإستخلاف ، التعليم التفوق على الملائكة ، الأمر بالسجود له) ، فناسب العطف بالواو الـدال علـى التوسعة والتنعيم . وأما سياق آيـة الأعراف فهو سيـاق يظهـر فيه غضب المولى سبحانه وتعالى (الهلاك ، الحساب ، الحوار مع الشيطان وعصيانه السافر ، طـرد الشيطان ... الخ) ، فلذلك ناسب العطف بالفاء مقامه ، لأنه مقامـه دون المقام الأول في التعظيم والتكريم .

ومن ناحية أخرى استدل بالسياق اللغوي البعدي لآية البقرة ، بقوله تعالى بعد الأمر بالسكن والأكل (رغدا) خلافا لسورة الأعراف ، وبقوله (حيث شئتمـا) التي تدل على السعة والاختيار بتقدير (اسكنا حيث شئتما ، وكلا حيث شئتما) أمـا في سورة الأعراف ، فالظرف اتصل ب(من) التي قلصت معنى التوسع ، (فكـلا من حيث شئتما) فلا يمكن أن يقدر (اسكنا من حيث شئتما وكلا من حيث شئتما) .[1]

---

[1] – ينظر : التعبير القرآني ، للدكتور فاضل صالح السامرائي ، دار عمار ، عمان ، ط/4 ،(1427هـ،2006م)، ص : 286 إلى 291.

و الخلاصة أن الواو في معنى الاتساع فناسب مقام التكريم ، والفاء يضيق فيها الاتساع ، فناسب ورودها في سياق الهلاك والعذاب .

أما ابن عاشور فإنه يرى أن " الواو من قوله تعالى : (ويا آدم) عاطفة على جملة (اخرج منها مذءوما مدحورا) الأعراف :18 ، فهذه الواو من المحكي لا من الحكاية ، فالنداء والأمر من جملة المقول المحكي ، يقال : أي قال الله لإبليس اخرج منها ، وقال لآدم اسكن ، وهذا من عطف المتكلم بعض كلامه على بعض إذا كان لبعض كلامه اتصال وتناسب مع بعضه الآخر ، ولم يكن أحد الكلامين موجها إلى الذي وجه إليه الكلام الآخر مع اتحاد مقام الكلام ، كما يفعل المتكلم مع متعددين في مجلس واحد فيقبل على كل مخاطب منهم بكلام يخصه ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في قضية الرجل الأنصاري الذي كان ابن الرجل عسيفا عليه :((والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله عز وجل ، أما الغنم والجارية فرد عليك ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام ، واغد يا أنيس على زوجة هذا فإن اعترفت فارجمها) [1] ؛ و من أسلوب هذه الآية ما في قوله تعالى :﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ [يوسف: 28، 29] ، حكاية لكلام العزيز ، أي العزيز عطف خطاب امرأته على خطابه ليوسف فليست الواو في قوله : (ويا آدم اسكن) بعاطفة على أفعال القول التي قبلها حتى يكون تقدير الكلام : (وقلنا يا آدم اسكن) ، لأن ذلك يفيت النكت التي ذكرناها وذلك في حضرة واحدة كان فيها آدم والملائكة وإبليس حضورا . وفي توجيه الخطاب لآدم بهذه الفضيلة بحضور إبليس بعد طرده زيادة إهانة ، لأن إعطاء النعم لمرضي عليه في حين عقابمن استأهل العقاب زيادة حسرة على المعاقب ، وإظهارا للتفاوت بين مستحق الإنعام ومستحق العقوبة ، فلا يفيد الكلام من المعاني ما أفاده العطف على المقول المحكي ، ولأنه لو أريد ذلك لأعيد فعل القول...على أن آية البقرة لم تخل من ذكر ما فيه تكرمة لآدم ، وهو قوله : (رغدا) لأنه مدح للممتن به

---

[1] – ينظر صحيح البخاري ، لمحمد بن اسماعيل البخاري (256هـ) ت: محمد زهير بن ناصر الناصر ، دار طوق النجاة ، ط/1 ، 1422هـ، باب الوكالة في الحدود ، رقم الحديث :2314، ج/3 ، ص :102.

أو دُعاء لآدم ، فحصل من مجموع الآيتين عدة مكارم لآدم ، وقد وزعت على عادة القرءان في توزيع أغراض القصص على مواقعها ليحصل تجديد الفائدة ، تنشيطا للسامع ، وتفننا في أساليب الحكاية ، لأن الغرض الأهم من القصص في القرآن إنما هو العبرة والموعظة والتأسي.[1]

أما ابن الزبير فيرى في سبب اختصاص آية البقرة بحرف (الواو) وآية الأعراف بحرف (الفاء) أن الوارد في آية البقرة قصد به مجرد الإخبار بما جرى في قصة آدم ، من ابتداء خلقه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، وما جرى من امتناع إبليس عن السجود ، وما أمر به آدم من سكن الجنة والأكل منها من غير ترتيب زماني أو تحديد غاية فناسبه (الواو) .

وأما آية الأعراف فقصد بها تعداد نعم الله تعالى على آدم وذريته ، فقد تقدمها قوله تعالى : ﴿ ولقد مكناكم في الأرض ﴾ الآية : 10، ثم أتبع به ذكر الخلق والتصوير وأمر الملائكة بالسجود لآدم ، ثم قوله لإبليس :﴿ اخرج منها مذءوما مدحورا ﴾ الآية : 18، ثم بعد ذلك أمر آدم بالهبوط متبعا بالتأنيس له ووصية ذريته في قوله ((يا بني ءادم لا يفتننكم الشيطان)) الآية :27 ، فناسبه العطف بالفاء المقتضية للترتيب.[2]

وخلاصة القول في ذلك :

. أن الرأي الذي يميل إليه البحث مزدوج من رأي ابن عاشور في توجيه آية الأعراف باعتبار أن السمة التعبيرية للسياق تدل على الخطاب المباشر الذي كان فيه آدم والملائكة وإبليس حضورا ، والرأي الثاني رأي ابن الزبير في توجيه آية البقرة بأنها وردت في سياق الإخبار ، وسنورد من الأدلة ما يؤكد ذلك .

---

[1] – التحرير والتنوير ، للطاهر بن عاشور (1383هـ) ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1984م، ج/8، ص:52.

[2] – ينظر : ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل ، لابن الزبير الغرناطي (708هـ)، ت : عبد الغني محمد علي الفاسي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج/1، ص:36.

آ . مركزية الحوار في آية البقرة ، فقد بدا جليا في الشطر الأول من القصة أي : في ذكر محاورة المولى سبحانه وتعالى ملائكته في استخلاف آدم ، وما جرى من تعليمه الأسماء كلها ، وتفوقه على الملائكة في معرفة الأسماء ، أما الشطر الثاني من القصة أي من قوله تعالى : ((وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم)) فقد اتسم التعبير فيها بالاختصار والإجمال .

ب . أن قصة إبليس في البقرة طويت أحداثها فلم تذكر بالتفصيل والحوارية اللتين كانتا السمة الجلية في قصة إبليس في سورة الأعراف .

ج. يلاحظ أن الآيتين اختلفتا في ارتباطهما بما قبلهما ، فالعطف في آية البقرة كان على قوله تعالى :وإذ قلنا للملائكة اسجدوا)) ، فالواو في قوله تعالى ((وقلنا يا آدم اسكن)) من الحكاية لا من المحكي ، بخلاف العطف في سورة الأعراف ، فقوله تعالى ((ويآدم اسكن)) عطف المحكي على بعضه ، ففي آية البقرة نلاحظ عطف حكاية على حكاية أخرى بينهما ارتباط واضح ، أما في سورة الأعراف فالعطف بين كلام محكي متصل ، في مقام واحد .

د . أن ما يؤكد السمة الإخبارية في سياق سورة البقرة ، أن وصف إبليس بالإمتناع جاء طويلا (أبى ، استكبر ، كان من الكافرين) عكس ما ورد في صفته في سور القرءان الأخرى ، كما جاء في الأعراف ((لم يكن من الساجدين)) وفي سورة الحجر ((لم يكن مع الساجدين)) وفي سورة الكهف ((كان من الجن ففسق)) وفي سورة طه ((أبى)) وفي سورة ص ((استكبر وكان من الكافرين)) فدل الوصف الطويل لإبليس في سورة البقرة عن قصدية التعويض عن التفصيل مما يدل على أن المقام مقام إخبار وإجمال ، لا مقام حوار وتفصيل ، فناسب بعد ذلك أن يعبر بالواو التي من دلالتها الإجمال ، عكس الفاء ، فهي تفيد نوعا من التحديد وذلك في زمنها الذي يدل على الاتصال ، وفي رتبتها التي تدل على التعقيب .

هـ. أن في العطف بالواو في قوله تعالى ((وكلا)) عطف على القول في قوله (وقلنا) أي بتقدير (وقلنا كلا) ، لذلك لا يناسبها إلا العطف بالواو، وهذا ما

يؤكد أن المقام مقام إخبار ، خلافا لآية الأعراف ، فإن العطف فيها جاء بالفـــاء عطفا على الأمـــر (اسكن) في كـلام متصـــل مباشر ؛ ومناسبة الفاء أنها تفيد الإسراع بالتلبس بالنعم زيادة في إهانة إبليس المطرود بحضرة آدم والملائكة . أمـا الواو فلا تفيد معنى الإسراع ، بل للدلالة على السعة في الاختيار ، وهو المناسب لمقام التكريم ، فلو أنك قلت لشخص ما : (ادخل وكل) كان له الحق في أن يأكل متى شـــــاء على حسب رغبته ، فمتى أكل كان موافقا للأمر . ولو قلت : (ادخل فكل) كان عليه أن يأكل في عقب الدخول ، ولو تأخر لكان مخالفا للأمر .[1]

فالتعبير بالواو ناسب مكانه في سورة البقرة ، وكذلك الفاء في سورة الأعراف ، وبهذا التوجيهات تتجلى أمامنا صور الإعجاز البياني ، في استعمال كل حرف في موضعه ، بحيث لا يمكن أن يستبدل به غيره ، وتتضح كذلك دقـــــة الترابط بين أجزاء الآية وسياقها ، في إحكام عجيب ، ورصف متناه .

---

[1] – دراسة المتشابه اللفظي من آي التنزيل ، لمحمد فاضل صالح السامرائي ، دار عمار الأردن ، ط/3، 2011م، ص:156.

1 . 1 . 4 . 2 . الإبدال بين حرفي (الفاء ، وثم)

مما سبق ذكره أن (فاء النسق) تفيد الترتيب والتعقيب دون مهلة وبدون تراخ وتفيد كذلك معنى التسبيب ، أما (ثم) فتفيد الترتيب والتعقيب المتراخي ، أي أن الزمن في حرف الفاء ضيق ، وفي (ثم) متسع ، فإذا قلت مثلا (جاء زيد فعمرو) يفيد ذلك أن عمرا حدث مجيئه بعد زيد مباشرة دون تأخير ، أما إذا قلت (جاء زيد ثم عمرو) أفاد ذلك أن عمرا جاء بعد زيد ، لكن يحتمل أن يكون جاء بعده مباشرة أو بعد مدة طويلة ، فالفرق بين معنى الفاء ، وثم ، فرق في تحديد المدة الزمنية التي تضيق مع الفاء وتتسع مع ثم .

والإبدال بين حرفي (الفاء ، وثم) جاء في قوله تعالى :﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ الكهف :57.

وقوله سبحانه في آية أخرى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ السجدة : 22. فلماذا جاء التعبير بـ(الفاء) في سورة الكهف ، وبـ(ثم) في سورة السجدة ؟.

يرى الكرماني[1] أن أية سورة الكهف جاءت في خطاب الكفار الأحياء ، أي : ذكروا فأعرضوا عقيب ما ذكروا ونسوا ذنوبهم ، بعد أن كان متوقع منهم أن يؤمنوا ؛ أما الآية في سورة السجدة فهي في مخاطبة الكفار الأموات ، واستدل على ذلك بما سبق من قوله تعالى ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ﴾ أي : ذكروا مرة بعد مرة وزمانا بعد زمان ثم أعرضوا عنها بالموت ، فلم يؤمنوا وانقطع رجاء إيمانهم.

---

[1] – ينظر البرهان في متشابه القرآن ، ص :169.

ورأى ابن جماعة وابن الزبير في أحد رأييه وابن عاشور أن آية سورة الكهف سبقت بذكر الجدل المؤذن بالإعراض المباشر، قال تعالى ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾ الكهف :55. فالمجادلة بالباطل لدحض الحق قرينة قبلية تدل على أن المخاطبين هم المعاصرون لنزول الوحي ، وهذا ما جعلهم يفسرون معنى الآيات في الآية بالقر آن الكريم ، إضافة إلى ماورد من قرينة بعدية تؤكد ذلك ، وهي قوله سبحانه :﴿ إنا جعلنا في قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي ءاذانهم وقرا ﴾ الكهف :58 . أما معنى الآيات في سورة السجدة فقد اعتبره ابن الزبير معنى عام يشمل كل الآيات التي جاء بها الأنبياء كناقة صالح ، وعصا موسى ، وبينات عيسى عليهم الصلاة والسلام ، وخالفه في ذلك ابن عاشور معتبرا أن معنى الآيات في الموضعين يعني القرءان الكريم.[1]

تلخيص آراء العلماء في توجيه آيتي سورة الكهف وسورة السجدة :

أ . سورة الكهف وسياقها :

رأى الكرماني أن الخطاب في سورة الكهف للكفار الأحياء . ورأى ابن جماعة كذلك أن الخطاب للعرب بدليل ذكر الجدل في الآية (56) قبل الآية.

أما الخطيب الإسكافي : فيرى أن ذكر الجدل قبل الاية يدل على ان السياق في ذكر من يستدعون الى الإيمان ولم تختم أعمالهم بالكفر.[2]

وقد جاء رأي ابن الزبير جامعا لآراء من سبق فهو يرى أن الخطاب للعرب ، ومعنى قوله سبحانه ﴿ ممن ذكر بآيات ربه ﴾ أي : بالقرآن ، بدليل أن الله سبحانه وتعالى ذكره سابقا مع ذكر الجدل ، وأعاد ذكره بعد الآية التي معنا ، عند ذكر الطبع على القلوب وعدم الفقه .

---

[1] – ينظر : كشف المعاني ، ص:240. و: ملاك التأويل ، ج/2، 320. و: التحرير والتنوير، ج/15 ، ص:354.

[2] – ينظر درة التنزيل ، ص :876.

ولابن الزبير رأي آخر يرى فيه أن سياق سورة الكهف ذُكر فيها إرسال الرسل وقيامهم بالتبليغ عن الله وهو ما يتناسب مع ذكر الإعراض المباشر فناسب ذلك ذكر الفاء.[1]

ولابن عاشور رأي يتفق مع من سبق، في أن الخطاب للعرب وان الإعراض في سورة الكهف من العرب الذين نزل فيهم القرءان وفسر الآيات في الموضعين بالقرءان الكريم ، وقال : الآية مصوغة بصيغة العموم والمقصود الأول منها مشركوا أهل مكة ، والضمير في (يفقهوه) عائد إلى القرءان المفهوم من المقام والمعبر عنه بالآيات.

ب . أما توجيه آية سورة السجدة :

فيرى الكرماني : أن الخطاب للكفار الأموات بدليل السياق القبلي (ولوترى إذ المجرمون). وقد وافقه على ذلك الخطيب الاسكافي ، وأما ابن جماعة فإنه نظر إلى ما سُبقت به الآية من ذكر الفاسقين ، فهو يرى أن في ذلك استمرار على الفسق يناسبه المهلة الموجودة في (ثم) .

وأما ابن الزبير : فهو يرى أن سورة السجدة تتسم بعمومية الخطاب ، أي: أن الخطاب فيها للكافرين وغيرهم ، و فسر(ممن ذكر بآية ربه) بمعنى كل الآيات التي جاء بها الأنبياء ، ولاحظ في الموازنة السابقة بين المؤمنين والفاسقين عموما يقتضي استمراريته في الخطاب بعد ذلك ؛ وساق كلام الزمخشري في معنى (ثم).

والرأي الأخر له :أن الإعراض والتكذيب في سورة السجدة جاء في مقام الإخبار والإعلام بذكر مصائر المكذبين وجزائهم ، والجزاء متأخر فناسب ذلك العطف بثم التي تفيد التراخي .

أما ابن عاشور :فقرر أن الآية في سورة السجدة معطوفة على جملة بعيدة عنها في السياق ، أي على الآية :14 وفسر معنى الآيات بمعنى القرءان ، ثم ذكر النكتة في العطف بـ(ثم) الذي تدل على تراخي رتبة الإعراض عن الآيات ناقلا قول

---

[1] – ينظر ملاك التأويل ،ج/2، ص:321.

الزمخشري في معنى (ثم) لكن بصياغة أخرى حيث سمى التراخي التي تفيده (ثم) تراخي استبعاد وتعجيب .[1]

ومجمل القول :

أن سياق سورة الكهف هو خطاب للعرب الأحيـــــاء الذين عاصروا نزول القرءان الكريم ، أما سياق سورة السجدة فهو خطاب عام للأحياء والأموات ، وأنـه سياق عام يدخل فيه كل من اتصف بتلك الأوصاف عبر تاريخ الرسل والرسالات إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لكن الإشكال المطروح في هذه التوجيهات يعـود إلى اعتبار سياق سورة السجدة سياقا عاما يشمل كل البشر ، وأنه يختص بالأموات، فابن عاشور هو نفسه ينقض ذلك ، عندما ذكر أن الآية معطوفة على قوله سبحانه :(إنما يؤمن بآياتنا) وهي آية نزلت في صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والعطف على هذه الآية يعني أن المقصود بالآية أيضا هم الأحياء من كفار قريش ؛ والأمر الآخر ، أن قوله تعالى قبل هذه الآية ﴿ ولنذيقنهـم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهـــــم يرجعون ﴾ يعني: أن العذاب الأدنى المذكور في الآية عذاب الدنيا كما فسـره ابن عاشور وغيره من المفسرين ، إضافة إلى أن الآية ختمت بجملة (لعلهم يرجعـون) وابن عاشور نفسه يقول فيها " أنها جملة استئنافية مبينة لحكمة إذاقتهـــم العذاب الأدنى في الدنيا بأنه رجاء لرجوعهم عن الكفر بالإيمان والمراد رجو ع من يمكن رجوعه وهم الاحياء مهم .

وما يترجح في هذه الدراسة أن توجيه آية سورة السجدة يمكن أن يتحقـــق بالنظر إلى حرفي العطف باعتبار مقام الخطاب وسماته ، فيلاحظ من خلال الإبدال بين حرفي(الفاء وثم) أن هنالك علاقة اتفــاق وتبايـن بين معنى الحرفين ، فالاتفــاق بينهما في التعقيب والترتيب ، والاختلاف بينهما جاء في قضية الزمن ، أي : المدة التي يتناولها التعقيب ، بمعنى أن الزمن في الفاء زمن ضيق ، أما في (

---

[1] – ينظر التحرير والتنوير ، ج/21، ص :233.

ثم) فهــو يتسم بالاتساع والتراخي ، وقد مر معنا في الإبدال بين حرفي الواو والفاء ، أن الواو جاء في كلام قُصد منه الإجمال ، أما الفاء فجاء في كلام اتسم بالبيان والتفصيل ، وهذا الملحظ يتراءى جليا مثله في العلاقة بين حرفي الفاء وثم .

فقد حافظ الفاء على معنى التفصيل والبيان ، أما (ثم) فقد اقتربت من معنى الواو في اتسام موضعها بالإجمال ، والدليل على ذلك:

أن حرف الفاء جاء في سورة الكهف في مقام تفصيل ، ونلاحظ ذلك في قوله سبحانه : ﴿ ومن اظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي ءاذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا ﴾ .

أما (ثم) فقد جاءت في موضع إجمال ، قال تعالى : ﴿ ومن اظلم ممــن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون ﴾ ، وبذلك ناسب كل حرف موضعه.

ومن ناحية دراسة سياق كل آية فإن الأمر لا يشكل في سياق سورة الكهف ، وإنما يظهر في سياق سورة السجدة ، وهو ما عدد وجهات النظر عند العلماء، وبعد بحث أقوالهم وآرائهم يظهر أن اقرب الأقوال والتوجيهات لكشف بلاغة إبدال حرف (الفاء) ب(ثم) ما ذكره الزمخشري في معنى(ثم) ، وما حققه ابن عاشور حيــن ذكر أن الآية :22 معطوفة على الآية :15 وما بعدها.

يقول الزمخشري :" ثم في قولُهُ (أَعْرَضَ عَنْها) للاستبعاد. والمعنى:أنّ الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعدل، كما تقول لصاحبك: وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعادا لتركه الانتهاز." [1]

---

[1] – الكشاف ، ج/3، ص:515.

" ...لأن الإعراض عن الآيات مع غاية وضوحها وإشراقـــها مستبعد في حكم البداءة الثابتة وموازين العقول الراجحة. وقد رمـق الشعراء سماء هذه البلاغة فقال جعفر بن علبة الحارثي فيما يرويه ديوان الحماسة:

ولا يكشف الغمّاء إلا ابن حرّة ... يرى غمرات الموت ثم يزورها...

والشاهد في قوله ثم يزورها استبعد أن يزور غمـــــرات الموت بعد أن رآها واستيقنها، لأن بين رؤية الأهوال المفزعة وبين الانحدار إليها برغبة تشبه الرغبة في لقاء المحبوب بونا بعيدا في العادة والعقل ." [1]

إلا أننا إذا نظرنا إلى هذا المعنى وتأملنا في معنى الآية التي رأى ابن عاشور أنها معطوفة عليها نلاحظ سرا عجيبـــا ونكتة لطيفة ، فإذا لاحظنا معنى الاستبـعاد في حرف العطف (ثم) فإن الآية المعطوفة عليها تصف المؤمنين في جوف الليل وهم يناجون ربهم ويتقربون إليه مضحين بلذة النوم ، هذا الوصف الذي يمثل لنا شدة حـب المؤمنين لله وقربهم منه في لحظـــات شديدة وثقيلة ، وصفها المولى سبحانه وتعالى بقوله ﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا ﴾ المزمل : الاية : 06، فالعلاقة بين الآيتين علاقة تضاد ، ففي هذه يبين المولى سبحانه وتعالى شدة القرب ، ويقابلها في الآية الأخرى بذكر شدة البعد ، وهذا وجه الارتباط والتناسب ،وهذا من خفي أسرار العطف في بلاغة القرءان الكريم .

يقول الجرجاني :ثمّ إن الذي يوجِبُه النظرُ والتأملُ أنْ يقال في ذلك: إنا وإن كنا إذا قلنا: "زيد قائم وعمرو قاعد" فإنا لا نرى ههنا حكماً نزعمُ أنَّ "الواو" جاءتْ للجمعِ بين الجملتين فيه، فإنا نرى أمراً آخرَ نحصدُلُ معه على معنى الجمعِ. وذلك أنّا لا نقول: "زيد قائم وعمرو قاعد" حتى يكون عمرو بسبب من زيدٍ ، وحتى يكونـا كالنَّظيرين الشريكَيْنِ ، وبحيث إذا عرفَ السامُع حالَ الأوَّل عنـاه أن يعرفَ حالَ الثاني. " [2]

---

[1] – إعراب القرآن وبيانه ، محيي الدين أحمد مصطفى درويش (1403هـ) ، دار الإرشاد والشؤون الجامعية ، سوريا ، ط/4 ،1415هـ، ج/7، ص :585/584.

[2] – دلائل الإعجاز ، ص :224.

والملاحظ أيضا أن هناك فرقا جوهـريا بين التعبير بالفاء وبثم ، فالفاء تشعر معها بالرغبة في الازديـاد وعدم الاكتفاء ، أي أن الاكتفـــاء بـــها ناقص (فأعرض عنها /ونسي ما قدمت يداه) ، أما التعبير بـ(ثم) فيشعر معه القارئ بالتمام والإكتفاء والأريحية ، (ثم أعرض عنها) ، فلذلك جاءت الجملة بعدهـــــا مستأنفة منفصلة (إنا من المجرمون منتقمون) ، وسنلاحظ هذا المعنى في التوجيه التالي للإبدال بين حرفي (ثم ، والواو) .

1 . 1 . 4 . 3 . الإبدال بين حرفي العطف (ثم ، والواو)

وقد ورد هذا النوع في مواطـــن عدة ، ووقع الاختيـــار في هذا البحث على الآيتين الكريمتـــــين من سورتي " فصلت " و" الأحقاف " .

قـقُلْ تَأَرَأَيْتُمْ :﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ فصلت : الآية 52.

وقال جل وعلا في آية أخرى مشابهة قُلْهَلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الأحقاف : الآية 10.

وقع الإبدال في هاتين الآيتين بين قوله تعالى :(ثم كفرتم) وفي الثانية (وكفرتم) ، ولا يخفى أن كـــلا من (ثم) و(الواو) له دلالته الخاصة ، وكل حرف في القـر آن الكريم إلا وقد وضع وضعا محكما لا يمكن أن يستبدل به غيره ، فكلام الله كما قيل : لو نز عت منه لفظة ثم أُدير لسان العرب على لفظة أحســن منها لم يوجد " .[1] فلذلك كان جهد العلماء منصبا على بيان ســـــر اختصاص كل حرف بموضعـه ، والكشف عن إعجـــــاز القرآن في دقة استعماله لحروف المعاني ، فكانت آراؤهم وتوجيهاتهم عونا للمتدبر ، وقائدا للمعتبر ، وهداية للمستبصر.

فقد ذكر العلماء في توجيه الآيتين عدة آراء ، مستصحبين في توجيهاتهـــم المعاني العامة التي ذكرها النحاة لحروف المعاني ، كمعنى الترتيب والتعقيب المتراخـي في (ثم) ، والجمع والتشريك في معنى (الواو) محاولين بذلك اكتشاف المعـنى البلاغـي لكل حرف في موضعه ، وسنستعرض بعض التوجيهات التي ساقها العلماء في بيان اختصاص كل حرف بموضعه وبالسورة التي ورد فيها.

ذكر الخطيب الإسكافي أن معنى قوله تعالى : (قل أرأيتم إن كان من عند الله) أي : أرأيتم إن كان ما أتيتكم به من كلامه وسائر ما أدّيتـــــه إليكم من

---

[1] -الإتقان في علوم القر آن ، ج/4 ، ص : 10

أمور دينه، وكان قُصاراكم وآخر أمركم: الكفر به، فهل ترون أضل منكم عن الصواب؟ فإن لم تحققوه فلا بد من أن تتأملوا فيه فتعلموا بُعدَكم عن الهدى وإيغالكم في الضلال، فذكر فعلين أحدهما: (إن كاد من عند الله) وختمه بقوله: (ثم كفرتم به) على معنى: أنكم بعد إمهالي لكم لتدبّره ، وحثّي إياكم على تأمله كان عاقبة أمركم: الكفر به، فلم يحسُن في المعنى إلاّ (ثم) ، للمهلة بين الاستدعاء إلى الحق، وخاتمة أفعالهم بالكفر وهو من مواضع "ثم".

وأما في سورة الأحقاف فإن قوله: (وكفرتم به) لم يجعله آخر ما أخبر به في القصة وخاتمة أمره معهم من الدعوة، بل ذكر (وكفرتم به) وعطف عليها أفعالا بعدها، وهي: (وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم) فكأنه قال:قابلتم بالكفر ما أتيت به؟ واحتج عليكم مِن بني إسرائيل مَن قرأ الكتب وعرف ما أتيت به من الصدق فآمن وتكبرتم عما التزم من التذلل في طاعة الله تعالى، ألا تكونون ظالمين بذلك والله لا يهدي القوم الظالمين إلى ما يهدي إليه المؤمنين.

فلما لم يجعل قوله:(وكفرتم به) الكفر الذي يوافي به الآخرة لما ذكر بعده من الاحتجاج عليهم وتوقع من إيمانهم، وشهادة مَن كان على دينهم وإيمانه، واستكبارهم، خالف المكان الذي ختمت أفعالهم فيه بالكفر فاستعملت " الواو" هنا بدل استعمال ((ثم)) هناك .[1]

وذكر الكرماني نفس المعنى باختصار فقال : " معناه في هذه السورة : كان عاقبة أمركم بعد الإمهال للنظر والتدبر : الكفر ، فحسن دخول (ثم) . وفي الأحقاف عطف عليه (وشهد شاهد) : فلم يكن عاقبة أمرهم ، فكان من مواضع الواو." [2]

فتأسس توجيه الإسكافي والكرماني على مراعاة الترابط بين كل آية وسياقها ، فسياق السورتين هو الموجه الأساس في فهم معنى الآيتين ، بل إن المعنى لا

---

[1] – درة التنزيل ، ص :1155/1156/1157.

[2] – البرهان في متشابه القرآن ، ص :223.

يستقيم ولاينكشف في صورته الكلية إلا بالاعتماد على ربط المفردة أو الأداة بسياقهـــا التي وردت فيه .

وأما ابن جماعة فجوز أن تكون (ثم) هنا للإستبعاد من الكفر مع العلم بكونـــه من عند الله ، فإن التخلف عن الإيمان بعد ظهور كونه من عند الله مستبعد عنـــد العقلاء، ولذلك قال تعالى(أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) ، وهو كقوله تعالى(ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ) الأنعام : 2. و "الواو" في سورة الأحقاف واو العطـــف بمعنى : الجمع، وجواب الشرط مقدر تقديره: إن اجتمع كونه من عند الله وكفرتم به وشـــهادة الشاهد وإيمانه ألستم بكفركم ظلمة ، ودل عليه (إن الله لا يهدى القوم الظالمين).[1]

فابن جماعة نظر في توجيه الآيتين إلى الترابط بين افتتاح الآية واختتامها، وهو ملحظ لا يمكن أن يغفـــل لحساب السياق ، بل هو المنطلق الأول والمعين في تحديد دلالة النص الكلي ،ولاشك أن القرءان الكريم محكم سليم من أن يقع فيه التناقض بين معنى الآية وسياق السورة ، أو بتعبير آخر بين الجملة والنص .

فابن جماعة لاحظ معنى الاستبعاد في (ثم) المتناسب مع خاتمة الآية (ممـن هوفي شقاق بعيد) ، ولمـــا كان الكفر به على هذا التقدير في غاية البعد، وكان مقصود السورة دائراً على العلم، نبـــه على ذلك بأداة التراخي مع الدلالة على أن ذلك ما كان منهم إلا بعد تأمل طويل.

ولاحظ ايضا في معـــنى (الواو) معنى الجمع بين الأدلة والبراهين (من عند الله / شهـــادة الاسرئيلي وإيمانه) فالكفر بعد كل هذه الأدلة ظلم واعتداء ، وهو ما كشف عنه المقطع الأخير من الآية.

---

[1] – كشف المعاني ، ص :329.

فالواو الأولى عاطفة لكفرتم على فعل الشرط، كما عطفته (ثُمَّ) في قوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ...﴾ وجواب الشرط محذوف تقديره: إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين.[1]

والمعنى العام في سورة الأحقاف " إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به، واجتمع شهادة أعلم بنى إسرائيل على نـــزول مثله وإيمانه به، مع استكباركم عنه وعن الإيمان به، ألستم أضل النـــاس وأظلمهم؟."[2]

وخلاصة القول في سياق السورتين واختصاص كل حرف بالسورة التي ورد فيها:

1. أن سورة فُصلت ، فَصلت فيها الآيات والبراهين على عظمة الخالق وقدرته ، وتنوعت فيها الأدلة والآيات التي تشهد بوحدانيته ، واجتمع فيها الكون من عرشه إلى فرشه في محراب الخشوع والخضوع لله وعزته ، فكيف يجوز للإنسان أن يعرض عن آيات الله البينات .

فسياق سورة فصلت جاء كله حديث عن الإيمان بالله ووجوب طاعته ، والتحذيـــر من مخالفته وعصيانه قـــال تعالى ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11)﴾ .

فهذا بيان وإرشاد للإنسان ، فما تراه من حولك من المخلوقات العظيمة هي مسبحة وخاشعة ومطيعـــة لله وسبحانه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَـــارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ (38)

---

[1] – نظم الدرر في تناسب السور ، لأبي بكر البقاعي (885هـ) ، دار الكتاب الإسلامي ، مصر ،ج/17،ص:223.

[2] – الكشاف ، ج/4، ص:300.

ن آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39) ﴾ .

ومن المناسب أيضا أن هذه الآيات جاءت موضع سجدة ، ليتناغم الإنسان في طاعته وعبادته لربه مع الكون كله ، فهو ليس وحيدا في العبادة والطاعة ، فكل الكائنات أسلمت طوعا وكرها لبارئها سبحانه وتعالى ،﴿أَفَغَيْرَ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ آل عمران : الآية 83.

فارتبطت الآية التي معنا بما قبلها في تفظيع الكفر بالله وبآيته الواضحات البينات، وجاءت كالخاتمة لما سبق من كلام ، فكأن المولى سبحانه وتعالى يقول : أفيكون موقفكم بعد كل ما سمعتم وتشاهدون من آيات ودلائل وبراهين الكفر والإعراض ، إن هذا الموقف منكم في غاية الضلال والجهالة. فلذلك نلاحظ أن معنى (ثم) جاء كالخلاصة لما سبق ، والإحالة على ما ذكر من آيات ،وخصوصا أن هذه الآية جاءت في ختام السورة ، و نلاحظ أيضا أن التعبير بها اتسم بالإكتفاء ، فلم توصل بالجملة التي بعدها ، وهذا المعنى أو الملحظ سبق معنا في الحديث عن الابدال بين الفاء وثم .

ومما نلاحظه كذلك أن هذه الآية ارتبطت بما بعدها ارتباطا شديدا ، فالمهلة والتراخي في (ثم) جاء متناسبا مع قوله سبحانه ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فصلت : الآية 53.

فهذا وعد من المولى سبحانه أنه سيري عباده عبر الأزمنة المتلاحقة آياته في الآفاق وفي أنفسهم، جيلا بعد جيل ، وفي مجالات مختلفة ومتنوعة ، ما يجعلهم يدركون الحقيقة التي لا ريب فيها ولا التباس وظهور الآيات مرتبط بتلاحق الزمن ، وبالتدريج ، وهذا ما ناسب التعبير ب (ثم) التي من معانيها المهلة والتراخي .

فالحرف (ثم) شكل نسقا عاما شامـــلا لكل سياق السورة ومضمـــــونها ، كما أنه حقق ارتباطا قبليا وبعديــا ، وهذا ما يجعلنا ندرك حينا بعد حين آيات الله في بلاغة كلامه ، ولاشك أن هذه إحدى الآيات التي تهدي المؤمنيــن والعقلاء إلى التسليم لله والخضوع له .

2 – وأما سياق سورة الأحقاف ، فالسيـــــاق الذي وردت فيه الآية التي نحن في دراستها ، سياق اتسم بمجادلة المشركين ، فقد طلب المولى سبحانه وتعالى منهــم الإستدلال عن أحقية عبادة ما اتخذوه من دون الله من عبادة الأوثان ، وساق حينها عدة آيات وبراهين على توحيد الله وصدق نبوة محمد صلـــى الله عليه وسلم ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ الآية04.

فطلب البرهان على مواقفهم وادعاءاتهم جاء في قوله عز وجل : (أروني) (ائتوني بكتاب) ، " وقفهم على السماوات هل لهم فيها شرك، ثم استدعى منهم كتابا منزلا قبل القرآن يتضمن عبادة صنم.

وقوله: أَوْ أَثَارَةٍ معناه: أو بقية قديمة من علم أحد العلماء يقتضي عبادة الأصنام."[1]

وبعد ذلك ساق المولى سبحانه وتعالى على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم عدة أدلة تبين صدق دعوته ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَـــــرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِـــيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (08) قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (09) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِنـــدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُـــــم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) .﴾.

---

[1] – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لابن عطية (542هـ) ، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط/1، 1422هـ، ج/5 ، ص :92

والمعنى : أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول لهم : لست الرسول الأوحد للناس بل أنا واحد ممن سبق من الرسل الكـــــرام الذين أرسلهم الله إلى عبـــــــــاده ، وهذا الإسرائيلي [1]، دليل على أنه كان متبعا لرسول قبلي هو موسى عليه السلام ، وفـي الوقت نفسه هو دليل على نبوتي وصدق دعوتي ، فبإيمانه ازداد الحق وضوحـا وتجلت حقيقة الإسلام ، فما لكم بعد كل هذه الأدلة والشهادة معرضين .

فالواو إذا في قوله تعالى : (وكفرتم) تناسقت في موضع سرد الأدلة ، فجاءت جامعة لها في موقف الاستفهام الإنكاري ، فناسبت موقعها من الآية والسورة.

---

[1] – هو عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، ينظر : لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ، ت: أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص :175.

1 . 1 . 4 . 4 . الإبدال بين حرفي (الواو ، وبل).

جاء ذلك بين سور ة (ص) وسورة (ق) .

يقول الباري عزوجل ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ ص : الآية :4.

وقال عز من قائل ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ ق: الآية:2.

فوقع الإبدال بين قوله تعالى (وعجبوا) وقوله في سورة ق (بل عجبوا) ؛ فما سر استعمال كل حرف في موضعه من السورة ؟ ، وماهو السر البلاغي لكل منهما ؟.

فللإجابة عن هذا التساؤل نعود إلى ما قاله العلماء في توجيه هاتين الآيتين .

يقول الخطيب الإسكافي رحمه الله : " إن التي في سورة "ق" خبر عن عجبهم في أنفسهم واتصال قولهم به ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾. فكان أخر الكلام راجعاً إلى أوله الذي هو خبر عن ضميرهم من حصول العجب فيه، وهو قولهم عقيبه (هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ) .

وليس كذلك ما في سورة "ص "، لأن قوله هناك ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ خبر عن عجبهم قو لا وفعلا، وقولهم بعد ذلك ليس هو راجعا إلى قوله: (وعجبوا) رجوعَ ما في سورة " ق " إليه، لأنه أخبر عنهم أنهم قالوا: (هذا ساحر كذاب) فلم يرجع إلى قوله: (وعجبوا) رجوع قولهم إليه: (هذا شيء عجيب) فيقع عقيبه ويقتضى الفاء اقتضاءه إذ لم يكن قولهم: (هذا ساحر كذّاب) من مقتضى (عجبوا) كما كان قولهم: (هذا شيء عجيب) منه." [1]

فهنا يربط الإسكافي بين صدر كل آية وآخرها ، ففي سورة " ق " وقع من الكفار العجب وقالوه بألسنتهم ، وأما في سورة " ص" فهو خبر عن حالهم المستمر

---

[1] – درة التنزيل ، ص : 1101/1100.

قولا وفعلا ، فلذلك أختممت الآية باتهام النبي صلى الله عليه وسلم ، لا بالتعجب من القرآن الكريم ؛ ونلاحظ هنا أن الخطيب لم يتطرق إلى معنى حرفي العطف ، وسر استعمالهما في كل سورة.

وأما ابن جماعة فيرى أن ما قبل سورة "ق " يصلح سببا لما قالوا بعده، فجاء بالفاء. وما قبل سورة "ص " لا يصلح أن يكون سببا لقولهم(هَـٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) فجاء بالـــواو العاطفة.[1] فنظر ابن جماعة كان مختلفا عن نظر الإسكافي ، فابن جماعة نظــر إلى الإبدال بين حرفي العطف (الواو والفاء) في قوله تعالى (وقال الكافـــرون) و(فقال الكافرون) ، ووجه كلا الحرفين بمراعاة تعلق افتتاح الآية باختتامها ، فعلاقة السببية اقتضت استعمال الفاء وهي من معانيه ، وأما الواو : فاستُعملت حيـــث لا تعلق للأول بالآخر.

ونلاحظ هنا أيضا أن ابن جماعة لم يتطرق إلى افتتاح الآيتين والنظر في استعمــال الواو في سورة "ص" و(بل) في سورة "ق ". وهذا ما فعله كلا من الكرماني ، وابن الزبير [2]وغيرهم.

أما المفسرون فقد تطرقوا لبيان معنى (بل)، فينقل ابن حيان في تفسيره عن نحـــاة الكوفة أن معنى بل عجبوا لَقَدْ عَجِبُوا. [3]

وأما أبو السعود فيتعرض لبيان معنى الإضراب في استعمال حرف العطف (بل) في سورة " ق" فيقول هو:"إضْرابٌ عَمَّا يُنْبِىءُ عنْهُ جوابُ القسمِ المحذوفِ كأنَّه قيلَ: والقرآنِ المجيدِ أنزلناهُ إليكَ لتنذرَ بهِ الناسَ " سحبما وردَ في صدرِ سورةِ الأعرافِ كأنُه قيلَ بعدَ ذلكَ لم يؤمنُوا بهِ بلْ جعلُوا كلاً منَ المنذِرِ والمنذَرِ بهِ عُرضةً للنكيرِ والتعجيبِ معَ كونِهما أوفقَ شيءٍ لقضيةِ العقولِ وأَقرَبهُ إلى التلقِي بالقبولِ ."[4]

---

[1] – ينظر : كشف المعاني ، ص :310.

[2] – ينظر: البرهان في متشابه القرآن ، ص :216. وملاك التأويل ، ج/2، ص:414.

[3] – ينظر : البحر المحيط في التفسير ، لأبي حيان الأندلسي (745هـ) ، ت : صدقي محمد جميل ، دار الفكر ، بيروت ، ج/9، ص: 528.

[4] – إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، تفسير أبي السعود (982هـ) ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ج/8، ص:125.

أما ابن عاشور :فيتطرق لبيان معنى الإضراب في سورة " ص " والعطف عليه ، فيقول في الواو أنها عَاطِفَةٌ عَلَى الْجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهَا (كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) ص: 2. فَهُوَ مِنَ الْكَلَامِ الْوَاقِعِ الإِضْرَابِ لِلانْتِقَالِ إِلَيْهِ كَمَا وَقَعَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:(ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ) ق: 1، 2.

للإضراب الإبطالي ، وَهَذَا نَوْعٌ مِنَ الإِضْرَابِ الإِبْطَالِيِّ نَبَّهَ عَلَيْهِ الرَّاغِبُ فِي مُقَدِّمَاتِ الْقُرْآنِ وَأَشَارَ إِلَيْهِ فِي الْكَشَّافِ وَتَحْرِيرُهُ أَنَّهُ لَيْسَ إِبْطَالاً مَحْضاً لِلْكَلَامِ السَّابِقِ بِحَيْثُ يكون حرف (بل) فيه بمنزلة حرف النفي كما هو غالب الاضراب الإبطالي، ولا هو إضراب انتقالي، ولكن هذا إبطال لتوهم ينشأ عن الكلام الذي إِقْبَالُهُ وَصْفُ الْقُرْآنِ بِكَوْنِهِ ذِكْراً، لِأَنَّ الْقُرْآنَ مُذَكِّرٌ سَامِعِيهِ ذِكْراً نَاجِعاً، فعقب بِإِزَالَةِ توهم مَنْ يَتَوَهَّمُ أَنَّ عَدَمَ تَذَكُّرِ الْكُفَّارِ لَيْسَ لِضَعْفٍ فِي تَذْكِيرِ الْقُرْآنِ وَلَكِنْ لِأَنَّهُمْ مُتَعَزِّزُونَ مُشَاقُّونَ حَذَفَ بَلْ فِي مِثْلِ هَذَا بِمَنْزِلَةِ حَرْفِ الإِسْتِدْرَاكِ ، وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ تَحْقِيقُ أَنَّهُ ذُو ذِكْرٍ ، وَإِزَالَةُ الشُّبْهَةِ الَّتِي قَدْ تَعْرِضُ فِي ذَلِكَ..أَنْ تَجْعَلَ بَلِ إِضْرَابَ انْتِقَالٍ مِنَ الشُّرُوعِ فِي التَّنْوِيهِ بِالْقُرْآنِ إِلَى بَيَانِ سَبَبِ إِعْرَاضِ الْمُعْرِضِينَ عَنْهُ، لِأَنَّ فِي بَيَانِ ذَلِكَ السَّبَبِ تَحْقِيقاً لِلتَّنْوِيهِ بِالْقُرْآنِ كَمَا يُقَالُ هَذَا وَخُذْ فِي حَدِيثٍ آخَرَ.ل امرئ القيس :

فَدَعْ ذَا وَسَلِّ الْهَمَّ عَنْكَ بِجَسْرَةٍ ذُمُولٍ* إِذَا صَامَ النَّهَارُ وَهَجَّرَا

وَقَالَ زُهَيْرٌ :

دَعْ ذَا وَعَدِّ الْقَوْلَ فِي هَرِمٍ خَيْرَ* الْبُدَاةِ وَسَيِّدِ الْحَضَرِ

وَقَوْلِ الأَعْشَى:

فَدَعْ ذَا وَلَكِنْ تَرَى رَأْيَ كَاشِحٍ يَرَى* بَيْنَنَا مِنْ جَهْلِهِ دَقَّ مَنْشَمِ

وَقَوْلِ الْعَجَّاجِ:

دَعْ ذَا وَبَهِّجْ حَسَباً مُبَهَّجَا ***

وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْكَلاَمَ أَخَذَ فِي الثَّنَاءِ عَلَى الْقُرْآنِ ثُمَّ انْقَطَعَ عَنْ ذَلِكَ إِلَى مَا وَهُوَ بَيَانُ سُوءِ أَحْوَالِ إِعْرَاضِ الْمُعْرِضِينَ عَنْهُ لاَ عِتْزَازِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ وَشِقَاقِهِمْ .[1]

فابن عاشور رحمه الله ذكر ما يتعلق بالإضراب الإنتقالي والإبطالي ، وهو من معاني حرف العطف (بل) ، وحرر معنى آخر لـ(بل) بقوله :(هذا إبطال لتوهم ينشأ عن الكلام الذي قبله).

ففي سورة "ص " عطف جملة (وعجبوا) على إضراب سبق ذكره ، وهو قوله تعالى (بل الذين كفروا في عزة وشقاق) ، وهو نفس المعنى الذي وقع في سورة " ق " في قوله تعالى (بل عجبوا).

لكن في سورة " ص " جاء ذكر العجب معطوفا على جملة سابقة ، وفي سورة " ق " ذكر العجب بعد الإضراب ، و يبقى السؤال المطروح دائما ، لماذا ارتبط ذكر العجب بالواو في صورة "ص "وار تبط في سورة "ق " بـ(بل)؟.

فيرى الباحث والله أعلم أن القضية لها ارتباط بمضمون السورة والسياق البعدي للآيتين ، فالقسم ، في سورة "ص " قوله تعالى (والقرآن ذي الذكر)، وفي سورة "ق" قوله تعالى (والقرآن المجيد)، فأين جواب القسم في السورتين ؟.

يقول ابن عطية : "أما جواب القسم فاختلف فيه، فقالت فرقة: الجواب في قوله: "ص" إذ هو بمعنى صدق محمد، أو صدق الله. وقال الكوفيون والزجاج: الجواب في قوله ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ [ص: 64] . وقال بعض البصريين ومنهم الأخفش، الجواب في قوله إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ [ص: 14] .قال القاضي أبو محمد: وهذان القولان بعيدان. وقال قتادة والطبري: الجواب مقدر قبل (بل)، وهذا هو الصحيح، تقديره: والقرآن ما الأمر كما يزعمون ونحو هذا من التقدير فتدبره. وحكى الزجاج عن قوم أن الجواب قوله: كَمْ أَهْلَكْنا) وهذا متكلف جدا." [2]

---

[1] – التحرير والتنوير ، ج/ 23، ص : 205/204.

[2] – المحرر الوجيز ، ج/4، ص:492/491.

ويقول الفخر الرازي: "مُقْسَمٌ بِهِ فَالْمُقْسَمُ عَلَيْهِ مَاذَا؟ نَقُولُ فِيهِ وُجُوهٌ وَضَبْطُهَا بِأَنْ نَقُولَ، ذَلِكَ إِمَّا أَنْ يُفْهَمَ بِقَرِينَةٍ حَالِيَّةٍ أَوْ قَرِينَةٍ مَقَالِيَّةٍ وَالْمَقَالِيَّةُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ مُتَقَدِّمَةً عَلَى الْمُقْسَمِ بِهِ أَوْ مُتَأَخِّرَةً، فَإِنْ قُلْنَا بِأَنَّهُ مَفْهُومٌ مِنْ قَرِينَةٍ مَقَالِيَّةٍ مُتَقَدِّمَةٍ فَلَا مُتَقَدِّمَ هُنَاكَ لَفْظًا إِلَّا "ق" فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ: هَذَا (الْقُرْآنُ) الْمَجِيدُ أَوْ (ق) أَنْزَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى الْقُرْآنَ كَمَا يَقُولُ هَذَا حَاتِمٌ وَاللَّهِ أَيْ هُوَ الْمَشْهُورُ بِالسَّخَاءِ؛ وَيَقُولُ الْهِلَالَ رَأَيْتُهُ وَاللَّهِ، وَإِنْ قُلْنَا بِأَنَّهُ مَفْهُومٌ مِنْ قَرِينَةٍ مَقَالِيَّةٍ مُتَأَخِّرَةٍ، فَنَقُولُ ذَلِكَ أَمْرَانِ: أَحَدُهُمَا الْمُنْذِرُ وَالثَّانِي الرَّجْعُ، فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ إِنَّكَ الْمُنْذِرُ، وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ إِنَّ الرَّجْعَ كَائِنٌ مَعَ الْأَيْنِ وَرَدَ الْقَسَمُ عَلَيْهِمَا ظَاهِرًا.

فَإِنْ قِيلَ أَيُّ الْوَجْهَيْنِ مِنْهُمَا أَظْهَرُ عِنْدَكَ؟ قُلْتُ الْأَوَّلُ: الْمُنْذِرَ أَقْرَبُ إِلَى الرَّجْعِ، وَلِأَنَّ الْحُرُوفَ رَأَيْنَاهَا مَعَ الْقُرْآنِ، وَلِلْمُقْسَمِ كَوْلًا وَمُنْذِرًا، وَمَا رَأَيْنَا الْحُرُوفَ ذُكِرَتْ وَبَعْدَهَا الْحَشْرُ."[1]

وبعيدا عن اختلاف العلماء في جواب القسم ، وبنظرة بسيطة في مضمون السورتين ، نلاحظ أن سورة ص مفتتحة بحرف الصاد ، الذي اتسق مع مضمون السورة عند ذكر الخصومات ، وأول الخصومات عزة وشقاق الكفار، وبعد ذلك ذكر نبأ الخصم الذين تسوروا على داود محرابه في قضية النعاج ، وبعد ذلك ذكر تخاصم أهل النار ، وبعدها ذكر استكبار إبليس وعناده وحجاجه ، فهذا المضمون يرجح ما قاله ابـن عطية أن المقسم به قبل (بل) ، وما بعد(بل) انتقال لغرض آخر ، وهذا الغـــرض ظهر في سورة "ص" وهو ذكر المشاقة والمنازعـــة من قبل الذين كفروا ، وهذا ما تكـرر بمعناه في السورة كلها.

وأما في ســورة "ق " فإن الإنتقال من القسم والمقسم بـه ارتبط بذكر تعجب الذين كفروا ، والتعجب في هذه السورة له علاقة بمضمونها الذي يتحدث عن الخلق والإعادة والحشر والمعاد ، فالتعجب في السورتين مختلف ، ففي سورة (ص) ، جاء

---

[1] – مفاتيح الغيب ، لفخر الدين الرازي (المتوفى: 606هـ) ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط/3 ،1420.ج/28، ص:122.

ذكر التعجب معطوفا على المقصود الأول ، وهو ذكر شقاق الكفار وعنادهم وتكبرهم، فناسب أن يعطف عليه بالواو، وأما في سورة "ق " فذكر التعجب مقصود إليه ، فجُعل ذكره بداية ، لأن الحديث بعده جاء في ذكر تعجب الكفار من البعث والإحياء من جديد ، فجاءت (بل) هنا مناسبة للغرض المقصود من السورة ، ولبيان ذلك أكثر نسوق هنا ما ذكره الفخر الرازي رحمه الله.

يقول هذه السُّورَةُ، وَسُورَةُ (ص) تَرَكَانِ فِي الِافْتِتَاحِ أَوَّلَهُمَا بِحُرُوفِ الْمُعْجَمِ ، وَالْقَسَمِ بِالْقُرْآنِ وَقَوْلُهُ: "بَلْ"، و"يَشْتَرِكَانِ فِي شَيْءٍ آخَرَ ، وَهُوَ أَنْ أَوَّلَ السُّورَتَيْنِ وَآخِرَهُمَا مُتَنَاسِبَانِ ، وَذَلِكَ لأَنَّ فِي (ص) قَالَ فِي أَوَّلِهَا (وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ،) وَقَالَ فِي آخِرِهَا (هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)ص: 87.وَفِي "ق "قَالَ فِي أَوَّلِهَا (وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) وَقَالَ فِي آخِرِهَا (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) ق: 45، فَافْتَتَحَ بِمَا اخْتَتَمَ بِهِ.

وَهُوَ أَنَّ فِي تِلْكَ السُّورَةِ صَرَفَ الْعِنَايَةَ إِلَى تَقْرِيرِ الأَصْلِ الأَوَّلِ وَهُوَ التَّوْحِيدُ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى: (أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً).ص:5، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: (امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ).ص:6. إِلَى تَقْرِيرِ الأَصْلِ الآخَرِ وَهُوَ الْحَشْرُ ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى: (أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ).ق:3 وَلَمَّا كَانَ افْتِتَاحُ السُّورَةِ فِي (ص) فِي تَقْرِيرِ الْمَبْدَأِ، قَالَ فِي آخِرِهَا (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ).ص:71 وَلَمَّا كَانَ افْتِتَاحُ (ق) فِي حِكَايَةِ بَدْءِ خَلْقِ آدَمَ، لأَنَّهُ دَلِيلُ الْوَحْدَانِيَّةِ. لَمَّا كَانَ افْتِتَاحُ هَذِهِ لِبَيَانِ الْحَشْرِ ، قَالَ فِي آخِرِهَا (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ) ق: 4. "[1]

---

[1] – نفس المصدر ، ج/28 ، ص :119.

1 . 2 . الإبدال بين حروف الجر.

. حروف الجر: (معانيها، ووجوه إبدالها).

حروف الجر كثيرة ، ولكل منها في الغالب أكثر من معنى واحد ، وتتداخل معانيها ، وربما اختلطت على غير الخبير بالأساليب البليغة ، نظرا لاشتراكها في تأدية بعض المعاني ، كالظرفية والسببية والتعليل ... وغيرها، وفي هذا المبحث نتاول بعض حروف الجر التي وقع الإبدال بينها في القرآن الكريم ، "حروفُ الجرِّ عشرون حرفاً، وهي الباء ومِن وإلى وعن وعلى وفي والكافُ واللاَّمُ وواوُ القَسَمِ وتاؤه ومُذْ ومُنذُ ورُبَّ وحتى وخَلا وعَدا وحاشا وكي ومتى – في لُغَةِ هُذَيل –ولَعَلَّ في لغة عُقَيل)وهذه الحروف منها ما يختصّ بالدخولِ على الاسمِ الظاهر، وهي رُبَّ (ومُذْ ومُنذُ وحتى والكافُ وواوُ القسمِ وتاؤه ومتى). ومنها ما يدخلُ على الظاهر والمَضمَر، وهي البواقي.[1] ووقع الإبدال في القرآن الكريم في حروف الجر التالية : (إلى ، وعلى ، والباء ، واللام ، ومن ، وفي ، وعن). فهي سبعة (7) حروف.

1 . 2 . 1 . معاني حروف الجر التي وقع بينها الإبدال:

إلـــى :لها ثلاثة معانٍ :

1- انتهاءُ الغايةِ في الزمان والمكان وغيرهما. وهو أصل معانيها ،فالأولُ كقولهِ تعالى ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصيامَ إلى الليل﴾ البقرة :187 ، والثاني كقولهِ ﴿من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ الإسراء: 1 وترِدُ أيضاً لانتهاء الغاية في الأشخاص والأحداث.فالأولُ نحو "جئتُ إليك"، والثاني نحوصِّ لْ بالتّقوى إلى رضا الله".ويقول

---

[1] – جامع الدروس العربية : ج/3 ، ص: 490.

الرجل: إنما أنا إليك، أي إنما أنت غايتي ومعنى كونها للانتهاءِ أنها تكونُ منتهًى لابتداء الغاية.[1]

2- المصاحبةُ، أي معنى "معَ" كقوله تعالى ﴿قال مَن أنصاري إلى الله؟﴾آل عمران :52. أي مع الله ،وإنما تجعل (إلى) كـ(مع) إذا ضممت شيئا إلى شيئ كقولهم"دُ إلى الدَّوْدِ إبلٌ"، وتقول"لُلانٌ حليمٌ إلى أدبٍ وعلمٍ ".

3- معنى "عند" وتُسَمّى المُبَيِّنَة، لأنها تُبينُ أن مصحوبها فاعلٌ لما قبلها. وهي التي تقعُ بعدَ ما يفيدُ حُباً أو بُغضاً من فعل تعجّبٍ أو اسمِ تفضيلٍ ، كقوله تعالى﴿قال رب السّجنُ أحَب إليَّ ممّا يدعونني إليه﴾ يوسف: 33 أي أحبُّ عندي.

عـــلى لها ثمانيةُ مَعانٍ :[2]

1- الاستعلاءُ، حسا كقولهِ تعالى : ﴿كل من عليها فان﴾ الرحمن:26 ، أو معنى ، كقولهِ : ﴿فضّلنا بعضَهم على بعض﴾ البقرة :253. والاستعلاءُ أصلُ معناها.

2- معنى (في) أو الظرفية، كقوله تعالى :﴿دخلَ المدينةَ على حين غَفلةٍ من أهلها﴾ القصص: 15. أي في حين غفلة.

3- معنى (عن) أو المجاوزة ، كقول الشاعر: [من الوافر]

إذا رَضِيَتْ عَلَيَّ بَنُو قُشَيْرٍ لَعَمْرُ اللهِ أَعْجَبَنِي رِضَاها

أي :إذا رضِيت عني.

4- معنى اللام، التي للتعليل، كقوله تعالى ﴿ لتُكَبّروا اللهَ على ما هداكم﴾ الحج : 37، أي لهدايته إيّاكم، وقولِ الشاعر [من الطويل]

عَلامَ تَقولُ الرُّمْحُ يُثْقِلُ عاتِقِي إذا لَمْ أَطعنْ ، إذا الخَيْلُ كَرَّتِ [3]

أي لِمَ تقول؟.

---

[1] – ينظر الكتاب لسيبويه ، ج/ 4 ، ص : 231. و الجنى الداني : ص:385. وجامع الدروس العربية ،ج/3،ص :493.

[2] – ينظر: الجنى الداني : ص:476 /478. جامع الدروس العربية :ج/3.ص:496.

[3] – عمرو بن معد يكرب كما جاء في اللسان.ج/11، ص:575.

5- معنى (مَعَ) أو المصاحبة، كقولهِ تعالى : ﴿آتَى المال على حُبِّهِ﴾ البقرة :177، أي معَ حُبهِ .

6- معنى (من) كقولهِ سبحانَهُ: ﴿الذين إذا اكتالوا على الناسِ يَستَوفونَ﴾ المطففين :2 . أي اكتالوا منهم.

7-معنى الباءِ ، كقولهِ تعالى: ﴿عَلَى أَنْ لاَ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾ الأعراف:105. أي حقيقٌ بألا أقول، ونحو رَمَيتُ على القوس، أي رميتُ مستعيناً بها، ونحواركَبْ على اسمِ الله"، أي مستعيناً به.

8 -الاستدراكُ ، كقولهِم: "فلانٌ لا يدخلُ الجنةَ لِسوءِ صنيعهِ ، على أنهُ لا يَيأسُ من رحمة اللهِ"أي لكنَّهُ لا ييأسُ .

البـــــاءُ :لها ثلاثةَ عشرَ معنًى :[1]

1-الإلصاقُ وهو المعنى الأصليُّ لها. وهذا المعنى لا يُفارقُها في جميع معانيها،ولهذا اقتصرَ عليه سيبويهِ ، وسماه الإلزاق والإختلاط ، نحو قولك : خرجت بزيد ودخلت به ، وضربته بالسوط ، أي : ألزقت ضربك إياه بالسوط. فما اتسع من هذا في الكلام فهذا أصله.

والإلصاقُ إمّا حقيقيّ ، نحوأمْسكتُ بيدِكَ .وإمّا مجازيٌّ ، نحومرَرْتُ بدارِكَ ، أو بكأَيّ بمكانٍ يَقرُبُ منها أو منكَ .

2-الاستعانةُ، وهي الداخلةُ على المستعانِ به - أي الواسطة التي بها حصلَ الفعلُ - نحو كَتبتُ بالقلمِ ، وبَرَيتُ القلمَ بالسكينِ ".

3-السّببيةُ والتَّعليلُ ، وهي الداخلةُ على سبب الفعل وعِلّتِه التي من أجلها حصلَ ، نحومَاتَ بالجوعِ "، أي بسببه .

4-التّعديةُ، وتُسمّى باءَ النّقلِ ، فهي كالهمزةِ في تصييرها الفعلَ اللازمَ مُتعدّياً، فيصيرُ بذلك الفاعلُ مفعولاً، كقوله تعالى ﴿ذهبَ الله بنُورهم﴾ ، أي أذهبهُ.

---

[1] – ينظر الكتاب لسيبويه : ج/4،ص:217. وجامع الدروس العربية : ج/3، ص: 490. الجنى الداني ، ص: 36.

5- القسمُ، وهي أصلُ أحرُفهِ. ويجوز ذكرُ فعلِ القسمِ معها؛ نحو "أُقسم بالله". ويجوزُ حذفُهُ، نحو بالله لأجتهدَنَّ".

6- العِوَضُ، وتسمى باءَ المقابلةِ أيضاً، وهي التي تَدُلُّ على تعويض شيءٍ من شيءٍ في مُقابلةِ شيءٍ آخرَ، نحو بِعتُكَ هذا بهذا، وأخذتُ الدارَ بالفرسِ".

7- البدَلُ، وهي التي تدلُّ على اختيار أحدِ الشيئينِ على الآخرِ، بلا عِوَضٍ ولا مقابلةٍ، كحديث "يَسُرُّني بها حُمْرُ النَّعَمِ".[1]

8- الظرفيّةُ – أي معنى (في) – كقوله تعالى ﴿ولقد نصركمُ اللهُ ببَدْرٍ وأنتم أذلة﴾ آل عمران : 123.

9- المصاحبةُ، أي معنى "مع"، نحو "بعتُكَ الفرسَ بسرجِهِ والدارَ بأثاثها"، ومنه قولهُ تعالى : ﴿إهبطْ بسلام منا﴾ هود:48.

10- معنى "مِن" التَّبعيضيّةِ، كقولهِ تعالى ﴿عيناً يشربُ بها عبادُ اللهِ يفجرونها تفجيرا﴾ الإنسان :6. أي: منها.

11- معنى "عن"، كقولهِ تعالى ﴿فاسأل به خبيراً﴾ الفرقان:59 ، أي عنهُ.

12- الاستعلاءُ، أي معنى "على" كقوله تعالى ﴿ومن أهلِ الكتابِ مَن إن تَأمَنهُ بِقِنطارٍ يُؤدِّهِ إليكَ﴾ آل عمران الآية :75. إي : على قنطار.

13- التأكيدُ، وهي الزائدةُ لفظاً، أي في الإعراب، نحو "بِحَسبِكَ ما فعلتَ"، أي حَسبُك ما فعلتَ. ومنهُ قوله تعالى ﴿وكفى باللهِ شهيداً﴾ النساء :79.

اللامُ :لها خمسةَ عشرَ معنى :

1- الملكُ – وهي الداخلة بين ذاتين، ومصحوبُها يَملِكُ – كقوله تعالى ﴿للهِ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ﴾ البقرة :284. ونحو "الدارُ لسعيدٍ".

2- الاختصاصُ، وتُسمَّى لامَ الاختصاصِ، ولامَ الاستحقاقِ – وهي الداخلة بين معنًى وذات – نحو "الحمدُ للهِ" والنجاحُ للعاملين، ومنه قولهم "الفصاحةُ لِقُرَيشٍ، والصبّاحةُ لِبَني هاشمٍ".

---

[1] – الحديث رواه البخاري في صحيحه ،ج/2، ص: 10 ، رقم : 923. بلفظ ((أُحِبُّ أَنَّ لِي بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُمْرَ النَّعَمِ)).

3- شِبهُ الملك. وتُسمّى لامَ النسبة وهي الدَّاخلة بينَ ذاتين ، ومصحوبُها لا يملِكُ – نحو اللجامُ للفرَس".

4- التّبيين ، وتُسمّى اللاّمَ المُبيّنة؛ لأنها تُبيِّنُ أن مصحوبَها مفعولٌ لما قبلَها من فعل تعَجُّبٍ أو اسمِ تفضيل، نحو خالدٌ أحب لي من سعيدٍ . فما بعدَ اللام هو المفعول به.

5- التّعليلُ والسببيَّةُ، كقوله تعالى ﴿إنّا أنزلنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ لتحكُمَ بينَ الناسِ بما أراكَ الله﴾ النساء :105. أي : نزول الكتاب من أجل أن تحكم به.

6- التوكيدُ وهي الزائدة في الإعراب لمُجرَّد توكيد الكلام ، نحويا"بُؤسَ للحرب! "لأنَّ زيادتها لمجرَّد التوكيد.

7- التّقويةُ وهيَ التي يُجاءُ بها زائدةً لتقويةِ عاملٍ ضَعُفَ بالتأخيرِ ، بكونه غيرَ فعلٍ . فالأول كقوله تعالى ﴿للذينَ هم لربهم يَرهبُون﴾ الأعراف ، الآية:154. والثاني كقوله سبحانه ﴿مُصدِّقاً لِما مَعَكمْ﴾ البقرة :41. وهي – معَ كونها زائدةً – مُتعلّقةٌ بالعامل الذي قوَّتهُ، لأنها – مع زيادتها – أفادته التّقوية، فليست زائدةً مَحضة. وقيل هي كالزائدة المحضة، فلا تتعلّق بشيء.

8- انتهاءُ الغاية – أي معنى "إلى" – كقوله سبحانه ﴿كلٌّ يجري لأجل مُسمى﴾ الرعد:2 ، أي إليه.

9- الاستغاثةُ وتُستعمَلُ مفتوحةً معَ المستغاث، ومكسورةً معَ المُستغاثِ لهُ، نحو يا لَخالدٍ لِبَكر! ".

10- التعجبُ وتُستعملُ مفتوحةً بعد "يا"في نداءِ المُتعجب منه، نحو "يا للفرَح! "وتُستعملُ في غير النداءِ مكسورة، نحو للهِ دَرُّهُ رجلاً! "، ونحو للهِ ما يفعلُ الجهلُ بالأممِ ! ".

11- الصّيرورةُ وتُسمَّى لامَ العاقبةِ ولامَ المآلِ أيضاً وهي التي تدل على أن ما بعدَها يكونُ عاقبةً لِمَا قبلها ونتيجةً له، عِلةً في حصوله وتخالفُ لامَ التَّعليل في أنّ ما قبلها لم يكن لأجل ما بعدها، ومنه قوله تعالى فالتقطهُ آلُ فِرعونَ ليكونَ لهم عدواً وحَزَناً﴾ القصص: 8 فهُم لم يلتقطوهُ لذلك، وإنما التقطوهُ فكانت العاقبةُ ذلك.

12- الاستعلاءُ - أي معنى "على" - إما حقيقةً كقوله تعالى ﴿يَخِرُّونَ للأذقانِ سُجَّداً﴾ الإسراء:107 وإمّا مجازاً كقوله تعالى: ﴿إن أسأتُم فَلَها﴾ الإسراء:7. أي فعليها إساءتُها، كما قال في آية أخرى: ﴿وإن أسأتُم فعليها﴾.

13- الوقتُ (وتُسمَّى لامَ الوقت ولامَ التاريخ) نحو "هذا الغلامُ لِسنةٍ"، أي مرَّت عليه سَنةٌ.

14- معنى "معَ"، كقول الشاعر [من الطويل]

فَلمّا تَفرَّقْنا كأنّي ومالِكاً ... لِطولِ اجتماعٍ لم نَبِتْ ليْلَةً مَعا

15- معنى "في"، كقوله تعالى ﴿لا يُجلّيها لوقتها إلاّ هُو﴾ الأعراف :187، أي في وقتها. ومنه قولهم "مضى لسبيله"، أي في سبيلِه.

مِـــنْ : لها ثمانيةُ مَعانٍ

1-الابتداءُ، أَي ابتداءُ الغايةِ المكانيّةِ أو الزمانيّةِ. فالأول كقوله تعالى: ﴿سبحانَ الذي أسرى بعبدِه ليلاً من المسجد الحرامِ إلى المسجد الأقصى﴾ الإسراء:1. والثاني كقولِه ﴿لَمسجدٌ أُسسَ على التّقوى من أوّلِ يوم أَحَقُّ أَن تقومَ فيهِ﴾ التوبة :108.

2-التّبعيضُ ، أي معنى "بعض"، كقولِهِ تعالى : ﴿لن تنالوا البرَّ حتى تُنفقوا ممّا تُحبّونَ﴾ آل عمران :92.أي بعضَهُ، وقولِهِ : ﴿منهم من كلّمَ اللهَ﴾ البقرة :253. أي: بعضُهم. وعلامتُها أَن يَخلُفَها لَفظُ "بعضٍ".

3-البيانُ ، أي بيانُ الجنس، كقوله تعالى :﴿واجتنبوا الرجسَ من الأوثانِ﴾ الحج:30 وعلامتُها أَن يصحَّ الإخبارُ بما بعدَها عمّا قبلها، فتقول الرجس هي الأوثانُ .

4- التأكيدُ، وهي الزائدة لفظاً، أي في الإعراب، كقوله تعالى : ﴿ما جاءنا من بشيرٍ﴾ المائدة :19.

5- البدل: كقوله تعالى ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾ التوبة :38.أي : بدلها.

6- الظّرفيّة، أَي معنى (في) ، كقوله سبحانهُ :﴿ماذا خَلقوا من الأرض﴾ الأحقاف :3. ، أي فيها، وقوله إذا نُوديَ للصّلاة من يومِ الجمعة} ، أي في يومها.

7-السّببيّةُ والتّعليلُ ، كقوله تعالى ﴿مِمّا خطيئاتهم أُغرِقوا﴾ نوح:25.

8- معنى "عن"، كقولِهِ تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللهِ﴾ الزمر: 22 وقولِهِ ﴿يا ويلنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذا﴾ الأنبياء :97 .

فـــــي : لها سبعةُ مَعانٍ :

1- الظرفيّةُ، حقيقيّةً كانت، نحو "الماءُ في الكوز. أَو مجازيَّةً، كقوله سبحانه : ﴿ لقد كان لكُم في رسول اللهِ أُسوةٌ حسنةٌ﴾ الأحزاب :21.

2-السببيّة والتّعليلُ ، كقولهِ تعالى : ﴿لَمَسّكم فيما أَفضتُم فيه عذابٌ عظيم﴾ النور:14. أي بسبب ما أَفضتم فيه. ومنه الحديث "دخلتِ امرأَةُ النارَ في هِرّةٍ حَبَستها"[1] أي بسبب هِرّةٍ.

3- معنى "مَعَ" كقولِهِ تعالى ﴿قال ادخلوا في أُمَمٍ ﴾أي مَعَهم.

4- الاستعلاءُ - بمعنى "عَلى" - كقولِهِ تعالى :﴿لأُصلبنّكُم في جُذوعِ النّخلِ ﴾طه:71. ، أي عليها.

5- المُقايَسةُ هي الواقعةُ بينَ مفضولٍ سابقٍ وفاضلٍ لاحقٍ ، كقولهِ تعالى: ﴿ما مَتاعُ الدنيا في الآخرةِ إلا قليلٌ﴾ التوبة :38 ، أي بالقياس على الآخرة والنسبة إليها.

6- معنى الباءِ ، التي للإلصاق، كقول الشاعر [من الطويل]:

ويَرْكَبُ يَوْمَ الرَّوْعِ مِنَّا فَوارِسٌ بَصيرُونَ في طَعْنِ الأَباهِرِ والْكُلى

أي بصيرونَ بطعنِ الأباهر.

7- معنى "إلى" كقولِهِ تعالى ﴿فَرَدُّوا أيديَهم في أفواههم} .[2]

---

[1] – رواه البخاري تحت رقم :3318، ج/4 ، ص :130.

[2] – ينظر جامع الدروس العربية ، ج/3، ص :181.

عـــــــن: لها ستة معانٍ :

1- المجاوزةُ والبُعدُ، وهذا أصلُها، نحو سِرتُ عن البلدِ رَغِبتُ عن الأمر. رَمَيت السهمَ عن القوس".

2- معنى "بعد"، نحو قُرَيبٍ أزُورُكَ"، قال تعالى :﴿عمَّا قليلٍ لَتُصبحُنَّ نادمين﴾ المؤمنون :40 .

3- معنى "على" كقولِهِ تعالى : ﴿وَمَن يَبخَلْ فإنما يَبخَلُ عن نفسه﴾ سورة محمد :38. أي عليها.

4-التَّعليلُ، كقولهِ سبحانه : ﴿وما نحنُ بتاركي آلهتنا عن قولك﴾ هود:53 ، أي من أجل قولك.

5- معنى "مِن" كقوله سبحانه﴿وَهُوَ﴾ الذي يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ﴾ الشورى :25 ، أي: منهم.

6- معنى البَدَل كقولِهِ تعالى :﴿واتقوا يوماً لا تجزي نَفسٌ عن نَفسٍ شيئاً﴾ البقرة :48 ، أي بَدل نفس.

ويتبين للقارئ من خلال هذا العرض المبسط لمعاني بعض حروف الجر أن كل حرف إلا وله معان عدة ، وكل حرف من حروف الجر إلا وتجد له التقاء في المعنى مع غيره ، ولا يمكن تحديد المعنى الوظيفي للحرف إلا من خلال تسييقه ، والنظر في علاقاته التركيبية ، يقول ابن جني في باب استعمال الحروف بعضها مكان بعض : " ... إنه يكون بمعناه في موضع دون موضع على حسب الأحوال الداعية إليه، والمسوغة له... فإن العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذانًا بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر، فلذلك جيء معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه.ووجدت في اللغة من هذا الفنِّ شيئًا كثيرًا لا يكاد يحاط به، ولعله لو جمع أكثره "لا جميعه" لجاء كتابًا ضخمًا، وقد عرفت طريقه. إذا مرَّ بك شيء منه

فتقبله وأنس به، فإنه فصل من العربية لطيف حسن يدعو إلى الأنس بها والفقاهة فيها. "[1]

[1] – الخصائص لابن جني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط/4، 1991. ج/2 ، ص :212/211/210.

1 . 2 . 2 . أ . الإبدال بين حرفي الجر (إلى – على) .

قال تعالى :﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ البقرة:136.

وقال سبحانه وتعالى : ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران :84.

وقع الإبدال في الآيتين بين قوله سبحانه في البقرة (مَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا) ، وبين قوله في سورة آل عمران (وما أنزل علينا) ، أي : بين (إلينا /علينا) ، فما هو السر البلاغي وراء ورود كل حرف في موضعه ؟.

أجاب عن هذا السؤال عدة من المفسرين والعلماء المهتمين بتوجيه الآيات المتشابهة في القرآن الكريم ، فالخطيب الإسكافي يرى[1] أن (إلى) و(على) يشتركـــان في إفادة معنى الإنتهاء والوصول ، لكن (إلى) تفيد معنى الوصول والإنتهـاء ، دون تخصيص الجهة التي وصل منها الشيء ، أما (على) فهي تختص بالوصول من جهة واحدة ، ثم نظر بعد ذلك إلى الخطاب في صدر الآيتين ، فالآية الأولى صدرت بقوله تعالى : (قولوا) ، فهو خطاب موجه للمسلمين ، وهم من نزل إليهم الكتاب عن طريق الرسول ولم ينـزل عليهم ، أما آية سورة آل عمران فصدرت بقوله تعالى : (قل) ، وهو خطاب للذي نزل عليه القرءان ، مع أن ذلك يفيد العموم كما هو المعلوم من أنواع الخطاب القرآني ، فلذلك ناسب كل حرف موضعه وتأكد فيه.

وقد استـــــدل على إفادة هذه المعاني ببعض الآيات ، ومنها : قوله تعالى : ﴿ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه..﴾ آل عمران: 03 .وقال بعدهـــا:

---

[1] – ينظر، درة التنزيل وغرة التأويل ، ص:299.

﴿هو الـذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات...﴾ أل عمران: الآية 7.
وقـــال في موضــع آخر: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق..﴾ المائدة: 48.[1]

وهذا المعنى الذي حققه الخطيب الإسكافي تابعه عليه الكرماني ، وابن الزبير ، وابن جماعة وبعض المفسرين [2]، إلا أن الزمخشري رد هـذا التوجيه ورأى فيه تعسفا ؛ يقول رحمه الله : " فإن قلت: لم عدّى أنزل في هذه الآية بحرف الإستعـلاء ، وفيما تقدم من مثلها بحرف الإنتهاء؟ ؛ قلت: لوجود المعنيين جميعا ، لأن الوحي ينـزل من فوق ، وينتهى إلى الرسل، فجاء تارة بأحد المعنيين، وأخرى بالآخـر. ومن قال: إنما قيل (عَلَيْنا) لقوله: (أُنْزِلَ) و (إلينا) لقوله: (قولوا) تفرقـة بين الرسل والمؤمنيـن لأن الرسول يأتيه الوحى على طريق الاستعـلاء، ويأتيهـم على وجه الإنتهاء، فقد تعسف. ألا ترى إلى قوله تعالى(أُنْزِلَ إِلَيْكَ) أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ)وإلى قوله تعالى(بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا) . "[3] ونقل عنه نفس الكلام الفخر الرازي دون زيادة.

فالزمخشري يرى أن ذلك ضربا من التنوع في التعبير كما هي عادة أسلوب القرءان في التعبير ، فالرسول يأتيه الوحى من علو ويصل اليه من علو كذلك .

وقد ذكر ابن عاشور بعض الأسباب والعـلل في توجيهات الزمخشري ، لأنه تبنى رأيه دون التصريح به ؛ يقول رحمه الله في تفسير آية آل عمران : "الْمُخَاطَبُ بِفِعْلِ قُلْ هُوَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِيَقُولَ ذَلِكَ بِمَسْمَعٍ مِنَ النَّاسِ مُسْلِمِهِمْ، وَكَافِرِهِمْ كَمَا جَاءَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ: مَا أُنْزِلَ إِلَيَّ أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ لِتَبْلِيغِكُمْ إِيَّاهُ عَلَى الْوَجْهَيْنِ الْأُمَّةِ لِاشْتِرَاكِهِمْ فِي وُجُوبِ الْعَمَلِ بِمَا أُنْزِلَ، وَعَدَّى فِعْلَ أُنْزِلَ) بِحَرْفِ (عَلَى) لِأَنَّ الْإِنْزَالَ يَقْتَضِي عُلُوًّا وَعُلُوُّ الشَّيْءِ

---

[1] – نفس المصدر. ص :301/300.

[2] – ينظر:كشف المعاني : ص:108/107. البرهان في متشابه القرآن ، ص:79. ملاك التأويل ،ج/1 ، ص :52.

[3] – الكشاف ، ج/1، ص:381.

زالمُنـوُصُولُ اسْتِعْلاَ ءٍ عُدِّيَ فِي آيَةِ سُورَةِ رَالْقَدِرْ فِ (إلى) اعْتِبَارِ أن زَالإِ يَتَضَمَّنُ الْوُصُولَ وَهُوَ يَتَعَدَّى بِحَرْفِ (إلى) .[1]

ورغم ما ذكر، فإن السؤال لا يزال يحتاج إلى إجابة ؛ لماذا روعي في سورة البقرة معنى الوصول ، فعدي الإنزال فيها بحرف (إلى) ، ؟ ولماذا روعي في آيـــة آل عمران معنى العلو ، فعدي الإنزال بحرف (على) ؟.

هذا ما حاول الإجابة عنه الإسكافي والكرماني وغيرهما ، بالرغم من انتقاد الزمخشري لتوجيهاتهم ، وعدم اقتناعه بها ، بل اعتبرها ضربا من التعسف.

ومجمل القول في هذه الاراء والتوجيهات : أن منهم من نظر إلى السياق الذي وردت فيه الآيتان ، ونظر إلى التوافق بين توجيه الخطاب ومعنى حرف الجر الذي ورد فيه كما فعل الإسكافي ومن وافقه على رأيه ، ومنهم من نظر إلى معنى النزول ومعنى الوصول والإنتهاء الذي تفيده كل من (إلى وعلى) ، وأنه ليس هناك اختـــلاف إلا من ناحية التفنن في التعبير ، وهذا رأي الزمخشري ومن وافقه كالرازي وابن عاشور.

والبحث عن السر البلاغي وراء استعمال كل حرف في موضعه واختصاصه ، لا يقبل منا التسليم بـــرأي من قال أن ذلك لا يعدو كونه تفننا في التعبير ، بل يوجب علينا المزيد من النظر والبحث في السر وراء ذلك .

يرى الباحث إضافة لما تقدم من توجيهات العلماء ، أن هناك علاقـة بين استعمال كل حرف في موضعه مع جو السورة العام ، ولتفصيل ذلك يجب النظر في:

أولا : استفتاح السورتين :

فسورة البقرة استفتحت بقوله تعالى: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ الآية :4. فجاء الإنزال هنا معدى بحرف الجر (إلى).

---

[1] – التحرير والتنوير،ج/3، ص:302.

وأما استفتاح سورة آل عمران فقد تصدرته آيتان عدي فيهما الإنزال بحرف الجر (على) . فأما الأولى : فهي قوله سبحانه وتعالى﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ الآية :3.والثانية قوله سبحانه بعدها بقليل ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ...﴾ الآية:7.

فباعتبار استفتاح السورتين نلاحظ أن هناك علاقة وترابطا واتساقا بين استفتاح كل سورة ، وبين استعمال حرف الجر فيها، فبهذا الاعتبار ناسب حرف الجر (إلى) سورة البقرة ، وناسب حرف الجر(على) سورة آل عمران.

ثانيا : النظر إلى ورود لفظة الإنزال المعداة بحرف الجر(إلى وعلى) في كل من السورتين . فبالنسبة لسورة البقرة : فقد تكرر فيها لفظ الإنزال المعدى ب(إلى) :04 مرات ، ومرتين بحرف الجر (على) ، والمجموع : 06 مرات .

وأما بالنسبة لسورة آل عمران : فنلاحظ أن لفظ الإنزال المعدى ب(على) ورد فيها 04 مرات ، والمعدى ب(إلى) : مرة واحدة ، والمجموع : 05 مرات.

فمن خلال هذه الاحصائية البسيطة يتضح لنا أن التكرار الغالب للفظة الإنـــزال المعدى بإلى كان في سورة البقرة ، فناسب استعمال حرف الجر (إلى) فيها.

وأما سورة آل عمران : فالغالب على تكرار لفظ الإنزال فيها التعدي بحـرف الجر (على) ، وورود فيها جاء متناسبا ، وبذلك انسجم كل حرف مع جو السورة التي ورد فيها.[1]

ثالثا : النظر إلى الأحكام الشرعية التي وردت في السورتين ، باعتبـــار أن معنى (على) روعي فيه جهة التنزيل ومصدره ، و (إلى) روعي فيه معنى وصول

---

[1] – ملاحظة : المقصود بالإنزال المعدى بحرف الجر (إلى وعلى) الإنزال المرتبط بالوحي والكتب ، لا بغيره .

الوحي للعمل به ، فإذا نظرنا الى السورة بهذين المفهومين ، نجد أن سورة البقرة اشتملت على أغلب الأحكام الشرعية ، ولا نجد ذلك في ســورة آل عمران .[1]

فبهذه الإضافات ، مع ما سبق من توجيه علمائنا الأجلاء ، يتجلى لنا ما مدى أحقيــة كل حرف بموضعه وسورته ، في إحكام عجيب ورصف غريب ، ما يجعلنا نكتشف إعجاز القرآن الكريم في توظيف الحرف ومعناه بصورة لا نظير لها في أي كلام مهما علت بلاغته ، ولقد صدق الله العظيم حينما قال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ النساء:82.

---

[1] – ففي سورة البقرة ذكر من الاحكام ما يلي : تحويل القبلة ، الصلاة ، الصيام ، الحج والعمرة ، النكاح والطلاق ، البيع والشراء ، والمداينة ، تحريم الربا ، وغير ذلك من الأحكام . وأما سورة آل عمران ، فكانت موضوعاتها في الغالب ذكر غزوات الرسول وتفصيلاتها وأحكامها، والدروس والعبر التي تؤخذ منها .

1 . 2 . 2 . ب . الإبدال بين(الباء واللام)

ومن وجوه الإبدال التي وردت في القرآن الكريم : الإبدال بين حرفي الجر (الباء، واللام) ، وقد ذكر النحاة للباء ثلاثة عشر معنى : (الإلصاق ، الإستعانة ، السببية والتعليل ، التعدية ، القسم ، العَوض ، المفاضلة ، الظرفية، المصاحبة ، التبعيض ، معنى (عن) ، معنى (على) ، التأكيد).

أما اللام فقد وصلت معانيها إلى خمسة عشر وجها : (الملك ، الإختصاص ، شبه الملك ، التبيين ، التعليل ، التوكيد ، التقوية ، انتهاء الغاية ، الإستغاثة ، التعجب ، الإستعلاء ، الوقت ، معنى(مع) ، معنى(في)).[1]

وهذه المعاني المتنوعة لكل حرف تقتضي أن يوضع الحرف في مكانه الأخص به ، وأن يحقق ترابطا وانسجاما تاما بين دلالته والمعنى المراد في السياق وإذا وقع أي خلل في الترابط ، ضاع المعنى ، وفقد الكلام نَصيَّته وبلاغته.

والتحكم في توظيف معاني الحروف من أعقد الأمور ، ولذلك اعتبر مقياسا من مقاييس بلاغة الخطاب/النص ، والتحكم في توظيف حروف المعاني دلالة على النبوغ ، والمهارة ، والبراعة .

وإذا تأملنا في القرآن الكريم نجد أنه قد استعمل كل كلمة في موضعها اللائق بها ، واستعمل كل حرف في مكانه المناسب له ، ويتجلى هذا التناسق والانسجام في الآيتين المتشابهتين اللتين وردتا في معنى واحد ، وخالفت إحداهما الأخرى في استعمال حرف أو كلمة ، ولتأكيد ذلك نأخذ مثالا من القرآن الكريم .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ الأعراف [الآية :123].

---

[1] - ينظر جامع الدروس العربية :ج/3 ، ص :470. (الجنى الداني ، ص:95/36) . (مغني اللبيب ،ص :117) . (شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك ،ج/3 ، ص:11.).

وقال أيضا ﴿لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ طه [الآية :71].

وقال أيضا ﴿لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الشعراء [الآية : 49].

وقع الإبدال بين حرفي الجر(الباء واللام) في قوله تعالى (آمنتم به) وقوله (آمنتم له) ، فما هو السر البلاغي وراء استعمال كل حرف في موضعه.

يرى الإسكافي وابن جماعة والكرماني :أَن الضَّمِير في آية الأعراف يعود إِلَى رب الْعَالمين وَهُوَ الْمُؤمن بِهِ سُبْحَانَهُ ،وَفِي (طه ، والشعراء) يعود إِلَى مُوسَى وَهُوَ الْمُؤمن لَهُ لقَوْله {إِنَّه لكبيركم}قيل آمنتم بِهِ وآمنتم لَهُ وَاحِد.[1] فهذا التوجيه مبناه على فكرة الترابط الإحالي ، أي : أن الإحالة بالضمير في (به) و(له) مختلف بين آية وأخرى ، ولكن يبقى الإشكال المطروح ، أننا إذا سلمنا أن الإيمان يكون بالله كما ورد في آية الأعراف ، أفلا يجوز أن يقال : الإيمان بموسى ؟ خصوصا وقد ورد في القرآن الكريم مثل ذلك ، قال تعالى وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي﴾ المائدة [الآية :12].

وللإجابة على ذلك يتعين علينا النظر في سياق كل آية لنكتشف الدليل الذي يؤكد لنا رأي كل من الخطيب الإسكافي والكرماني وابن جماعة .

والدليل على أن الإحالة في آية الأعراف على (الله) ، و في سورتي طه والشعراء على (موسى) ، أن ختام آية الأعراف جاء هكذا ((إِذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ)) وجاء بعد كذلك قول السحرة:﴿تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ الآية :126. أما ختام آيتي سورة طه والشعراء فجاء كالتالي:إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ ، ففي سورة

---

[1] – البرهان في متشابه القرآن ، ص : 129. ودرة التنزيل ، ص: 670 ، وكشف المعاني : ص : 183.

الأعراف لم يتحدث فرعون عن موسى ، وإنما وصف الحدث بأنه مكر ظهر في المدينة ، وأما في السورتين طه والشعراء ، ففرعون أشار مباشرة إلى أن اتباع السحرة لموسى وقع لكونه أستاذهم وكبيرهم في معرفة السحر؛ " وواضح أنه لا يصح أن يقال مثل هذا القول في الأعراف" [1] وهذا ما يدل على أن الإحالة في السور المذكورة ، جاءت في موضعها المناسب لها ، واقتران الضمير بحرف الجر جاء كذلك مترابطا مسبوكا ومحبوكا على المستويين :السطحي والعميق . وأما توجيه آية المائدة (وءامنتم برسلي) فالإيمان في أصله كما ذكر في العديد من الآيات والأحاديث ، إيمان بالله وبرسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر والقضاء والقدر ، فالإيمان بالأنبياء جزء من أركان الإيمان ، وكلما روعي هذا الإعتبار جاء التعبير بحرف الباء ، وأما الإيمان لهم ، فمعناه تصديق رسالتهم ، واتباع دعوتهم ، وهذا اتضح في توجيه ابن الزبير الغرناطي[2] ، الذي أضاف عمقا آخر في التحليل ، بنظره إلى المعنى المعجمي للفظة (الإيمان) فالإيمان يعني التصديق ، والإنقياد ، والإنقياد في رتبته مؤخر عن التصديق ، فلا يكون انقياد دون أن يسبقه تصديق ، فالباء حققت معنى التصديق ، الأول في الرتبة ، واللام حققت معنى الإنقياد والإذعان ، إضافة إلى ذلك أن سورة الأعراف في المصحف سبقت كلا من سورتي طه والشعراء . فهذا الرأي لابن الزبير بني على أساس النظر في الترابط الذي تحقق من خلال السبك المعجمي ، والسياق العام للقرآن الكريم من جهة ترتيب سوره ، وهذا الرأي له موضعه ووجاهته ، وبه تتكامل الرؤية التحليلية لأبعاد الإنسجام والتناسق في النظم القرآني، ويتراءى للمتأمل سر الترابط الدقيق الذي حققه كل حرف في موضعه ، فإن كانت البلاغة تعني مطابقة الكلام لمقتضى المقام ، فإن ذلك دون شك متحقق في البيان القرآني ، من خلال وضع كل حرف في موضعه الأليق به .

" ولما كان الأصل في نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها من الدلالة المعنوية، استحال أن يقع في تركيبه ما يسوغ الحكم في كلمة

---

[1] –التعبير القرآني ، ص:334.

[2] – ينظر ملاك التأويل ، ص : 572.

زائدة أو حرف مضطرب أو ما يجري مجرى الحشو والاعتراض، أو ما يقال فيه إنه تغوث واستراحة ، كما تجد من كل ذلك في أساليب البلغاء، بل نزلت كلماته منازلها على ما استقرت عليه طبيعة البلاغة، وما قد يشبه أن يكون من هذا النحو الذي تمكنت به مفردات النظام الشمسي، وارتبطت به سائر أجزاء المخلوقات صفة متقابلة بحيث لو نزعت كلمة منه أو أزيلت عن وجهها، ثم أدير لسانُ العرب كله على أحسن منها في تأليفها وموقعها وسدادها، لم يتهيأ ذلك ولا اتسعت له اللغة بكلمة واحدة . "[1]

[1] – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ،لمصطفى صاق الرافعي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط/8 ، 1425ه-2005م ، ص :155

1 . 2 . 2 . جـ . الإبدال بين حرفي الجر (من ، وفي):

ومن حروف الجر التي وقها بينها الإبدال ، حرفي الجر (من ، وفي) ، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ النحل [الآية :84]. وقوله سبحانه في نفس السورة: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ النحل [الآية :89].

وقبل الشروع في بيان أهم التوجيهات التي ذكرها العلماء في بيان السبب الذي من أجله جاء كل حرف في موضعه ، يستحسن أن نذكر المعاني الخاصة لكل حرف ، فقد ذكر النحاة لحرف الجر (من) ثمانية معان : (إبتداء الغاية ، التبعيض البيان ، التأكيد ، البدلية ، الظرفية ، السببية والتعليلية ، معنى (عن)) ، أما حرف الجر(في) فقد ذكر له العلماء سبعة أوجه :(الظرفية ، السببية والتعليل ، معنى (مع) ، الإستعلاء ، المقايسة ، الإلصاق كالباء ، معنى (إلى)). [1] ويلاحظ أن الحرفين يشتركان في تقمص معنى الظرفية والسببية ، وذلك ما يمكنهما من التناوب على الموضع الواحد ، ولكن لا يحسن ذلك إلا من يملك حسا مرهفا ، وبراعة في التعبير ، وتدقيقا عاليا في اختيار الحرف المناسب للمكان المناسب .

ولقد اتسم الخطاب القرآني بالتنوع في التعبير والمزاوجة بين الأساليب ، والإبدال بين الحروف والكلمات بشكل لا نظير له في أي نص كان ، ومما يؤكد ذلك ، بلاغة الحرف القرآني في موضعه الذي ورد فيه ، حيث لا يعرف نبوا ولا نفرة مع متتالياته ، سواء أتعلق الأمر بالسياق اللغوي القبلي والبعدي ، أو سياق السورة ، أو في سياق القرآن العظيم كله .

---

[1] – ينظر: جامع الدروس العربية للغلاييني ،ج/3،ص: 493/492. ومغني اللبيب لابن هشام،ج/2 ص :513. والمفصل للزمخشري ، ص : 102. وشرح ابن عقيل لألفية ابن مالك ، ج/2 ، ص: 42

وقد وقع الإبدال في الآيتين اللتين معنا في قوله تعالى :(من كل أمة) وقوله بعدها (في كل أمة) ، والسؤال الذي يتبادر دائما : ماالسبب في وراء ذلك ؟ وما هو سر الإعجاز والبلاغة القرآنية وراء ذلك ؟ .

لم يذكر الخطيب الاسكافي ولا الكرماني ولا ابن جماعة ولا الفيروزآبادي توجيها لهاتين الآيتين ، ووجدنا تعليقا للسيوطي في كتابه "معترك الأقران" اكتفى فيه بتأكيد وحدة المعنى لكلا الحرفين ، فهو يرى أن الآية الثانية كشفت معنى (من) في الآية الأولى وبينت أن معنى (من ، وفي) واحد ؛ [1] وهذا الرأي هو لابن الزبير الغرناطي ، يقول رحمه الله : " ولما كان قوله تعالى : ((وجئنا بك على هؤلاء شهيدا)) حاصلا منه تعقيبه عليه السلام ، وتحقيق كونه شهيدا على أمته ، وكونه من أنفسها ، ورد ما قبله محررا فيه ذلك الغرض من تحقيق ذلك الحكم ، من أن كل نبي قبله إنما كان من أنفس القوم المرسل اليهم ذلك الرسول لا من غيرهم ، وهو الشهيد عليهم ، وحقق في الثانية بما يحرزه حرف الوعاء الذي هو (في) ويقتضيه من استحكام الإخبار بكون الشهيد من نفس الأمة ، لأن قوله : (من كل أمة) يحتمل أن يراد به أن يكون منهم في مذهب أو جامع بينهم وبينه ، من غير أن يكون من أنفسهم ، أما قوله : (في كل أمة) فأنص في الإتصال والالزوق ، لاسيما بما أتبع به من قوله : (من أنفسهم) ... " [2]

وخلاصة كلام ابن الزبير أن (من) صريحة في ذكر كون الشهيد يكون يوم القيامة من قومه ، وأما التعبير بحرف الجر(في) فهو يحتمل ذلك المعنى ويحتمل غيره ، فلذلك أضاف في الآية الثانية قوله : (من أنفسهم) لينفي أي احتمال لغير المعنى المقصود من معنى (من) ، وبذلك يتحد المعنى في كلا الحرفين ، فبيان الجنس مطلق في (من) فلم يحتج إلى تصريح أو واسطة بين حرف الجر والضمير فعبر بـ (منهم) ، ومقيد في (في) بإضافة القرينة الصريحة في بيان الجنس ، فعبر

---

[1] – ينظر : معترك الأقران ، ج/3، ص :137.

[2] – ملاك التأويل ، ج/2، ص:306.

بـ (من أنفسهم). والغرض من المغايرة في الخطاب ، نفي رتابة التكرار ، والتأكيد على أن الشهيد يكون من بني قومه.

ولزيادة المعنى وضوحا نسوق كلام ابن عطية رحمه الله حيث يقول : " هذه الآية في ضمنها وعيد، والمعنى : واذكر يوم نبعث في كل أمة شهيدا عليها، وهو رسولها الذي شاهد في الدنيا تكذيبها وكفرها، وإيمانها وهداها، ...وذلك أن الرسول الذي من نفس الأمة في اللسان والسير وفهم الأغراض والإشارات يتمكن له إفهامهم والرد على معانديهم، ولا يتمكن ذلك من غير من هو من الأمة، فلذلك لم يبعث الله قط نبيا إلا من الأمة المبعوث إليهم . " [1]

ونلاحظ أن لفظة (الشهيد) كانت محور هذه الآراء ، وفسرت بمعنى خارج السياق اللغوي ، أي : بسياق خارجي ، وذلك في حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه : ((يجيء نوح وأمته فيقول الله تعالى : هل بلغت ؟ فيقول : أي رب ، فيقول لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون لا ما جاءنا من نبي ، فيقول لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فنشهد أنه قد بلغ ، وهو قوله جل ذكره ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾)) .[2]

فالشهيد إذا قد يكون نبيا أو إنسانا صالحا ، وإذا قصرنا معنى الشهيد على الأنبياء فسنقع في إشكال كبير ، وهو ما يتعلق بمفهوم الأمة ، فإذا فسرت الأمة بمعنى القوم ، فيصدق ذلك على الرسل جميعهم إلا النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم فهو من قومه نسبا ، ولكنه رسول للعالمين ، ودينه يضم عدة قوميات مختلفة ، وأما إذا فسر الشهيد بمعنى عام يدخل فيه الصالحون من كل قوم ، فإن ذلك فيه نوع من البشارة بانتشار الإسلام ، وأن كل قوم إلا وسيكون منهم من يعتنق الإسلام ويدعو له ، والواقع يصدق ذلك ويشهد عليه ، وهو مصداق لقول النبي صلى الله عليه وسلم ((لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لاَ يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الإِسْلاَمَ، وَذُلًّا يُذِلُّ

---

[1] - المحرر الوجيز ، ج/3 ، ص :415.

[2] – رواه البخاري في صحيحه برقم :3339 ،ج/2 ،ص :135.

اللهُ بِهِ الْكُفْرَ)) .[1] وهذا من أخبار النبي صلى الله عليه وسلم التي تدل على صدق نبوته .

وعودة إلى سياق الآية الأولى نجد أن سياقها يتحدث عن تعداد النعم من الله على عباده ، وأن القليل من الناس من يشكر النعم ، وكثير من الناس من يعرف نعم الله ويحسها ويتقلب فيها ولكنه ينكرها ، قال تعالى : ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ الآية : 83 ، ولا شك أن لهذه الآية ارتباط بالآية التي بعدها (84) ، ووجه الإرتباط بينهما والله أعلم أن معرفة النعم ونكرانها من الكافرين طبيعة لهم ، تموت معهم وتحشر معهم ، فإذا كان يوم الحساب وجيء بالشهداء الذين هم منهم ويعرفونهم أنكروهم ، وأنكروا شهادتهم ، كما مر في الحديث النبوي السابق الذكر ، عندما يشهد نوح على قومه وينكرونه رغم لبثه فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما.

وأما الآية الثانية فجاءت بحرف الجر(في) التي تدل على معنى الإحاطة والشمول ، وهو المعنى المناسب مع ذكر شهادة النبي صلى الله عليه وسلم على الخلق جميعا (وجئنا بك شهيدا على هؤلاء) ، فتبين بذلك مناسبة كل حرف بمكان وروده ، واختصاصه بموضعه ، وتجلت بذلك بلاغة الخطاب القرآني ، وجلالة نظامه ، وحسن التآمه .

---

[1] - أورده الهيثمي في "المجمع" وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجاله رجال الصحيح. ينظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، لإبي الحسن نور الدين " الهيثمي " (807ه) ، ت: حسام الدين القدسي ، مكتبة القدسي القاهرة ، 1414ه-1994م ، ج/6 ، ص :14.

1 . 2 . 3 . الإبدال بين حرف الجر وما يؤدي معناه

جاءت صور الإبدال في بعض الأحيان مغايرة لما كان معهودا ، كما مر معنا في مباحث سابقة ، فالإبدال المعهود بين حروف المعاني ، أن يستعمل حرف (معنى) في موضع ، ويبدل به حرف من نوعه في آية مشابهة ؛ ولكن هنا اختلف الأمر ، حيث أتى الإبدال في صورة أخرى ، وهي الإبدال بين حرف جر ، وما يقرب من معناه ، وهذا النوع تحقق في موضعين في القرآن الكريم ، الأول منهما : الإبدال بين حرف الجر (من) وكلمة (خشية) ، والموضع الثاني : بين حرف الجر(عن) والتركيب التالي (من بعد) ، حرف الجر والظرف.

1 . 2 . 3 . 1 . الإبدال بين (عن) وشبه الجملة (من بعد).

قال تعالى: ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ النساء: 46.

وقال جل وعلا: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ المائدة:13.

وقوله سبحانه وتعالى في آية أخرى من سورة المائدة :﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوَاْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن

تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الآية :41.

في هذا النوع من الإبدال مراعاة تقارب المعنى بين حرف الجر (عن) والظرف (بعد) المضاف إلى حرف الجر(من) ، وقد اهتم العلماء بالبحث عن الأسرار البلاغية لتلك المغايرة في التعبير ، فكانت توجيهاتهم مبنية على أساسين اثنين أولهما : البحث عن المعنى المعجمي للفظة (التحريف) ، والمعاني التي يحملها كلا من حرف الجر(عن) والظرف (بعد) ، والثاني : تقوية المعنى بالسياقين اللغوي والخارجي/ سبب النزول ؛ وفيما يلي أهم التوجيهات التي ذكرها العلماء .

فالخطيب الإسكافي تعرض لمعنى (التحريف) وذكر أنه أحد نوعين : تحريف من جهة التأويل ، وتحريف من جهة التنزيل ، بمعنى : أن التحريف يكون بتأويل الكلم عن وجهه ومقصده إلى أغراض ومقاصد لا تمت بصلة إلى كلام الله ، مع بقاء النص المكتوب محفوظا ، ويكون التحريف كذلك بحذف بعض الكلام أو الزيادة فيه أو تبديله بغيره ، وقد طالت يد اليهود كتابهم التوراة وحرفوه بكلا النوعين من التحريف . [1]

وبعد بيان أنواع التحريف ، تناول الخطيب ما يتعلق بالحرف (عن) والظرف (بعد) ورأى أنهما يتقاربان في المعنى ، كقولك : أطعمته عن جوع ، وكسوته عن عري ، فهذا المعنى يتحقق كذلك في قولك : أطعمته بعد جوع ، وكسوته بعد عري ، ولكن هناك ملاحظة دقيقة للخطيب بالنسبة لمعنى الزمن في كلا الحرفين ، فـ(بعد) وضع أصالة لمعنى الظرفية ، وأما (عن) فهو حرف جر يقبل مع معناه الأصلي ـ المجاوزة ـ معان أخرى كالظرفية ، وهذا موطن الإشتراك مع (بعد) ، لكن يتباينان في حد الزمن ومقداره ، فالزمن في (عن) يعني مجاوزة الشيء إلى غيره ، وملاصقا به ، وأما (بعد) فقد تكون لما تأخر زمان غيره بأزمنة كثيرة ، وبزمن واحد ؛ وبهذا

---

[1] – ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل ، ص :435..

التحليل لمقدار الزمن ، ربط الخطيب بين معنى (التحريف) ومعنى (عن ، وبعد) واستنتج أن الزمن المتصل أو القريب يعني أن اليهود الذين حرفوا الكلم ، هم الأوائل الذين عاصروا نزول التوراة ، وتحريفهم كان من نوع : التأويل الفاسد للكلام ، وأما النوع الثاني من التحريف ، وهو الزيادة والحذف والتبديل ، فكان من خلف اليهود الذين عاصروا بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، " فالسلف منهم مبتدع مخترع ، والخلف محرف أيضا ومقلد متبع " .

هذا من ناحية النظر إلى المعنى ، وأما بالنظر إلى سياق الآيتين فقد أكد الخطيب أن سياق سورة المائدة الذي استعمل فيه التركيب (من بعد) يدل على أن اليهود المخاطبون فيه هم اليهود الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، والدليل على ذلك قوله سبحانه: ﴿لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي : سماعون لما تقول ليكذبوا عليك ، وينقلوا كلامك في صورة مغلوطة ، لقوم آخرين لم يأتوك ، فالتعبير بـ (بعد) يحتمل أن يقع ذلك بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن يتوارثوه جيلا بعد جيل . ويحتمل أن يكون المراد ما ذهب إليه أكثر أهل التفسير، وهو أن قوما أرسلوا هؤلاء إلى النبي في قصة زان محصن فقالوا لهم:إن أفتاكم محمد بالجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فلا تقبلوه.[1]

وتوجيه الإسكافي هذا ، وافقه عليه أغلب العلماء ، كالكرماني ، وابن الزبير وغيرهم ، وابن جماعة الذي يقول : " أن الأولى هنا وأية النساء ربما أريد بها التحريف الأول عند نزول التوراة ونحو تحريفهم في قولهم موضع (حطة) : حنطة، وشبه ذلك. فجاءت (عن) لذلك.

والآية الثانية: تحريفهم في زمن النبى - صلى الله عليه وسلم -، وتغييرهم عن المقول لهم في التوراة بغير معناه كأنه قال من بعد ما عملوا به واعتقدوه وتدينوا به كآية الرجم ونحوها، فـ (عن) لما قرب من الأمر، و (بعد) لما بعد."[2]

---

[1] – نفس المصدر: ص:436.

[2] – كشف المعاني ، ص: 147/146.وينظر: البرهان في متشابه القرآن،ص: 144. وملاك التأويل ج/1:ص:377.

ولكن عند النظر إلى سياق الآيات التي معنا نجد تعليلا آخر للتعبير ب(عن) في سورة النساء ، ذكره العلماء عند الحديث عن قوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ ، فالمولى سبحانه وتعالى يكشف تلاعب اليهود بالألفاظ ، والإستخفاف بالدين ، فالكلمات التالية :(اسمع غير مسمع : حَتَّى وَلَوْ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهَا الْمَكْرُوهَ لِسِيَاقِ مَا قَبْلَهُ مِنْ قَوْلِهِ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ: سَمِعْتُ لَا سَمِعْتَ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ أَوْ بِالصَّمَمِ ، وَأَرَادُوا ذَلِكَ فِي الْبَاطِنِ، وَأَرَوْا فِي الظَّاهِرِ تَعْظِيمَهُ بِذَلِكَ .)[1] ، (وراعنا : أَرْعِنَا سَمْعَكَ ، أَيِ اصْرِفْ سَمْعَكَ إِلَى كَلَامِنَا وَأَنْصِتْ لِحَدِيثِنَا وَتَفَهَّمْ، وَهَذَا مِمَّا لَا يُخَاطَبُ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، بَلْ إِنَّمَا يُخَاطَبُونَ بِالْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ ...وَكَانُوا يَقُولُونَ رَاعِنَا يُوَهِّمُونَهُ فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَرْعِنَا سَمْعَكَ، وَكَانُوا يُرِيدُونَ سَبَّهُ بِالرُّعُونَةِ فِي لُغَتِهِمْ كَانُوا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ حَتَّى يَصِيرَ قَوْلُهُمْ رَاعِنَا، وَكَانُوا يُرِيدُونَ أَنَّكَ كُنْتَ تَرْعَى أَغْنَامًا لَنَا) ،(وليا بألسنتهم طعنًا في الدِّين ، أَيْ بِاللِّسَانِ وَطَعْنُهُمْ فِيهِ إِنْكَارُ نُبُوَّتِهِ، وَتَغْيِيرُ نَعْتِهِ، أَوْ عَيْبُ أَحْكَامِ شَرِيعَتِهِ، أَوْ تَجْهِيلُهُمْ قَوْمَهُمْ لَوْ كَانَ لَدَرَى نَبِيٌّ نَسَبُهُ، أَوِ اسْتِخْفَافُهُمْ وَاعْتِرَاضُهُمْ وَتَشْكِيكُهُمْ أَتْبَاعَهُ ....) "[2] . هذا الكلام من اليهود يدل على أنهم اليهود الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهذا يخالف التوجيه الذي ذكره الخطيب والكرماني وابن جماعة وابن الزبير في أن التعبير ب(عن) جاء في سياق اليهود الأوائل. وقد يستقيم ذلك مع الآية الأولى من سورة المائدة ، التي تدل بسياقها صراحة أن الذين أخذ الله عليهم الميثاق وبعث منهم اثني عشر نقيبا هم اليهود الذين كانوا في زمن سيدنا موسى .

ويرى الباحث أن هناك اتفاقا في الآراء بين العلماء يحتاج إلى ترابط ، وهو أن التعبير ب(عن) في سورة النساء وأول المائدة يعني بيان وجه من أوجه التحريف عند اليهود ، سواء منهم الأوائل أم المتأخرون ، ولا يختص بالأوائل كما اتضح من

---

[1] – المحرر الوجيز ، ج/2 ، ص:62.

[2] – مفاتيح الغيب،ج/10، ص:94.

سياق سورة النساء ، وأن التعبير بـ(من بعد) يعني النوع الثاني من التحريف ، وهو التبديل والزيادة والحذف ، وهو خاص بالمتأخرين منهم ، وما يزيد ذلك تأكيدا وبيانا سبب النزول .

يقول ابن عاشور: "هَذِهِ الآيَةِ وَمَا أَشَارَتْ إِلَيْهِ هُوَ مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُد، وَالْوَاحِدِيّ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ» وَالطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيرِهِ «مَا مُحَصَّلُهُ: أَنَّ الْيَهُودَ اخْتَلَفُوا فِي حَدِّ الزَّانِيَيْنِ (رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِ خَيْبَرَ أَوْ أَهْلِ فَدَكَ) ، بَيْنَ أَنْ يُرْجَمَ وَبَيْنَ أَنْ يُجْلَدَ وَيُحَمَّمَ[1] فَأَلْجَأَهُمْ إِلَى أَنْ أَرْسَلُوا إِلَى يَهُودِ الْمَدِينَةِ أَنْ يُحَكِّمُوا رَسُولَ اللَّهِ فِي شَأْنِ ذَلِكَ إِنْ قَالَ لَكُمْ بِالتَّحْمِيمِ قَبِلْنَا حُكْمَهُ وَإِنْ حَكَمَ بِالرَّجْمِ فَلَا تَقْبَلُوهُ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ لَأَقَارِبِهِمْ بِالْمَدِينَةِ! تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أُحْصِنَ» يُقَالُ: وَيُجْلَدُ وَيُطَافُ بِهِ، وَأَنَّ النَّبِيء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَذَّبَهُمْ وَأَعْلَمَهُمْ بِأَنَّ حُكْمَ التَّوْرَاةِ هُوَ الرَّجْمُ عَلَى مَنْ أُحْصِنَ ، فَأَنْكَرُوا، فَأَمَرَ بِالتَّوْرَاةِ أَنْ تُنْشَرَ أَيْ (تُفْتَحَ طَيَّاتُهَا وَكَانُوا يَلُفُّونَهَا عَلَى عود بشكل اسطواني) وَجعل بَعضهم يَقْرَأُها وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ يَقْرَؤُهَا لِلَّذِينَ يَفْهَمُونَهَا فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ارْفَعْ يَدَكَ فَرَفَعَ يَدَهُ فَإِذَا تَحْتَهَا آيَةُ الرَّجْمِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لَأَكُونَنَّ أَوَّل من أحيى حُكْمَ التَّوْرَاةِ بِأَنْ يُرْجَمَ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ.."[2].

فسبب النزول يؤكد أن هذه الآيات نزلت في اليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم . ويتضح بعد ذلك أن اليهود الأوائل حرفوا الكلم عن مواضعه بالتأويلات الفاسدة والباطلة ، وأما خلفهم فحرفوا الكلم عن مواضعه ومن بعد مواضعه ، فكانوا أشد خبثا ومكرا ، حسدا من عند أنفسهم لرسالة الإسلام ، التي فاجأتهم زمانا ومكانا واختيارا ؛ فأنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التورية والإنجيل ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وكتموا الحق

---

(1) – والتَّحْمِيمُ والتَّحْمِ وكل مَا احْتَرَقَ مِنَ النَّار ،والتحميم هو: أن يلطخ وجهه بالسواد تمثيلا به واحتقارا له. ينظر:لسان العرب :ج/12، ص :157.

(2) – التحرير والتنوير ،ج/6، ص:195. وينظر: أسباب النزول للواحدي (468ه) ، ت: عصام بن عبد المحسن الحميدان ، دار الإصلاح ، الدمام ، ط/2، 1412ه-1992م ، ص:196/195.

المبين ، ووظفوا كل وسائل المكر للتشويش على بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ففضح القرآن مكرهم وكيدهم. فسياق (عن) كشف بواطنهم وتلاعبهم بالأفكار ، وسياق (من بعد) كشف تلاعبهم بأحكام الدين ، فناسب كل حرف مكانه ، وأدى غرضه الذي سيق له ، بانسجام تام وترابط دقيق.

1 . 2 . 3 . 2. الإبدال في معنى السببية بين (من ، ولفظة خشية)

قال تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ الأنعام:151. وقال سبحانه وأيضا ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا﴾ الإسراء :31.

وقع الإبدال بين قوله سبحانه (من إملاق ، وخشية إملاق) فاستعمل في الآية الأولى حرف الجر (من) وفي الثانية لفظة (خشية) ، فما العلة في ذلك ؟ ، وما هو السر البلاغي في المغايرة بين الأسلوبين ؟.

قد سبق ذكر المعاني التي تتناوب حرف الجر(من) ، ومن تلك المعاني معنى السببية والتعليل ، كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ نوح :25. أي : كان سبب إغراقهم وهلاكهم كثرة ذنوبهم ، ف(من) هنا تعليلية ، وهي كذلك في آية سورة الأنعام ، والمعنى : ولا تقتلوا أولادكم بسبب الإملاق (الفقر) ، فالعلة هنا الفقر ، وفي سورة الإسراء العلة هي : خوف الفقر ، وبذلك يتضح أن الخطاب في آية الأنعام كان موجها للفقراء ، وفي سورة الإسراء كان موجها للأغنياء ، وهذا ما ذكره العلماء واتفقوا عليه ، واستدلوا على تأكيد ذلك بما وقع من تقديم وتأخير في الآيتين بين قوله تعالى (نرزقكم وإياهم) في الأنعام ، و(نرزقهم وإياكم) في الإسراء ، فقُدم رزق الآباء على الأبناء في سورة الأنعام ، وقُدم رزق الأبناء على الآباء في سورة الإسراء ، فخطاب الفقراء ناسبه تقديم الوعد برزقهم ، وخطاب الأغنياء ناسبه تقديم الوعد برزق الأبناء الذين يخشون أن يكونوا سببا في زوال أموالهم .[1]

---

[1] – ينظر : درة التنزيل ، ص :563 ، البرهان في متشابه القرآن ، ص :114 . كشف المعاني ، ص: 169 . ملاك التأويل : ج/1 ،ص :172 . مفاتيح الغيب ،ج/13، ص:178. التحرير والتنوير،ج/8،ص:158. التعبير القرآني للسامرائي ، ص:257.

هكذا تناول العلماء هاتين الآيتين ، ولكن هناك سؤالا يحتاج إلى إجابة ، وهو : لماذا جاء الخطاب في سورة الأنعام للفقراء ، وفي سورة الإسراء للأغنياء ؟. وبتعبير آخر : ما علاقة كل آية بالسورة التي وردت فيها ؟. ولبيان ذلك وجب أن ننظر إلى سياق كل آية .

والآيات التي توضح لنا سياق سورة الأنعام هي : قوله تعالى :﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ (136) وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (137) .﴾ وهذه الآيات تتحدث عن عادات العرب في الجاهلية واعتقاداتهم الباطلة ، وصرف الأموال في الباطل .

يقول ابن عطية : "سبب نزول هذه الآية أن العرب كانت تجعل من غلاّ تها وزرعها وثمارها ومن أنعامها جزءا تسميه لله وجزءا تسميه لأصنامها، وكانت عادتها التحفي والاهتبال بنصيب الأصنام أكثر منها بنصيب الله إذ كانوا يعتقدون أن الأصنام بها فقر وليس ذلك بالله فكانوا إذا جمعوا الزرع فهبت الريح فحملت من الذي لله إلى الذي لشركائهم أقروه،وإذا حملت من الذي لشركائهم إلى الله ردوه، وإذا تفجر من سقي ما جعلوا لله في نصيب شركائهم تركوه، وإن بالعكس سدوه،وإذا لم يصيبوا في نصيب شركائهم شيئا قالوا لا بد للآلهة من نفقة فيجعلون نصيب الله تعالى في ذلك. قال هذا المعنى ابن عباس ومجاهد والسدي وغيرهم أنهم كانوا يفعلون هذا ونحوه من الفعل وكذلك في الأنعام وكانوا إذا أصابتهم السنة أكلوا نصيب الله وتحاموا نصيب شركائهم..." [1] .

ومجمل هذا الكلام أن العرب كانوا يصرفون أموالا طائلة من أجل الأصنام ، ويجعلون لها من أقواتهم وأرزاقهم نصيبا ، وهو فعل باطل زينه لهم الشيطان ، خرب

---

[1] – تفسير ابن عطية : ج/2 ، ص :348.

به عقولهم ، فجعلهم يهلكون حرثهم ونسلهم ، يقول ابن كثير :و"قَدْ كَانُوا أَيْضًا يَقْتُلُونَ الأَوْلاَدَ مِنَ الإِمْلاَقِ وَالْفَقْرِ وَهُوَ: خَشْيَةَ الإِمْلاَقِ أَنْ يَحْصُلَ لَهُمْ فِي تأني الْمَالِ وَوَدْتَنَهَاهُمُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا كُلُّهُ مِنْ شَرْعِ الشَّيْطَانِ تَزْيِينُهُ لَهُمْ ذَلِكَ. "[1]

وتأتي آية أخرى أشد وضوحا وتأكيدا لما سبق قوله تعالى:﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ 140. يقول ابن كثير : "يَقُولُ تَعَالَى: خَسِرَ الَّذِينَ فَعَلُوا هَذِهِ الأَفْعَالَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَخَسِرُوا أَوْلاَدَهُمْ، وَضَيَّقُوا عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ، فَحَرَّمُوا أَشْيَاءَ ابْتَدَعُوهَا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ، وَأَمَّا فِي الآخِرَةِ فَيَصِيرُونَ إِلَى شَرِّ الْمَنَازِلِ بِكُفْرِهِمْ عَلَى اللَّهِ وَافْتِرَائِهِمْ. "[2]

فالواضح من سياق هذه الآيات أنها تعالج خطايا العرب في اعتقادتهم الباطلة وتصوراتهم الفاسدة لمقام الألوهية ، وتصرفاتهم السيئة في الأموال ، وتحريم ما أحل الله لهم من رزق ، وسفك دماء ابنائهم ، فسورة الأنعام اهتمت بقضية الرزق من بداياتها ، قال تعالى ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾14. والبأس والفقر يدعو المؤمن للتضرع لله سبحانه وتعالى ، ولكن إذا كان الإنسان فاسد الفكر مشوه العقيدة ، مال إلى الإجرام وسوء الأفعال وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (43)﴾ ، ويقول سبحانه وتعالى للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ الآية : 50 ؛ إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على الاهتمام بقضية الرزق وعلاقتها

---

[1] – تفسير القرآن العظيم لابن كثير(774ه) ، ت: سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للتوزيع والنشر ، ط/2 ، 1420ه-1999م، ج/3 ، ص: 345.

[2] – نفس المصدر ، ج/3 ، ص :347.

بالعقيدة ، فالرازق والخالق هو الله ، فلا يجوز أن يسفك دم امرئ من أجل الرزق ، من أجل ذلك جاءت الوصايا في آخر سورة الأنعام تعالج هاته القضية بهذا الشكل ، فناسب ذكر النهي عن قتل الأولاد بسبب الفقر .

وأما سورة الإسراء فسياقها يدل على أن الخطاب لأصحاب الأموال ، بدليل الإرشاد إلى أداء حق المال ، والنهي عن تبذيره أو البخل به ، قال تعالى : ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (26) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (27).﴾ . وقال أيضا ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (29) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (30).﴾ وبعد هذه الآيات جاء الخطاب للأغنياء (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) ، فالغني يتوقع الفقر ويخشاه ، وربما بذل كل طاقاته وحيله للمحافظة على مستواه المادي والمعنوي بين جماعته ، لذلك خاطب المولى سبحانه وتعالى هذه الطبقة ، ليطمئن كل ذي مال منهم، ولا يتورط في سفك دم أبنائه من أجل الأوهام والهواجس ، وحب المال ؛ فجاء الخطاب القرآني متناسبا مع سياقه ، الذي كشف لنا بدوره عن تفشي ظاهرة قتل الأولاد بين الأغنياء والفقراء ، إلا أن الفقير كانت علته الفقر ، والغني علته توهم الفقر ، فعالج القرآن الكريم هذه الظاهرة بخطاب كل طبقة ، وكشف بذلك زيف المبررات التي تعلل بها هؤلاء، والتي لا تصلح أن تكون سببا في ارتكاب جريمة قتل الأبناء .

1 . 3 . الإبدال بين أنواع مختلفة :

1 . 3 . 1 . الإبدال بين حروف النفي :

الابدال بين (لن ، ولا) :

قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (94) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) ﴾ . فنفى تمنيهم الموت بقوله : (ولن يتمنوه).

وتكررت نفس الآية تقريبا في سورة الجمعة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (06) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (07) ﴾. فنفى في هذه الآية تمنيهم الموت بقوله : (ولا يتمنونه). فأبـــدل حرف النفي (لن) في الآية الثانية بـ(لا) ، فما هو السر البلاغي وراء ذلك ؟.

ذهب أكثر النحاة إلى أن (لن ، ولا) يخلصان المضارع للإستقبال ، إلا أن (لن) أبلغ من النفي بلا لتأكيد النفي كما ذكره الزمخشري وابن الخباز .. وقال بعضهم : تنفي المظنون بلن والمشكوك بلا وعلى الزمخشري أيضا أنها يلتأبيد النفي كقوله : لن يخلقوا ذبابا {وإن تفعلوا} ورد غيره بأنها لو نت للتأبيد لم يقيد منفيها باليوم في {أكلم اليوم إنسيا} وكان ذكر الأبد في {لن يتمنوه أبدا} الأصل عدمه واستفادة التأبيد في {لن يخلقوا ذبابا} نحوه من خارج .

وعكس ابن الزملكاني مقالة الزمخشري فقال : لنفي ما قرب وعدم امتداد النفي ولا يمتد معنى النفي ، قلت سر ذلك أن الألفاظ مشاكلة للمعاني و(لا) ها الألف والألف يمكن امتداد الصوت بها بخلاف النون فطابق كل لفظ معناه.

قال وذلك أنه لن يرد به النفي مطلقا بل في الدنيا حيث قال : إن

تَرَانِي}وَلَا فِي قَوْلِهِ: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ} نَفْيُ الْإِدْرَاكِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَهُوَ مُغَايِرٌ لِلرُّؤْيَةِ."[1]

ومعظم المتأخرين، على أن (لا) تخلص المضارع للاستقبال. وهو ظاهر مذهب سيبويه. وذهب الأخفش، والمبرد، وتبعهما ابن مالك، إلى أن ذلك غير لازم، بل قد يكون المنفي بها للحال.[2]

ويلخص السامرائي آراء النحاة في النفي ب(لن ، ولا) ، معتمدا في ذلك على الإستعمال القرآني ، وهو المرجع الذي يجب أن يحتكم اليه في قضايا العربية.

يقول : " والحق الذي لا مرية فيه، أن (لا) تأتي للإستقبال ، وليست من مخلصات الفعل للمستقبل كما يذهب إليه الجمهور ، يدل على ذلك الإستعمال الفصيح الكثير في القرآن الكريم وغيره ." ومن الأمثلة التي ساقها " قوله تعالى : (صم بكم عمي فهم لا يعقلون) ، وقوله ايضا : (والله يعلم وانتم لاتعلمون) ،... وغير ذلك مما لايدع مجالا للشك في أنها تأتي للحال ... والحق أنها – لا- تنفي الفعل المضارع مطلقا بكل أزمانه ، الحال ، والإستقبال ، المنقطع وغيره ، فالحال نحو :(ما لي لا ارى الهدهد)، والاستقبال نحو:(ولايكلمهم الله يوم القيامة).

والمنقطع : نحو: (ءايتك الا تكلم الناس ثلاثة ايام الا رمزا). والمستمر نحو: قوله تعالى : (فلا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون) ، وما الى ذلك.

فالخلاصة أن (لا) تنفي كل أزمنة المضارع ، فهي لا تختص بزمن دون زمن ... ولكن مما لاشك فيه أن النفي ب(لا) أوسع من النفي ب(لن) ... فإن (لن) مختصة بالإستقبال ، أما (لا) فنفيها عام مطلق ينفي جميع الأزمنة ، المستقبل وغيره ، بل هي تنفي الفعل الماضي أيضا ، نحو قوله تعالى : (فلا صدق ولاصلى)... فهي كما ترى أوسع نفيا من (لن)."[3]

---

[1] – الإتقان في علوم القرآن ج/2 ، ص : 279.

[2] – الجنى الداني في حروف المعاني : ص :296.

[3]- معاني النحو، محمد فاضل السامرائي ، دار إحياء التراث العربي ،بيروت ، ط/1، 2007م، ج/3 ، ص (310 ، 318).

وبالعودة إلى الآيتين سيتضح لنا صحة ما ذهب إليه السامرائي ، وقبل ذلك نسوق كلام الفخر الرازي في معنى الآيتين ، لبيان ما اتفق عليه العلماء من توجيه ، يقول رحمه الله : " قُلْ إِنَّهُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ـ البَقَرَة ـ أَنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ خَالِصَةٌ لَهُمْ مِنْ دُونِ النَّاسِ، وَفِي سُورَةِ الْجُمُعَةِ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ، وَاللَّهُ تَعَالَى بَيَّنَ هَذَيْنِ الأَمْرَيْنِ بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَوَجَبَ أَنْ يَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ ، وَالدَّعْوَى الأُولَى أَعْظَمُ مِنَ الثَّانِيَةِ السَّعَادَةُ الْقُصْوَى هِيَ الْحُصُولُ فِي دَارِ ، وَأَمَّا مَرْتَبَةُ الْوَلاَيَةِ فَهِيَ وَإِنْ كَانَتْ شَرِيفَةً إِلاَّ أَنَّهَا إِنَّمَا تُرَادُ لِيُتَوَسَّلَ بِهَا إِلَى الْجَنَّةِ فَلَمَّا كَانَتِ الدَّعْوَةُ الأُولَى أَعْظَمَ بَيَّنَ تَعَالَى فَسَادَ قَوْلِهِمْ بِلَفْظٍ : (لَنْ) لأَنَّهُ أَقْوَى الأَلْفَاظِ لِلنَّافِيَةِ، الدَّعْوَى الثَّانِيَةُ لَيْسَتْ فِي غَايَةِ الْعَظَمَةِ لاَ جَرَمَ اكْتَفَى فِي إِبْطَالِهَا بِلَفْظِ (لاَ) نَّهُ لَيْسَ نَفْيُهُ فِي قُوَّةِ نَفْيِ إِفَادَةِ مَعْنَى النَّفْيِ وَاللَّهُ أعلم. " [1]

وعلى هذا النحو وجه هذه الآيات الخطيب ، والكرماني ، وابن جماعة ، وابن الزبير ، وغيرهم من المفسرين كابن عطية ، وابن عاشور، " وروى كثير من المفسرين أن الله تعالى جعل هذه الآية معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم فيهم، وآية باهرة، وأعلمه أنه إن تمنى أحد منهم الموت في أيام معدودة مات وفارق الدنيا، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تمنوا الموت» على جهة التعجيز وإظهار الآية، فما تمناه أحد خوفا من الموت، وثقة بصدق محمد صلى الله عليه وسلم."[2]

وهكذا نلاحظ أن توجيه الرازي ومعظم العلماء ارتكز على فهم السياق الذي وردت فيه كل آية ، حيث أن السياق في سورة البقرة خصص في معظمه للحديث عن أخلاق بني اسرائيل وتاريخهم الطويل في الظلم والتحريف وقتل الانبياء ، وتلاعبهم بعقول الناس وأفكارهم ، وكفرهم بنعم الله المتتالية عليهم ، فمن الآية :40 إلى الآية :146 ، أي 106 آيات متواصلة تناولت سيرتهم الطويلة في الفسوق والعصيان ، ومخالفة الرسل وتحريف الكتب ، وغير ذلك مما قدمت ايديهم من ظلم

---

[1] – مفاتيح الغيب : ج/3 ، ص :608.

[2] – تفسير ابن عطية : ج/5 ، ص:308.

وعدوان ، ونبه القرآن الكريم كذلك وبإسهاب الى معتقداتهم الفاسدة ، واغترارهم بأنفسهم ، وزعمهم أنهم أصفياء الله ، وأن الجنة خالصة لهم لا يدخلها إلا من كان يهوديا أو نصرانيا، وأنهم لا يعذبون الا اياما معدودة ، وبعدها يتفردون بالنعيم المقيم ، وبقية البشر في الجحيم والعذاب الأليم ، هذه الإدعاءات قوبلت بامتحان ، أرعد فرائصهم ، وزلزل يقينهم ، وأدحض حجتهم ، هذا الإمتحان هو تمني الموت (قل ان كانت لكم الدار الآخرة ،

بَيْنَ الشَّرْطِ وَجَوَابِهِ أَنَّ الْمَوْتَ رُجُوعُ الإِنْسَانِ بِرُوحِهِ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ تَظْهَرُ فِيهَا آثَار رضى اللَّهِ عَنِ الْعَبْدِ أَوْ ضِدِّهِ لِيَجْزِيَهُ عَلَى حَسَبِ فِعْلِهِ.

وَالنَّتِيجَةُ الْحَاصِلَةُ مِنْ هَذَا الشَّرْطِ تُحَصِّلُ أَنَّهُمْ مِثْلُ جَمِيعِ النَّاسِ فِي الْحَيَاتَيْنِ وَالآخِرَةِ وَآثَارِهِمَا، وَاخْتِلاَفِ أَحْوَالِ أَهْلِهِمَا، فَيُعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا أَفْضَلَ مِنَ النَّاسِ، هَذَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى قَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ﴾المَائِدَة: 18 .[1]

" ولما كانت دعواهم أن الدار الآخرة لهم خاصة: أكد نفى ذلك ب (لن) لأنها أبلغ في النفى من (لا) لظهورها في الاستغراق. وفى الجمعة: ادعوا ولاية الله، ولا يلزم من الولاية لله اختصاصهم بثواب الله وجنته فأتى ب (لا) النافية للولاية. وكلاهما مؤكد بالتأبيد، لكن في البقرة أبلغ ، ... فناسب حرف المبالغة فى النفى لتمنيهم الموت ، لما يعلمون ما لهم بعده من العذاب، لأن (لن) أبلغ في النفى عند كثير من أئمة العربية، وآية الجمعة لم يتقدمها ذلك، جاءت ب (لا) الدالة على مطلق النفى من غير مبالغة. "[2]

والخلاصة : أن التعبير بـ (لن) جاء لإبطال ادعائهم المتعلق بأمر الآخرة ، " وهي استقبال ، فنفي بـ(لن)وهو حرف خاص بالإستقبال ، وإن الكلام في الثانية عام

---

[1] – التحرير والتنوير : ج/28 ، ص : 216.

[2] - كشف المعاني : ص :103.

لا يختص بزمن دون زمن (إن زعمتم) فهذا أمر مطلق ، فنفي بـ(لا) وهو الحرف الذي يفيد الإطلاق والعموم . " [1]

[1] – معاني النحو : ج/3 ، ص : 319.

الابدال بين (إن ، وما) النافيتين :

قال تعالى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ الأنعام:29.

وقال في موضع آخر: ﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ الجاثية :24.

وقع الإبدال في الآيتين بين حرفي النفي (إن ، وما) ، وهما حرفان يدخلان على الجملة الإسمية والفعلية ، فإن دخلا على الجمل الإسمية كانا لنفي الحال عند النحاة. وقد يكونان لغير الحال ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها ﴾، ومن ذلك أيضا قوله سبحانه :﴿ وماهم بخارجين من النار ﴾، ففي هذين المثالين جاءا للإستقبال ، وقد يكونان للإستمرار ، ومنه قوله تعالى :﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾، وقوله :﴿ وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾ والظاهر أنهما يتفقان في أغلب وجوه الإستعمال ، إلا أن (إن) تستعمل في زيادة تأكيد النفي .

ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى : على لسان النسوة في سورة يوسف : ﴿ ماهذا بشرا ﴾ الآية :31. فنفى مرة بـ(ما) ومرة بـ(إن) ، ولما أريد إثبات الصورة الملكية ليوسف ، وهو أمر يحتاج إلى توكيد في النفي والإثبات قال : (إن هذا الا ملك كريم) ، ومنه أيضا : قوله تعالى : ﴿ماهن أمهاتهم ﴾، فإنه لما أراد الإنكار على هؤلاء المظاهرين من الرجال ، وأراد أن يرجعهم الى حقيقة كأنهم جهلوها قال منكرا عليهم: ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ ﴾. المجادلة :2.[1]

وقد تناول النحاة في باب الحروف المشبهات بـ(ليس) ، مسألة النفي بـ(ما) و(إن) وذكروا شروط النفي بهما ، ولكن من الناحية المعنوية اعتبروهما شيئا واحدا كما يذكر شراح الألفية وغيرهم كالسيوطي في همع الهوامع، أما من الناحية البلاغية

---

[1] – ينظر: معاني النحو، ج/1 ، ص:235.

فنجد أن عبد القاهر تناول كعادته الفرق بين استعمال (إنما) و(ما) ، و(إن) في الإثبات والنفي ؛ ولا يظهر من خلال تحليله لمسائل النفي والإثبات ، أنه يفرق بين (ما،وإن) ؛ أما المفسرون فكثير منهم من يعتبر المعنى فيهما واحد ، وهذا ابن عاشور يذكـــر في تفسيره في عدة مواطن ، أن (ما) تعني (إن) ، ولكن الفـــرق بينهما في شيـوع الإستعمال ، فاستعمال (ما) أكثر وأشهر من استعمال (إن) ، وهذا ما يضعنا أمام ظاهرة عصية على الإحاطة بها والوقوف على أبعادها المعنوية ، ومع ذلك وجـدنا في العلماء المعاصرين من وقف وقفة تأملية لكتاب الله عز وجل ، وحاول استقـراء الفروق المعنوية بين(ما ، وان)، وهوالدكتور فاضل صالح السامرائي. وسنذكره آراءه بعد قليل.

وقد تناول عبد القاهر الجرجاني في أبواب الخبر مسألة النفي والإثبات ، باستعمال التركيبات التالية : (إنما هذا فلان ، وما هذا إلا فلان ، وإن هذا إلا فلان) . وقرر أن ذلك يخضع لحال المخاطب ، فالخبر إما أن يقدم لمخاطب خالي الذهن ، أو لجاهل منكر ، أو من ينزل منزلته ، واستدل لذلك بقوله :

"أنكَ تقولُ للرجل: "إنما هو أخوك" وإنّما هُوَ صاحبُك القديمُ":لا تقولُه لِمَنْ يَجْهلُ ذلك ويدفَعُ صحَّتَه، ولكنْ لمَن يَعْلَمُه ويُقِرُّ به، إلاَّ أنَّك تُريد أن تُنَبِّهَهُ للذي يجبُ عليه من حقِّ، الأخِ وحُرْمةِ الصاحبِ ...وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو: "ما هذا إلا كـذا" و "إن هو إلا كذا"، فيكون للأمرِ يُنْكِرهُ المخاطَبُ ويَشُكُّ فيه.فإذا قلتَ : "ما هو إلاَّ مُصيبٌ" أو: "ما هو إلا مخطئ"، قلتَه لمنيدفَعُ أن يكونَ الأمْرُ على ما قلت، وإذا رأيتَ شخصاً مِنْ بعيدٍ فقلتَ : "ما هو إلا زيدٌ"، لم تَقُلْه إلا وصاحِبُك يَتوهَّمُه ليس بزيدٍ ، وأنه إنسانٌ آخرُ ، ويجدُّ في الإنكارِ أن يكون "زيداً".

وإذا كان الأمرُ ظاهراً كالذي مضَى، لم تَقُلْه كذلك، فلا تقـول للرجل ترققه على أخيهِ وتُنَبِّهُهُ للذي يَجب عليه منْ صِلة الرَّحِم ومنْ حُسْن التحابِّ : "ما هُـوَ إلا أخوك"...

وجملةُ الأمرِ أنك متى رأيتَ شيئاً هُوَ مِن المَعْلوم الذي لا يُشَكُّ فيه قد جاء بالنَّفي، فذلك لتقديرِ معنًى صارَ بهِفي حُكْم المشكوكِ فيه.[1]

وقد وردت (إن) النافية في القرآن الكريم مقترنة ب(إلا) في أغلب المواضع في القرآن الكريم ، قال الراغب فيها : " وأكثر ما يجيء يتعقبه (إلا) نحو: ﴿إن نظنُ إلا ظنا﴾ الجاثية :32.﴿إن هذا إلا قول البشر﴾ المدثر:25.﴿إن نقولُ إلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ﴾ هود: 54.[2]

أما (ما) فليست مثلها ، فاقترانها جاء غالبا ب(من) مثل قوله تعالى :﴿ومامسنا من لغوب ﴾ ق:38. " والظاهرة الجديرة بالتسجيل أنه لا ينافس (ما) في اقتران منفيها ب(من) إلا (إن) النافية ". فالنفي ب(إن) آكد من النفي ب(ما) ، ومما يدل على ذلك قوله تعالى : (ماهي الاحياتنا الدنيا...) في الجاثية ، وقوله في سورة المؤمنين : (إن هي الا حياتنا الدنيا ...) .

01- فقد أسند التكذيب والإنكار في الآية الأولى الى ضمير الكفرة (وقالوا) وأما في الثانية فقد أسنده الى الكفرة صراحة ، مضفيا عليهم صفات تزيد في تكذيبهم وإنكارهم (الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم ...).

02- المجادلة في صدق الرسل : فقد ذكر هؤلاء الكفرة أن الرسل إنما هم بشر مثلهم يأكلون كما يأكل الناس ، ويشربون كما يشربون ، فلا ينبغي أن يطاعوا البتة .

03- السخرية من الوعد بالحياة الاخرة (أيعدكم...).

04- الاستبعاد المؤكد في قولهم (هيهات) .

05- ثم ختموا تكذيبهم وإنكارهم بقولهم :(ان هو الارجل افترى على الله)

---

[1] – دلائل الإعجاز، ص :334.

[2] مفردات القرآن : ص:30

فكان طبيعيا أن يكون إنكارهم أشد وآكد مما في الآية الأولى ، ولذا جاء بإن وإلا وهو المناسب للسياق ، بخلاف الآية الأخرى ، فإنه جاء ب(ما) و(إلا) لأنه أقل توكيدا ، فدل ذلك على أن (إن) آكد من (ما).[1]

وأما آية الأنعام : فلا تختلف عن آية المؤمنين إلا بزيادة (قالوا) قبل (إن هي) ، وسياقها كذلك يؤكد على أن التأكيد فيها أبلغ من آية الجاثية .

فسياق سورة الانعام: يتحدث عن الكافرين يوم القيامة ، حين يعاين كل أحد هول الحساب ، عندها يقر الجاحدون بما أنكروه قبل ذلك من البعث والحساب ، ويتمنون الرجوع الى الدنيا لاصلاح اعمالهم والتصديق بما جاءهم من عند الله ، فيخبر الله عن أحوالهم افتراضا ، أنهم لو ردوا الى الدينا لرجعوا الي ما نهوا عنه وكذبوا بالحق ، والبعث. فالسياق سياق إخبار عن حالهم .

وأماسياق سورة الجاثية ، فيتحدث عن المنكرين للبعث ، فبدأ بذكر نفي التساوي بين المؤمن والكافر في الحياة وبعد الممات ، وأن الله سبحانه خلق السموات والارض بالحق ، وليكون الحق والعدل عاما ، ينال المحسن جزاء ما احسن والمسيء جزاء ما كسب دون ظلم او هضم لحق ، ولكن هذه الحقيقة ينكرها الكافرون ويجادلون حولها رغم وضوح الدلائل والبراهين عليها ، والسبب في نكرانهم : ضلالهم واختم على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، واتباع أهوائهم التي دفعتهم للقول : بأن لا بعث ولا نشور ، بل الحياة واحدة ، والموت واحدة ، وقولهم : هلاك الأنفس مرده إلى الدهر، قولا بلا علم ولا يقين ، وإذا تليت عليهم الآيات التي فيه الدلائل البينات على البعث والنشور ، حاجوا في ذلك وطلبوا دليلا حسيا وهو بعث آبائهم وإحيائهم من جديد حتى يشاهدوا عملية البعث بأعينهم ؛ فأعرض المولى عنهم واستمر في ذكر البعث والحساب وكيفية مجازاة الناس على أعمالهم.

---

[1] – معاني النحو،ج/4 ، ص : 173/172.

وسياق سورة المؤمنون سياق يتحدث عن مجادلة الكافرين في قضية الرسل كما مر سابقا.

وبذلك يتضح أن سياق سورة الأنعام وسورة المؤمنين أطول وأشد من سياق سورة الجاثية ، لذلك جاء التعبير ب(إن) ، في السياق الأطول بسطا في ذكر الكفرة وعنادهم ، وأبدلت (إن) بـ(ما) في السياق الموجز، والأقل بسطا ، فناسب كل حرف آيته وسورته التي ورد فيها ، في إحكام وترابط وانسجام.

1 . 3 . 2 . الابدال بين حرفي الإستقبال (سوف ، والسين):

ورد ذلك في قوله تعالى ﴿كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾الأنعام:5. وقوله سبحانه فقد﴿كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ الشعراء :6.

فمن خلال النظر إلى طول الآية وقصرها نلاحظ أن الآية الأولى أطول من الثانية بزيادة (بالحق لما جاءهم) وزيادة (الواو والفاء) على السين ، فناسب الطول الطول والإيجاز الإيجاز ، هذا الوجه من المناسبة ذكره الخطيب الاسكافي[1] ، واعتبر أن المعنى في الآية الأولى أخذ حقه من اللفظ ، وفي الثانية اعتمد فيها الإيجاز. وهذا الرأي هو رأي الكرماني كذلك [2].

أما ابن جماعة فيضيف بعدا آخر في الإستدلال على التعبير ب(السين) في سورة الشعراء ، فهو يرى أن المكذب به في سورة الشعراء يعني (القرآن) لذلك عبر بالسين التي هي أقرب ، أما المكذب به في سورة الأنعام فهو الآيات المتتالية عبر تاريخ الرسل ، فناسب التعبير بسوف ، التي هي أبعد [3].

ونلاحظ هنا أن ابن جماعة ربط بين حرفي الإستقبال وبين الماضي القريب والبعيد لزمن توالي الآيات ، أي أنه جعل لمعنى الزمن في (السين وسوف) أثرا قبليا عكس ما هو معروف من أثر حروف المعاني في ما يليها ، وهذا وجه يقبل في باب ذكر المناسبات ، لأن المناسبة في حقيقتها هي البحث عن الروابط القبلية والبعدية للآيات .

وقبل أن نتحدث عن رأي ابن الزبير وغيره من العلماء يجب أن نستعرض سياق الآيتين من أول السورة .

---

[1] – ينظر: درة التنزيل ، ص:478.

[2] – ينظر: البرهان في متشابه القرآن ، ص :104.

[3] – ينظر : كشف المعاني ، ص :155/154.

فآية الأنعام سياقها : قوله تعالى :﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (2) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (3) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (4) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (5) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (6) ﴾ .

وسياق آية الشعراء قوله سبحانه : ﴿ طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (4) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (6) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7)﴾.

فابن الزبير الغرناطي يرى أن سياق سورة الانعام بدأ بالإطناب والبسط ، أي : افتتحت السورة بذكر حمد الله وتفرده بالخلق والإختراع ، وذكر خلق الإنسان من طين ، فلما تقدم هذا الإطناب ناسبه ما اتبع به من قوله تعالى :﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ، فناسب الإطناب الإطناب .

وأما سورة الشعراء فسياقها سياق إيجاز ، بدأ بذكر القرآن المبين ، وانتقل إلى مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم وتسليته ، مردفا ذلك بتوعد المعرضين وتهديدهم ، وأكد سرعة العقاب وحضوره ، بالتعبير بالسين التي تنذر بقرب الوعيد من المكذبين ، زيادة في تسلية النبي صلى الله عليه وسلم ، فناسب ابدال سوف بالسين سياق الآية وأغراضها.[1]

---

[1] – ينظر: ملاك التأويل ، ج/1 ، ص : 140

والملاحظ في توجيه ابن الزبير أنه جاء مماثلا لما ذكره الإسكافي والكرماني ، بزيادة الربط بالسياق، وكلهم نظروا الى طول الآية وقصرها وربطوه بطول الزمن وقصره في حرفي الإستقبال (سوف ، والسين).

وعلى هذا النحو سار الدكتور فاضل السامرائي ، إلا أنه وسع أوجه الترابط السياقي بين كل حرف والسورة التي ورد فيها ، وسنختصر ما قاله لأن فيه نوعا من الطول.

نظر السامرائي أولا إلى لفظة (الحق) في آية الأنعام، فإنه تردّد في هذه السورة (12) مرة ولم ترد هذه اللفظة في سورة الشعراء فناسب ذكرها في آية الأنعام دون آية الشعراء إذ هو المناسب للجو التعبيري في هذه السورة.

ونظر ثانيا إلى المدة الزمنية لكل من (سوف ، والسين) فقرر أن سوف تفيد تأخير العقوبات إلى زمن أبعد مما في الشعراء وذلك أن (سوف) أبعد في الإستقبال من السين.

ولوضع كل من(سوف والسين) موضعهما عدة أسباب منها:

1- أن المخاطبين في سورة الشعراء هم قوم الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة ؛ وأما في سورة الأنعام فالخطاب لعموم الكافرين ، فناسب ذلك تعجيل الوعيد لمن هم أقرب إليه من الكفار الذين حاربوا الرسول وكذبوه ، قبل الأباعد الذين لم تبلغهم الدعوة بعد. علاوة على ما في الشعراء من تسلية للرسول، فقد قال له: لعلك تقتل نفسك لعدم إيمانهم فَهَوِّنْ عليك الأمر، فناسب كل ذلك تعجيل التهديد والوعيد وليس الأمر كذلك في سورة الأنعام.

2- ذكر في سورة الشعراء الأقوام الذين كذبوا أنبياءهم وعقوباتهم في الدنيا فناسب ذلك مجيء السين إشعاراً بتعجيل العقوبة لهؤلاء القوم كما عجل للأقوام البائدة بخلاف ما في الأنعام إذ ليس فيها شيء من ذلك.

3- ثم إن سورة الأنعام مبنية على تأخير الوعيد والعقوبات بخلاف سورة الشعراء:

أ- فقد أمر الرسول في الأنعام أن يقول إنه ليس عنده ما يستعجلون به من قُلْ إِنِّي {على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ} [الأنعام: 57] قُل {أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأمر بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ والله أَعْلَمُ بالظالمين} [الأنعام: 58] . فناسب عدم الإستعجال ذكر (سوف) هنا.

ب- ورد في الأنعام قوله تعالى {قُلْ ياقوم اعملوا على مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عاقبة الدار} [الأنعام: 135] فذكر (سوف) ولم يذكر السين وهو الملائم للجو العام للسورة.

ج- ثم انظر كيف قال في موطن آخر في سورة الأنعام: {كَتَبَ على نَفْسِهِ الرحمة لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ القيامة لاَ رَيْبَ فِيهِ} [الأنعام: 12] فقد ذكر أنه كتب على نفسه الرحمة، وهذا ينافي تعجيل العقوبة، ثم قال: (ليجمعنكم إلى يوم القيامة) . وهذا يفيد تأخير العقوبة إلى يوم القيامة. فناسب ذلك كله وضع (سوف) دون السين في الأنعام.

د- قال في ختام سورة الأنعام: {إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العقاب وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [الأنعام: 165] .فلم يؤكد سرعة العقاب كما أكد المغفرة والرحمة، فقد أكدهما بإنّ واللام، وأكد سرعة العقاب بإنّ وحدها .

هـ- ثم انظر كيف قال تعالى في مكان آخر من سورة الأنعام: {قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض ثُمَّ انظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المكذبين} [الأنعام: 11] فقد جاء بـ (ثم) الدالة على التراخي والبعد بخلاف قوله تعالى في سورة أخرى: {قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض فانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المجرمين} [النمل: 69] فقد جاء فيها بالفاء الدالة على التعقيب...و لقد تبين من كل ذلك أن سورة الأنعام مبنية على تأخير العقوبات والوعيد، فناسب ذلك ذكر (سوف) فيها بخلاف آية الشعراء.[1]

وما ذكره السامرائي من توجيه ، هو التوجيه العام الذي يفرض نفسه ،لأن الإنطلاقة محددة مسبقا ، وهي البحث عن ما مدى ارتباط التعبير بسوف والسين

---

[1] – التعبير القرآني ، من الصفحة :185 ، إلى ص:188.

بجو السورة اللتين وردا فيها ، لكن نلاحظ أن الأدلة التي ساقها غامضة في بعض الأحيان ، وتحتاج من الدارس أن يطلع على السورتين كليهما ليتبين له الكثير مما ساقه من أدلة ، ومن أجل ذلك يرى الباحث أن هناك تعليلات أخرى أجدر بالذكر والوقوف عندها ، وهي قريبة من سياق الآيتين ، وهي كالتالي :

01- فسياق سورة الأنعام ، بدأ فيه الخطاب بالحمد ، وذكر بدائع الخلق ، من سماوات وأرض ، ونور وظلمة ، وذكر بعد ذلك خلق الإنسان ، وأن الله حد له أجلا " أجل الموت. وأجل مسمى عنده اجل القيامه. وقيل الأول ما بين الخلق والموت، والثاني ما بين الموت والبعث، فإن الأجل كما يطلق لآخر المدة يطلق لجملتها. وقيل الأول النوم والثاني الموت. وقيل الأول لمن مضى والثاني لمن بقي ولمن يأتي"[1] .

وأعقب الحديث عن الأجل ، الحديث عن علم الله بتفاصيل حياة الناس سرا وجهرا وكسبا ، فالحديث عن الدنيا ناسبه ذكر يوم الحساب والجزاء ، فجاء التعبير بـ(سوف) في مقام ذكر التقابل بين الدنيا والآخرة ، وللفصل بينهما في الزمن . وأما سورة الشعراء فلم يأت في سياقها الحديث عن الآخرة ، بل الحديث كان على العقوبات الدنيوية (إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية)؛ وقد تكرر في سورة الشعراء ذكر الأنبياء وأقوامهم والعقوبات التي حلت بهم في الدنيا ، كإغراق قوم نوح وموسى ، والصيحة والعذاب بقوم هود ولوط وشعيب ...الخ. فناسب هذا المقام التعبير بـ(السين)لأنه في ذكر العقوبات الدنيوية التي حلت بالمستهزئين بالرسل ، والتي كانت عاجلة لا آجلة ؛ إلا أن الله سبحانه وتعالى إكراما للنبي صلى الله عليه وسلم ، رحم قومه ولم يعاقبهم كغيرهم ، ولوشاء لفعل ؛ قال تعالى : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ الأنفال:33.

02- وإذا تأملنا قضية التكذيب في السورتين نجد أن التكذيب في سورة الشعراء رُد عليه بالعقوبات المباشرة ، مثل ما وقع لقوم نوح حين :﴿ قالَ ربِّ إنَّ

---

[1] . أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ناصر الدين البيضاوي (685ه) ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ط/1 ، 1418ه. ج/2 ، ص :153.

قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (119) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (120)﴾ ، وقال الله في قوم هود :﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ الآية :139. وقال الله في أصحاب مدين :﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾الآية: 189.

وبالنظر الى سورة الأنعام نجد آية واضحة ذكرت في مقام التكذيب، تبين أن الخطاب فيها اتسم بالرحمة و تأجيل العقوبة ، قال تعالى : ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الأنعام:147. هذه الآية صريحة في أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يواجه المكذبين بخطاب الرحمة والسعة ، لا بخطاب التهديد بالعقوبة ، وهي في غاية التناسب مع خطاب الله في بداية السورة حين قال: (فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف ياتيهم)، فسمات الخطاب القرآني في السورة جاء متناسقا في أسلوب الدعوة ومواجهة المستهزئين ، ومبينا رحمة النبي صلى الله عليهم وسلم بأمته ورفقه في دعوته .

ويضاف الى هذه المعاني ما ذكره العلماء من قبل ، من أن سورة الأنعام كثر فيها استعمال حرف (ثم) الذي يدل على التراخي ، فجاء الجو العام للسورة مرتبطا بعضه ببعض ، في كلماته وحروفه وآياته ، وهذا ما يؤكد لنا أحقية التعبير بـ(سوف) في سورة الأنعام ، وأن إبدال (سوف بالسين) في سورة الشعراء جاء متسقا في موضعه ،محققا بذلك بلاغة عالية ، وإعجازا بيِّنا ، يتأكد مرة بعد مرة ، في صور الإبدال في القرآن الكريم ، وغيره من فروع الإعجاز.

2 . الفصل الثاني : الأثر البلاغي للإبدال في باب الأسماء .

2 . 1 . – الإبدال في الأسماء :

تمهيد :

بعد أن تعرضنا لبعض وجوه الإبدال بين حروف المعاني ، نتاول في هذا الفصل الأسماء بأنواعها المختلفة ، للبحث عن وجوه الإبدال بينها في القرآن الكريم .

و الإسم في اللغة : مشتق من الوسم (العلامة) ، وقيل مشتق من السمو (العلو) ؛ يقول مرتضى الزبيدي (1205ه) : "الاسْمُ والسِّمَةُ تُوضَعُ على الشيءِ يُعْرَفُ بِهِ)وقالَ الراغبُ (مَا يُعْرَفُ بِهِ ذاتُ الشيءِ وأَصْلُه سِمْوٌ بِدَلالةِ قَوْلهم أَسْماء وسُمَيّ، وأَصْلُه مِن السُّمُوّ، وَهُوَ الذِي بِهِ رُفِعَ ذِكْر المُسَمّى فيُعْرَفُ بِهِ). ..قَالَ ابنُ سِيدَه الاسْمُ هُوَ اللفْظُ المَوْضوعُ للجَوْهَرِ أَو العَرَضِ للتَّمييزِ،)أَي ليفْصلَ بِهِ بعضَه عَن بعضٍ وَقَالَ أَبو إِسْحق: إِنما جُعِلَ الاسْمُ تَنْويهاً بالدَّلالةِ على المَعْنى لأَنَّ المَعْنى تَحْت الاِسْم)... " [1]

نستنبط من خلال هذه التعريفات المعاني التالية : (العلامة ، المعرفة ، التمييز ، الدلالة) ، والموجودات قسمان ذوات ومعاني ، ولكي نتعرف إلى هذه الموجودات ونميزها عن بعضها ، وُضِعت الأسماء ؛ فالإسم إذا هو : العلامة الموضوعة للدلالة على الذوات كـ(الرجل ، والجمل ، والجبل) أو المعاني كـ (العلم ، والجهل ، والوفاء) ، قصد التعريف بها وتمييزها عن غيرها .

وأما تعريف الإسم في الإصطلاح : فهو أحد أقسام الكلام الثلاثة (الإسم ، الفعل ، الحرف) ، وعرف بأنه " لفظ دال على معنى في نفسه ولم يقترن بزمن " ويضع النحاة تحت هذا القسم علامات تحدد اسمية الكلمة ، كـ : الجر ، والتنوين ،

---

[1] – تاج العروس محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي ، ت : عبد الستار أحمد فراج ، وزارة الإرشاد والأنباء الكويتية ، 1965م ، ج/38 ، ص :306.

والنداء ، وأل التعريف ، والإضافة ، والإسناد ، وبهذا الإعتبار لا فرق بين المصدر ، ولا الصفات الدالة على الفاعل أو المفعول ، أو المشبهة باسم الفاعل ، أو ما كان مدلولها للتكثير والمبالغة أو التفضيل ، لأن جميعها يقبل علامات الإسم ؛ وعلى هذا الإعتبار جرت خطة هذا الفصل من هذه الدراسة .

وقد قسم العلماء الإسم (**من حيث الدلالة على مساه**) إلى خمسة أقسام ، هي :

الأول: الإسم المعين، وهو الذي يسمي طائفة من المسميات الواقعة في نطاق التجربة؛ كالأعلام وكالأجسام والأعراض المختلفة.

الثاني: اسم الحدث ، وهو يصدق على المصدر واسم المصدر واسم المرة واسم الهيئة، وهي جميعًا ذات طابع واحد في دلالتها، إما على الحدث أو عدده أو نوعه، فهذه الأسماء الأربعة تدل على المصدرية وتدخل تحت عنوان اسم المعنى.

الثالث: اسم الجنس، ويدخل تحته أيضًا اسم الجنس الجمعي؛ كعرب وترك ونبق وبجع، واسم الجمع كإبل ونساء.

الرابع: مجموعة من الأسماء ذات الصيغ المشتقة المبدوءة بالميم الزائدة، وهي اسم الزمان واسم المكان واسم الآلة.

الخامس: الاسم المُبْهَم، ويقصد به طائفة من الأسماء التي لا تدل على معين؛ إذ تدل عادة على الجهات والأوقات والموازين والمكاييل والمقاييس والأعداد ونحوها، وتحتاج عند إرادة تعيين مقصودها إلى وصف أو إضافة أو تمييز أو غير ذلك من طرق التضام.[1]

وأما (من حيث الدلالة على الصفة) الاسمُ على ضربين موصوفٍ وصفة:

فالاسمُ الموصوفُ :ما دلَّ على ذات الشيء وحقيقتهِ. **وهو موضوعٌ لتُحملَ** عليه الصفةُ كرجل وبحرٍ وعلمٍ **وجهلٍ** ومنه المصدر واسما الزمانِ والمكان واسمُ الآلة.

---

[1] – ينظر : اللغة العربية معناها ومبناها ، للدكتور تمام حسان ، دار الثقافة ، المغرب 1994، ص : 91/90.

وهو قسمان اسمُ عينٍ ، واسمُ معنىً :

فاسم العين ما دلَّ على معنى يقومُ بذاتهِ كفرسٍ وحجرٍ .

واسمُ المعنى ما دلَّ على معنى لا يقومُ بذاتـه، بل يقوم بغيره. ومعناه، إما وُجودي كالعلمِ والشجاعة والجُودِ وإما عَدَميٌّ كالجهلِ والجُبنِ والبُخل.

والاسمُ الصفةُ :ما دلَّ على صفة شيءٍ من الأعيان أو المعاني، وهو موضوعٌ ليُحمَلُ على ما يوصفُ به.

وهو سبعةُ أنواعٍ اسمُ الفاعلِ ، واسمُ المفعولِ ، والصفةُ المشبّهة، واسمُ التّفضيل، والمصدرُ الموصوفُ به، والاسمُ الجامدُالمتضمنُ معنى الصفةِ المشتقّةِ، والاسمُ المنسوب.[1]

وللتوسع في هذا الموضوع ينظر كتب النحو ، فالمجال هنا لا يسمح بالإسترسال في تفاصيل مسائل الفروق بين الأسماء والصفات ؛ وسنتاول في ما هو متاح لهذه الدراسة أهم وجوه الإبدال التي تندرج في باب الأسماء .

---

[1] – جامع الدروس العربية ، ج/1 ، ص :98.

2 . 1 . 1 . الإبدال في أسماء الله الحسنى .

من وجوه الإبدال في القرآن الكريم ، الإبدال بين أسماء الله الحسنى ، كالعليم ، والعزيز ، ومن المؤكد أن كل اسم من أسماء الله تعالى في القرآن الكريم له علاقة بالآية التي جاء فيها ، والسياق الذي انتظم فيه ، والسورة التي ورد فيها ، وفي هذا الفصل سيقع التركيز على أسماء الله الحسنى التي تناوبت على السياق المتشابه الواحد ، لنكتشف سر استقلال كل اسم بسياقه ، ونقف على الأسرار البيانية والبلاغية لذلك .

وقبل الحديث عن توجيه بعض هذه الآيات التي وقع فيها الإبدال بين أسماء الله سبحانه وتعالى ، يجب أن نؤكد على شيء مهم ، وهو أن أسماء الله عز وجل المتقاربة في المعنى (كالعليم والخبير) لا يمكن أن يحيط الإنسان بمعرفتها والفروق بينها ، لأن ذات المولى سبحانه وتعالى لا يحيط بها الإنسان علما، والله ليس كمثله شيء ، ولا تدرك ماهيته العقول ولا الأوهام ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ؛ و أما إذا كان بين الأسماء الحسنى فرق واضح في المعنى ، كـ(العليم ، والعزيز ، والهادي ، والمحيي) فيمكن أن نلحظ الفرق بين كل اسم ، ويمكن أيضا أن نعرف سر استعمال كل اسم في موضعه ، ووجه المناسبة بينه وبين الآية التي ورد فيها .

وقد اشتهرت قصة ذلك الأعرابي حين سمع من يتلو قول المولى سبحانه وتعالى ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ المائدة . الآية :38 ، فغير فيها القارئ اسم الله العزيز والحكيم ، فتلاها: (والله غفور رحيم) ، فانتفض الأعرابي قائلا : ما ينبغي أن يكون الكلام هكذا. فقيل له: إن القارئ غلط، والقراءة(عَزِيزٌ حَكِيمٌ) فقال: نعم، هكذا تكون فاصلة هذا الكلام فإنه لما عز حكم. [1] وفي هذه الواقعة إشارة واضحة إلى الإحكام الدقيق في وضع أسماء الله الحسنى في سياقاتها المختلفة .

---

[1] - خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري (المتوفى: 837هـ) . ت . د ، عصام شقيو (دار ومكتبة الهلال-بيروت،2004 م) ج/1، ص:176.

وفي مايلي إطلالة على بعض النماذج التي وقع بينها الإبدال في الخطاب القرآني ، إفرادا وتركيبا. والإفراد في هذا المبحث يعني : أن يرد اسم من أسماء الله الحسنى عاريا عن التبعية ، أي : واحدا (مفردا) ، ومثاله (الله ، الرحمن) ، ويقابله المركب ، وهو : أن يرد اسم من أسماء الله تعالى مرتبطا باسم آخر ، ومثاله (السميع العليم ، الغفور الرحيم ، الحكيم العليم ، العزيز العليم) .

3 . 1 . 1 . أ ـ الإفـــــراد :

أ ـ 1 . (الله / الرحمن) .

في الكثير من الآيات القرآنية ورد لفظ الجلالة (الله) وجاء في آيات أخرى مشابهة مبدلا باسم الله (الرحمن) ، ومن ذلك قوله تعالى :﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾البقرة:116. وقوله سبحانه ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ الأنبياء: 26. وقد وردت آية أخرى مماثلة لها في سورة مريم ، قال تعالى﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ مريم:88. فما هو السر البلاغي وراء استعمال كل اسم في موضعه ؟. وللإجابة على ذلك يجب علينا مايلي :

أولا : النظر في سياق كل آية : فسياق آية البقرة يتحدث عن أهل الكتاب اليهود والنصارى الذي قالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان منهم، واتهم بعضهم بعضا بالباطل ، فقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى فيهم نفس المقولة ، فالسياق إذن يتحدث عن أهل الكتاب ، وأهل الكتاب كما يذكر الواحدي يعرفون اسم الرحمن ولا مشكلة عندهم فيه ، يقول الواحدي :﴿وَقَالَ الضَّحَّاكُ: قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّكَ تَقُولُ: ذِكْرَ الرَّحْمَنِ وَقَدْ أَكْثَرَ اللَّهُ فِي التَّوْرَاةِ هَذَا الِاسْمَ ... " [1]

---

[1] – أسباب النزول للواحدي ، ص : 295.

وأما سياق سورة الأنبياء فورد في سياق الحديث عن الملائكة وعبادتهم ووظائفهم.

قال تعالى في الآية التي معنا : ﴿ سبحانه بل عباد مكرمون ﴾. فهـذا تنزيه لله عن اتخاذ الملائكة بناتا ، وبيان لحقيقتهم ، بأنهم عباد لله ، ووظيفتهم طاعة الله وامتثال أوامره ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (27) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (28) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (29) ﴾.

والحديث عن الملائكة هنا متعلق بنسف المقولات الشركية التي كان العرب يعتقدونها في الله ، فقد قالوا في الملائكة بأنهم بنات الله ؛ يقول الزمخشري في سبب نزول هذه الآيات : أنها " نزلت في خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله. نزه ذاته عن ذلك، ثم أخبر عنهم بأنهم عباد ، والعبودية تنافى الولادة، إلا أنهم مُكْرَمُونَ مقرّبون عندي مفضلون على سائر العباد، لما هم عليه من أحوال وصفات ليست لغيرهم ،فذلك هو الذي غرّ منهم من زعم أنهم أولادى، تعاليت عن ذلك علوا كبيرا." [1]

فتبين إذا أن سياق سورة البقرة جاء في ذكر أهل الكتاب ، وأما سياق سورة الأنبياء فجاء واضحا في ذكر تنزيه المولى سبحانه عن اتخاذ الملائكة بناتا له .

ثانيـــا : النظر في تكرار اسم (الرحمن) ليتبين لنا الجو العام لكل سورة ؛ فلفظة (الرحمن) ذكرت في سورة البقرة مرة واحدة(01) ، وأما في سورة الأنبيـاء فقد ورد ذكرها أربع مرات (04) ، وهذا الإحصاء يؤكد لنا مناسبة كل اسم لجو السورة التي ورد فيها.

ثالثـــا : النظر في السياق العام للقرآن الكريم ، فالقرآن الكريم يخبرنا عن العرب المشركين أنهم كانوا يعتقدون في الملائكة أنهم بنات الله ، قال تعالى في ذلك

---

[1] – الكشاف ، ج/3 ، ص:112.

وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ الزخرف:19.

ويخبرنا أيضا عن مشركي العرب أنهم كانوا يستغربون اسم الله (الرحمن) ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ . الفرقان:60.

وقد كان العرب يعتقدون أن النبي صلى الله عليه وسلم يعبد آلهة متعددة ، (الله ، الرحمن) فنزل قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى...﴾ الإسراء :110.فخاطب كفار قريش باسم (الرحمن) تأكيدا على أن هذا الإسم اسم لله الواحد الذي لا شريك له ، وأن تعدد الأسماء لايعني تعدد الآلهة كما كانوا يعتقدون .[1]

وقد ورد في سورة مريم اسم (الرحمن) ستة عشر مرة (16) ، ومنها الآية :88 التي أوردناها في البداية ، ولكن في نفس السورة نجد أن المولى سبحانه وتعالى ذكر في سياق الحديث عن عيسى ابن مريم قوله : ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ مريم:35 ، فاستُعمل لفظ الجلالة في سياق ذكر أهل الكتاب ، وهذا مما يؤكد مناسبة استعماله في سورة البقرة ، لأن المقصود بالخطاب واحد ؛ وأما ذكر اسم (الرحمن) فارتبط بسياق الحديث عن العرب المشركين ، فجاء الخطاب القرآني منسجما مع أحوال المخاطبين ، مراعيا في ذلك طبيعة معتقداتهم وأفكارهم ، وما يناسب كلا منهم في تفنيد أباطيلهم وترهاتهم مستخدما الخطاب والأسلوب المناسب للدعوة الى الحق والرشاد .

فإبدال اسم الجلالة باسم الرحمن في الآيات التي معنا كشف عن سر البيان القرآني و بلاغته في وضع ألفاظه ، في إحكام عجيب ودقة متناهية ، لايمكن بعدها أن يزال حرف عن مكانه أو ينوب عنه غيره ،وإن تعلق الأمر بأسماء الله الحسنى .

---

[1] – أسباب النزول للواحدي ، ص:294.

أ .2 . اسم الله (العليم).

وقع الإبدال بين اسم الله تعالى (العليم) وبين الأسماء الحسنى التالية : (الخبير، البصير ، العزيز) ، وذلك في الآيات التالية :

قال تعالى في مطلع سورة هود ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ الآية :01. وقال سبحانه في سورة النمل ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ الآية : 06.

وقال تعالى في سورة غافر ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ الآية : 56. وقال سبحانه في سورة فصلت ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ الآية :36.

والبحث عن الفروق اللغوية بين أسماء الله الحسنى المتقاربة عسير وغير ممكن ، كما ذُكر آنفا ، ولذلك نجد أن العلماء نأوا بأنفسهم عن الخوض في ذلك ، إلا إذا كان الفرق جليا ، كالفرق بين صفات الجلال والجمال (القاهر ، والمتكبر/ الرحيم ، الودود) ؛ ومما تناوله العلماء من الآيات التي وقع فيها الإبدال بين أسماء الله الحسنى ، قوله عز وجل في سورة الفتح ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ الآية :04. وقال سبحانه في نفس السورة ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ الآية :07 . وفي هاتين الآيتين وقع الإبدال بين اسم الله (العليم) واسمه (العزيز).

فعلم الله محيط بكل شيء ، وعزته تعني قوته وجبروته ، فاستُعمل اسم الله (العليم) في سياق الحديث عن المؤمنين ، وإمدادهم بالسكينة لتزداد قلوبهم خشية وإيمانا ، والإيمان محله القلب ولا يعلم حقيقته وازدياده إلا المولى سبحانه وتعالى ،

لذلك ناسب استعمال (العليم) سياقه والآية التي ورد فيها ؛ وأما اسم الله (العزيز) فجاء في سياق ما أعده الله للمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، من الغضب واللعنة والعذاب العظيم ، قال تعالى ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْدَاءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ الآية :06. فناسب ذكر (العزيز) الذي يعني القوة والبطش والجبروت ، سياق ذكر العذاب والنكال بالكافرين .

ب – التركيب :

. (التواب الحكيم ، مع الرؤوف الرحيم).

وقع الإبدال بين أسماء الله الحسنى بهذا التركيب في سورة النور ، قال تعالى ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ الآية :10. وقال سبحانه بعد عشر آيات ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ الآية :20. فاستعمال أسماء الله المركبة كثير في القرآن الكريم ، وفي الغالب أن يحافظ هذا التركيب على ترتيبه حيث ورد ، وقلما يقع فيه تقديم وتأخير ، وإذا وقع فإنه يقع لأجل تحقيق أغراض بلاغية ؛ وقد جاء في القرآن (تواب حكيم) مرة واحدة ، وبقية المواضع التي جاء فيه ذكر (التواب) اقترن بالرحيم ، وأما (الرؤوف) فلم يقترن مع اسم آخر من أسماء الله تعالى في القرآن الكريم سوى (الرحيم) ، وأما الحكيم والرحيم ، فتنوع اقتران هذه الأسماء بغيرها في ثنايا القرآن الكريم .

وللسائل أن يسأل لماذا جاء في الآية الأولى (تواب حكيم) ، وأبدل هذا التركيب في الآية الأخرى ب(رؤوف رحيم) ؟ .

والجواب : أن الأولى: تقدمها ذكر الزنا والجلد، فناسب ختمه بالتوبة، حثا على التوبة منه وأنها مقبولة من التائب، وناسب أنه (حَكِيمٌ) لأن الحكمة اقتضت ما قدمه من العقوبة لما فيه من الزجر عن الزنا، وما يترتب عليه من المفاسد.

وأما الثانية: فقوله تعالى ﴿رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ذكره بعد ما وقع به أصحاب الإفك فبين أنه لولا رأفته ورحمته لعاجلهم بالعقوبة على عظيم ما أتوه من الإفك، ولذلك قال تعالى فيما تقدم ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الآية : 14 . [1]

فاسم الله الحكيم يقترن غالبا بذكر الأحكام الشرعية والحدود ، ويأتي في جل القرآن الكريم مقترنا مع (العزيز والعليم) ، ولذلك ناسب ذكر الحكيم عقب ذكر حد الزنا والقذف واللعان [2] ، وناسب أن يسبق بالتواب لأن هذه الذنوب يكثر اقترافها من الناس ، فلذلك جعل الله باب التوبة مفتوح لعباده ، وأقرب الحدود المذكورة لسياق الآية حكم اللعان ، الذي جعله الله حلا للزوجين المتخاصمين في إثبات النسب لابنهما ، فجعل الله سبحانه وتعالى " اللعان للزوج سبيلا إلى مراده ، وللزوجة سبيلا الى دفع العذاب عن نفسها ، وفتح لهما باب التوبة والإنابة " فلهذا كانت صفة : (حكيم) أبلغ في هذا المقام من صفة : (رحيم) ، فجمع فيها بين التوبة المرجوة من صاحب المعصية ، وبين الحكمة في سترها على تلك الصورة .

وأما في الآية الأخرى ، فالقضية أخطر وأجرم ، لأنها تعلقت بعرض النبي صلى الله عليه وسلم وعرض زوجته أم المؤمنين عائشة ، فلولا رحمة الله ورأفته بعباده لسلط على أصحاب الإفك عذابا مهلكا ، فجاء ذكر الرأفة والرحمة مقابل بشاعة الذنب المرتكب ، ليعلم المؤمن مدى سعة رحمة الله ولطفه بعباده ، رغم ما يرتكبه العباد من الذنوب التي تكاد السماوات والأرض أن تتفطر منها.

فبإبدال اسماء الله (التواب الحكيم) ب(الرؤوف الرحيم) تحققت الأغراض البلاغية ، في صورة تامة متناهية ، وتحقق في كل سياق ترابطه وانسجام معناه على المستويين السطحي والعميق.

---

[1] – كشف المعاني ، ص :271. وينظر: درة التنزيل ص : 951. والبرهان للكرماني ، ص: 186، وملاك التاويل ، ص: 372.

[2] – القذف : اتهام المرأة بالزنا دون بينة ، واللعان : من الملاعنة ، يَقَعُ الزَّوْجَانِ إِذَا قَذَفَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ أَوْ رَمَاهَا بِرَجُلٍ أَنَّهُ زَنَى بِهَا، ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ،الكويت.ط/2، 1427ه. ج/35 ، ص :246

ج – الإفراد والتركيب : (الله / العزيز العليم).

جاء ذلك في قوله تعالى﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ لقمان :25. ونظير ذلك في سورة الزمر: لَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ الآية :36. أما في سورة الزخرف فجاءت هكذا﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ الآية :09.

والْعَزِيزُ الْعَلِيمُ هُوَ اللَّهُ تعالى ذِكْرُ الصِّفَتَيْنِ الْعَلِيَّتَيْنِ مِنْ مَقُولِ وَابِهِمْ وَإِنَّمَا حُكِيَ قَوْلُهُمْ بِالْمَعْنَى، أَيْ لَيَقُولُنَّ خَلْقَهُنَّ الَّذِي الصِّفَتَانِ مِنْ صِفَاتِه، وَإِنَّمَا هُمْ يَقُولُونَ :خَالِقُهُنَّ كَمَا حُكِيَ عَنْهُمْ فِي سُورَةِ لُقْمَانَ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوات وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾. المستقرى مِنْ كَلاَمِهِمْ نَثْرًا وَشِعْرًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِنَّمَا عدل عَن اسْم الْعَلِيِّ الصِّفَتَيْنِ زِيَادَةً فِي إِفْحَامِهِمْ بِأَنَّ الَّذِي فُوا عَنْ تَوْحِيدِه بِالْعِبَادَةِ عَزِيزٌ عَلِيمٌ، فَهُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَرْجُوَهُ النَّاسُ لِلشَّدَائِدِ لِعِزَّتِه وَأَنْ يُخْلِصُوا لَهُ بَاطِنَهُمْ لأَنَّهُ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ خَلَلٌ فِي شُرَكَائِهِمْ فَإِنَّهَا أَذِلَّةٌ لاَ تَعْلَمُ، وَإِنَّهُمْ لاَ يُنَازِعُونَ وَصْفَهُ بِالْعَزِيزِ الْعَلِيمِ تَخْصِيصُ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ بَقِيَّةِ الصِّفَاتِ الإِلَهِيَّةِ لأَنَّهَا اقْتِضَاءُ الأَصْنَامِ فَإِنَّ الأَصْنَامَ عَاجِزَةٌ عَنْ دَفْعِ الأَيْدِي."[1]

والملاحظ في هذا الآية أن مقول القول فيها ذكر فيه ثلاث صفات لله سبحانه (الخلق ، والعزة ، والعلم) بخلاف الآية الأخرى التي مقول القول فيها لفظ الجلالة فقط ، فكثر الوصف عندما أخبر الله عن نفسه ، وقل عند ما أقر المشركون بأن خالق السموات والأرض هو الله ، وكأن قلة الوصف في قول المشركين تشير ضمنا إلى ضعف معرفتهم بالله ، ولولا ذلك ما أشركوا به شيئا .

---

[1] – التحرير والتنوير، ج/25 ، ص :168.

ويلاحظ أيضا أن آية الزخرف انتهت ب (العزيز العليم) فكانت متمكنة في موضعها ، وأردفت بعد ذلك بأوصاف أخرى جاءت كالتفسير لمضمون هاتين الصفتين : (الذي جعل لكم الأرض مهادا ...)(والذي خلق الأزواج...) . أما في بقية الآيات المشابهة لها فلم يأت لفظ الجلالة (فاصلة) ، بل انفصل الكلام بعده بقوله تعالى: (قل) ، وهذا ما يؤكد ما أشرنا اليه قبل قليل أن الواصفين لا يعرفون عن ربهم إلا القليل ، أما في آية الزخرف فالله هو الذي يتحدث عن نفسه ويصف قدرته وعلمه ونعمه على عباده ، وهذه الكثرة في الوصف جاءت تمهيدا لما سيذكره الله عن المشركين بعد ذلك من سوء أقوالهم ومعتقداتهم ، وجهلهم بالله وصفاته وآياته .

فالمغايرة في استعمال أسماء الله الحسنى جاءت على حسب الموضوع والسياق ، فناسب كل اسم موضعه ، وتحقق بذلك الإبدال الإنسجام والإتساق ، الذي يكشف عن إعجاز النظم القرآني وبلاغته العالية .

2 . 1 . 2 . الإبدال بين أسماء مختلفة :

من عادات القرآن الأسلوبية الإبدال بين أسماء الأشياء وصفاتها ، مستعملا كل اسم في موضعه اللائق به ، وهو ما حرك قرائح العلماء للبحث عن تلك الأسرار البلاغية ، للتعرف على العلل الأسلوبية ، واللمسات البيانية ، وللتأكيد على بلاغة النظم القرآني واعجازه ؛ ومن الجدير بالذكر أن الأسماء التي ستكون قيد الدراسة تربطها علاقات عدة ، منها علاقة العموم والخصوص ، أو علاقة الجزء بالكل ، أو علاقة السببية ، أو علاقة اللزوم ... الخ ؛ وهذا ما سيتجلى في الأسماء التالية:

2 . 1 . 2 . أ . في بعض الأسماء التي تربطها علاقة العموم والخصوص.

أ . 1 . (التوراة ، الكتاب).

ورد في القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ المائدة :46. وقال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ...﴾ المائدة :48.

وسياق هاتين الآيتين واضح ، ففي الأولى يتحدث عن رسالة عيسى ابن مريم عليه السلام الى بني اسرائيل ، وفي الثانية يتحدث السياق عن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، ففي الأولى عبر بقوله : (مصدقا لما بين يديه من التورية) وفي الثانية قال : (مصدقا لما بين يديه من الكتاب) ، فما هو السر البلاغي وراء إبدال التوراة بالكتاب ؟.

من المعلوم أن الكتاب اسم جنس لكل ما هو كتاب بغض النظر عن اسمه ومضمونه ولغته ، ويطلق اسم الكتاب في حق الرسالات السماوية ؛ ومن أركان الإيمان ، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ... ، أما نوع الكتب المنزلة على الرسل فهي

المعروفة المشتهرة بين البشر: (التوراة والإنجيل والزبور ، والقرآن)، وغيرها مما ليس معروفا ، فكل نوع من هذه الكتب يسمى كتابا ، وليس العكس ، فبينهما عموم وخصوص .

وقد خص القرآن الكريم اليهود والنصارى باسم (أهل الكتاب) إفرادا لإرادة الجنس لا النوع ، ولذلك لم يرد في القرآن الكريم خطابهم بأهل (الكتابين) ؛ وفي هاتين الآيتين أخبرنا القرآن الكريم أن عيسى مكمل ومصدق لما جاءت به التوراة ، باعتبار أن لكل قوم شرعة ومنهاجا ، وعيسى رسول إلى بني اسراءيل على وجه الخصوص ولا علاقة له بالأقوام الأخرى ، ولا بما سبق من الكتب كالزبور ، وصحف إبراهيم ، ولذلك قال تعالى في سيدنا ابراهيم : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ آل عمران :67. وعندما تعلق الأمر برسالة الإسلام أخبرنا القرآن أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء مكملا ومصدقا لما سبق من الكتب جميعها ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾.

باعتبار عموم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الخلق كافة ، وبأن الدين عند الله هو الإسلام ؛ فناسب ذكر النوع في سياق ذكر سيدنا عيسى ، وذكر الجنس في سياق ذكرالنبي صلى الله عليه وسلم ، فإبدال التوراة بالكتاب الغرض منه توضيح خصوصية الإنجيل ، وعمومية القرآن وهيمنته على ما سبق من الكتب ،وقال تعالى﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾.

[1] – مفاتيح الغيب :ج/12 ،ص: 371.

أ . 2 . (الولد ، الغلام) .

جاء ذلك في قوله تعالى على لسان مريم ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ آل عمران : 47. وقال على لسانها أيضا : ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًا ﴾ مريم : 20. وقد ورد في نفس السورتين قول سيدنا زكرياء بعد تبشيره بالغلام : (أنى يكون لي غلام) فكرر نفس الكلمة ولم يغير ، وهذا ما يجعلنا نتساءل ، لماذا اختلف الأمر مع السيدة مريم عليها السلام ، فمرة عبرت بـ(الولد) ومرة (بالغلام) ؟.

وللإجابة على ذلك يجب أن ننظر أولا في خصوصية الإستعمال القرآني لهاتين اللفظتين ، فلفظ (الولد) جاء في القرآن الكريم في ما يلي :

1- في العلاقة الحقيقية بين الوالدة والوالد والمولود، وهو كثير في القرآن.
2- في علاقة التبني (أو نتخذه ولدا).
3- في إطلاق الجنس، أي على كل صغير ذكرا كان أم أنثى .
4- في عقائد اليهود والنصارى والمشركين (الذين قالوا اتخذ الله ولدا).
5- في نفي الولد عن الله (لم يلد ولم يولد).

وأما لفظ الغلام فجاء في القرآن الكريم مرتبطا بما يلي :

01- بمعنى الولد (فبشرناه بغلام حليم).
02- بمعنى الصغير ، عند العثور على يوسف في البئر(يبشراي هذا غلام). وعند ذكر الفتى الصغير الذي قتله الخضر في امتحانه لموسى عليه السلام ، وعند ذكر الغلامين اليتيمين ، وهؤلاء جميعا لاتربطهم بمن خاطبهم علاقة الولادة.

وجاء في القرآن الكريم الحديث عن خدم أهل الجنة فوصفوا مرة بأنهم (غلمان) ومرة بأنهم (ولدان مخلدون).

وبهذه الإحصائية المختصرة لخصوصية الإستعمال القرآني لهاته اللفظتين يتبين أن بينهما عموما وخصوصا ، فالولد يطلق عموماعلى كل مولود صغيرا كان

أم كبيرا ، والغلام يطلق على كل صغير مولود للشخص أم لا ، فعلاقة الولد الولادة وليس الصغر ، وعلاقة الغلام الصغر ، ويجتمعان في معنى الولد . وقد ذكر أهل المعاجم أن لفظة غلام مشتقة من الغُلمة ، واغتلم الغلام إذا بلغ حد الغُلومة ، ولما كان من بلغ هذا الحد كثيرا ما يغلب عليه الشبق ، قيل للشبق غُلمة . وفي هذا المعنى اعتُبر التميز والرشد والبلوغ .[1]

والولد والغلام في قول السيدة مريم عليها السلام ، جاءا في سياق واحد ، فهل روعي في الإبدال بينهما اتفاق المعنى ؟ أم أن هناك أمرا آخر اقتضى الإبدال بينهما بحيث لا يمكن أن تحل اللفظة مكان الأخرى ؟.

قال أكثر أهل العلم أن المغايرة في التعبير وإبدال اسم الولد باسم الغلام له علاقة سياقية [illegible]في هذه السُّورَة تقدم ذكر الْمَسِيح وَهُوَ وَلَدهَا،في مَرْيَم تقدم ذكر الْغُلَام حَيْثُ قَالَ لأهب لَك غُلَاما زكيا﴾ .[2] فدل ذلك على أن الولد والغلام اسمان للطفل الصغير ، و أبدل بينهما في سياق واحد تفننا في الأسلوب.

ويرى الباحث أن إطلاق لفظ (الولد) في سياق سورة آل عمران روعي فيه مسألة الولادة في أصلها لا المولود ، لذلك استعمل القرآن في السياق الفعل (يخلق) بدل الفعل (يفعل) الوارد في قصة زكرياء ، يقول ابن عاشور"وَعُبِّرَ عَنْ تَكْوِينِ اللَّهِ لِعِيسَى بِفِعْلِ يَخْلُقُ الَّذِي هُوَ إِيجَادُ الْكَائِنِ مِنْ غَيْرِ الْأَسْبَابِ الْمُعْتَادَةِ لِإِيجَادِ مِثْلِهِ، فَهُوَ خَلْقٌ أَغْرَبُ(غير متناسق) عَنْ أَسْبَابِ إِيجَادِ النَّاسِ، فَكَانَ لِفِعْلِ يَخْلُقُ هُنَا مَوْقِعٌ مُتَعَيِّنٌ ، فَإِنَّ الصَّانِعَ إِذَا صَنَعَ شَيْئًا مِنْ مَوَادَّ مُعْتَادَةٍ وَصَنْعَةٍ مُعْتَادَةٍ، لَا يَقُولُ خَلَقْتُ وَإِنَّمَا يَقُولُ صنعت."[3]وإضافة إلى ذلك نجد أن هناك توازيا في القصتين من ناحية الإبدال بين الإسمين (غلام ، ولد) وبين الفعلين (يفعل ، يخلق) ، كما نلاحظ أيضا أن مريم عليها السلام تساءلت في سورة آل عمران عن كيف تحدث الولادة بدون الرجل ، و في سورة مريم أضافت تساؤلا آخر ، وهو كيف يحدث ذلك

---

[1] – ينظر مفردات غريب القرآن : ص :400.

[2] – البرهان في متشابه القرآن : ص:89 ، وينظر كشف المعاني ، ص : 128. وملاك التأويل ،ص:81.

[3] – التحرير والتنوير : ج/3 ، ص: 249.

وهي امرأة طاهرة عفيفة ، (ولم أك بغيا)، والمرأة البغيّ قد تلد ولكن ولدها ينسب الى الفراش أو يقال : (ابن زنا) ، ولا يقال له ولد شرعي ، لأن الولادة الشرعية هي المعتبرة في التوارث بين الأصول والفروع ، والزنا أحد الموانع من الميراث ؛ فإثارة هذا القضية في السياق يتناسب مع إطلاق لفظ (الغلام) لا مع لفظ (الولد)، لأن الغلام اسم يتناول كل صغير بغض النظر عن شرعية ولادته .

أ . 3 . (ثعبان ، حية).

ورد ذلك في قصة موسى عليه السلام ، قال تعالى : ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ الأعراف :107. وفي الشعراء ، الآية :32. وتكررت نفس الآية لكن بإبدال لفظة (ثعبان) بلفظة (حية) ، في قوله تعالى : ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ طه :20. ووقع الإبدال أيضا بلفظ (جان) في قوله تعالى : ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ .

فوردت الآية الأولى في سياق استعراض آيات ودلائل نبوة موسى أمام فرعون لعله يتذكر أو يخشى ، وأما الآية الثانية والثالثة فوردتا في سياق تكليم الله موسى في الواد المقدس طوى ، حين قال له :﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17)قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18)قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19)فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾. فاختلاف السياق له دلالته في اختلاف الألفاظ كما سيتضح بعد قليل ، لأن تكرار القصة بإبدال شيء فيها لا يخلو من فائدة ومعنى جديد ، يقول الزركشي : إن الله سبحانه وتعالى كَرَّرَ الْقِصَّةَ زَادَ فِيهَا شَيْئًا كَأَلَّا تَرَى الْحَيَّةَ أَتَتْ عَصَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَذَكَرَهَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ثُعْبَانًا فَفَائِدَتُهُ أَنَّ لَيْسَ كُلُّ حَيَّةٍ ثُعْبَانًا وَهَذِهِ عَادَةُ الْبُلَغَاءِ أَنْ يُكَرِّرَ أَحَدُهُمْ فِي آخَرِ

خُطْبَتِهِ أَوْ قَصِيدَتِهِ كَلِمَةً لِصَفَةٍ زَائِدَةٍ." [1] فماهو المعنى الزائد الذي يمكن أن نكتشفه في الإبدال بين هاته الآيات ؟.

يقول ابن منظور في اللسان : "والثُّعْبانُ الحَيَّةُ الضَّخْمُ الطويلُ، الذكرُ خاصَّةً. وقيل كلُّ حَيَّةٍ ثُعْبانٌ. والجَمْعُ ثَعابينُ قال ابْنُ شُمَيْلٍ :الحَيَّاتُ كُلُّها ثُعْبانٌ ، الصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ والإِناث والذُّكْرانُ وَقَالَ أَبو خَيْرة:الثعبانُ الحَيَّةُ الذكرُ. وَحْوَ ذَلِكَ قَالَ الضَّحَّاكُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى:فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ ..." [2] فالحية اسم جنس ، والثعبان نوع منها وهو: الذكر الضخم من الحيات ، والجان : نوع آخر صغير .قَالَ الزَّجَّاجُ : " والثعبان الكبير من الحيَّات .فإنْ قال قائل: فكيف جاء (فإذا هِي ثعبان مبين)وفي موضع آخَرَ(كأنها جَانٌ)والجانُّ الصغيرُ من الحيَّاتِ ؟فالجواب في هذا مما يَدُل على عِظم الآية، وذلك أن خَلقَها خلقُ الثعبان واهتزازُها وحركتها وخفتُها كاهتزاز الجَانِّ وخِفته."[3]

ونستخلص مما سبق أن الله سبحانه وتعالى كلم موسى في حضرة القدس ، وأراه تحول العصا في صورة أقل إخافة (حية تسعى/ جان في اهتزازها) ، لأن المقام مقام تكريم وأمن ومع ذلك حصل من موسى الخوف ، فأزال الله خوفه وأعاد العصا الى ما كانت عليه ؛ وأما التعبير ب(الثعبان) فجاء في مقام دعوة موسى فرعون ، وفرعون هو الأولى بالتخويف والترعيب لعله يرعوي عن غيه وتجبره ، فلذلك حُولت العصا أمامه ثعبانا ذكرا ضخما ، وتحقق بذلك الغرض بإرعابه وإرعاب الناظرين . فإبدال الثعبان مكان الحية والجان ، جاء في سياقه المناسب ومقامه المطابق له ، وأخذ كل سياق ما هو أولى به من الأسماء .

---

[1] – البرهان في علوم القرآن للزركشي : ج/3 ، ص:26.

[2] – لسان العرب ، ج/ 1 . ص : 236.

[3] – معاني القرآن وإعرابه ، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (311هـ)، ت: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب – بيروت ،ط/1 ، 1408 هـ - 1988 م - ج/4 ، ص :88.

2 . 1 . 2 . ب . الإبدال بين إسمين ذوي علاقة سببية :

ب . 1 . (الماء ، الرزق).

من المعروف لدى العام والخاص أن الماء هو عصب الحياة ، وبدونه لا يمكن لأي كائن حي أن يعيش ، قال تعالى﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الأنبياء :30.وقد ورد في آيات كثيرة من القرآن الكريم ، أن المنزَّل من السماء هو: (الماء) ، و أبدل في مواضع أخرى لفظ (الماء) بلفظة (الرزق) ، ومن ذلك قوله تعالى﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ البقرة :164 . فجاء الإبدال في قوله تعالى : وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ الجاثية :05. لا يختلف العلماء في أن " أن المراد (بالرزق) في هذه الآية : الماء، لأنه سببه وأصله، وبه نبات الأرزاق ، تسمية للسبب باسم المسبب" [1] .

فرأى ابن الزبير " أن آية الجاثية لما تأخرت فى الترتيب الذى استقر عليه القرآن ، كانت مظنة لبيان أن الرزق عن الماء ، قال تعالى: ﴿ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد ﴾ ، فقال فى سورة الجاثية: (من رزق) تسمية للماء بما عنه يتسبب وتكون مبالغة فى بيان ما تقدم ، كما قال تعالى : ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾.[2]

فابن الزبير رحمه الله يرى أن سبب إبدال لفظ (الماء) في هذه السورة بلفظة (الرزق) يتعلق بترتيب السور ، أي : أن تأخر سورة الجاثية من فوائده بيان مصدر الرزق وهو الماء ، والتعبير بالرزق تعبير مجازي علاقته المسببية ،وهي: " تسمية

---

[1] – كشف المعاني ، ص: 337.

[2] – ملاك التأويل ، ص :441.

السبب باسم المسبب؛ كقولهم: "أمطرت السماء نباتا"، ...وكذا تفسير إنزال أزواج الأنعام في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ بإنزال الماء على وجه؛ لأنها لا تعيش إلا بالنبات، والنبات لا يقوم إلا بالماء؛ وقد أنزل الماء فكأنه أنزلها... وكذا قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ أي: مطرا هو سبب الرزق.[1] " ولو لم يؤول صح لأنه في نفسه رزقا .

والملمح البلاغي لاستعمال لفظة (الرزق) في سورة الجاثية ، أن هذه السورة جاءت بعد سورة الدخان التي ذكر الله تعالى فيها نزول القرآن في ليلة مباركة ، ليلة يصرف فيها كل ما قدره الله ، قال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4) ﴾ قال الرازي "فَالْحَكِيمُ مَعْنَاهُ ذُو الْحِكْمَةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ تَخْصِيصَ اللَّهِ تَعَالَى كُلَّ سَنَةٍ بِأَحْكَامٍ مُعَيَّنَةٍ مِنَ الْعُمُرِ وَالرِّزْقِ وَالْأَجَلِ وَالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ يَدُلُّ عَلَى حِكْمَةٍ بَالِغَةٍ لِلَّهِ تَعَالَى ..." [2] وهذا المعنى تكرر إشارة وتلميحا في استفتاح سورة الجاثية ، فالتعبير بالرزق يعني جميع ما أنعم الله به على الإنسان " من المال والجاه والعلم ... وفيه تنبيه على أن الحظوظ بالمقادير"[3].

وفي ذلك وجه من المناسبة واضح وجلي .

2 . 1 . 2 . جـ . الإبدال بين أسمين بينهما علاقة لزومية .

. (فراش ، قرار)

قال تعالى في وصف الأرض : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة :22. وقال سبحانه في وصفها في محل آخر: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ غافر:64. وقد اتفق المفسرون على أن معنى

---

[1] – بغية الإيضاح ،ج/3 ، ص:468.

[2] – مفاتيح الغيب للرازي ، ج/27، ص: 655.

[3] – مفردات غريب القرآن ، ص:215.

الفراش والقرار واحد كالمهاد ، وهو : ثبات الأرض وسكونها لتكون مستقرا لعيش الإنسان ، فكونها فراشا يلزم منه كونها قرارا ، لأن المتحرك لايصلح أن يكون مهدا وفراشا ، ولكن يبقى السؤال المطروح ، لم اختصت سورة البقرة بلفظة (الفراش) عن باقي سور القرآن ؟ مع العلم أن وصف الأرض ب(القرار) تكرر مرتين ، في الآية التي معنا ، و في سورة النمل ، قال تعالى ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الآية : 61. فلماذا أبدل لفظ القرار في البقرة بلفظ الفراش ؟ .

وللإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن ننظر في استعمال لفظة (فراش) في القرآن الكريم وسياقاتها ، ثم بعد ذلك نبحث عن العلاقة بين اللفظة والسورة التي وردت فيها.

1- أن لفظة (فراش) على وزن (فعال) بالكسر لم ترد إلا في سورة البقرة.

2- وردت في سورة الذاريات فعلا ماضيا في سياق ثناء الله على نفسه ، قال تعالى ﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ الآية :46.

3- وردت على وزن (فعل) بفتح الفاء وتسكين العين ، في سياق الحديث عن منافع الأنعام : قال تعالى ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا[1] كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ الأنعام :142. وردت مجموعة على وزن (فُعُل) ، في سياق الحديث عن نعيم الجنة ، وذلك في سورتي الرحمن والواقعة ، قال تعالى ﴿ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ الآية :76. وقال ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ الآية :54. وقال أيضا ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ الآية :34.

ويستخلص من ذلك أن لفظة الفراش جاءت في سياق المدح والإنعام ، وهذا ما يتناسب مع سياق سورة البقرة ، لأن سياقها سياق تكريم ، وسنستدل على ذلك بالسياق الداخلي للسورة ، والسياق الخارجي.

---

[1] – الفَرْشُ : مِنْ مَتَاعِ الْبَيْتِ . ينظر: لسان العرب ، ج/6 ، ص :326.

01 – السياق الداخلي للسورة :

أ – افتتاحها بذكر صفات المومنين .

ب – ذكر فيها تشريف آدم بالسجود وتفضيله بالعلم على الملائكة

ج - ذكر الانعام على بني اسرائيل وتفضيلهم.

د - ذكر تفضيل سيدنا ابراهيم بالإمامة .

هـ . ذكر تفضيل الرسل بعضهم على بعض .

و . ذكر إرضاء النبي صلى الله عليه وسلم بتحويل القبلة .

ز . ذكر أجر المنفقين المضاعف كالسنبلة التي انبتت سبع سنابل .

ح . اختصت بذكر أحكام أفضل الشهور ، صيام رمضان.

ط . ضمت أطول آية في القرءان " آية المداينة .

ي . هولت من شأن أكل الربا والتعامل به.

ك . ذكرت تكريم سيدنا داود بالعلم والحكمة .

ل . ذكر فيها رفع الحرج على المسلمين واختتمت بالدعاء.

02 - من السياق الخارجي للسورة :

أ . أنها ضمت أعظم آيات القرءان آية الكرسي ، وخواتيم البقرة .

ب . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيها : (لاتستطيعها البطلة[1]) ، وقال ايضا (إِنَّ الشَّيْطَان يفر من الْبَيْت الَّذِي تقْرَأ فِيهِ سُورَة الْبَقَرَة) [2]، وقال أيضا لكل شَيْء سَنَام و َإِن سَنَام الْقُرْآن سُورَة الْبَقَرَة.)[3]

ج . أن معظم آيات الشفاء المختارة عند الأئمة والعلماء ، من سورة البقرة ، كآية الكرسي وخواتيم سورة البقرة .

---

[1] – البطلة أي : السحرة ، ينظر : اللسان ، ج/11 ، ص :56. ينظر: الترغيب والترهيب ، ج/2، ص:241.

[2] – نفس المصدر ، ج/2، ص:240.

[3] – نفس المصدر ،ج/2،ص:241.

وبهذا يكون التعبير بلفظ الفراش متناسبا مع سياق سورة البقرة ، وأما التعبير بلفظ القرار فجاء في سياق الحديث عن المنكرين والجاحدين ، فناسب كل لفظ سياقه ، وتحقق بإبدال لفظ (القرار) بلفظ (الفراش) معنى زائدا عن السكون والثبات ، وهو معنى التكريم والإنعام .

2 . 1 . 2 . د . الإبدال بين اسمين بينهما علاقة الجزء بالكل.

. **(أفواه ، ألسنة):**

ومن ذلك قوله تعالى﴿ وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ آل عمران :167. فجاء في هذه الآية ذكر لفظ (الأفواه) وأبدل في آية أخرى بلفظ (الألسنة) ، جاء ذلك في قوله تعالى﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ الفتح :11. فالأفواه أعم وأشمل من الألسنة ، لأن اللسان جزء من الفم ، والأفواه جمع فم ، وأصله (فوه) " وفي كل موضع علق الله تعالى حكم القول بالفم ، فإشارة إلى الكذب ، وتنبيه أن الإعتقاد لايطابقه نحو ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ الأحزاب :37. ..."[1] وقد ذكر ابن الزبير رحمه الله " أن قوله فى الأولى (بأفواههم) ينبئ عن مبالغة واستحكام وتمكن فى اعتقاد أو قصد لا يحصل من قوله (بألسنتهم) ألا ترى قولهم: (تكلم بملء فيه) حين يريدون المبالغة ، وقال تعالى: (اليوم نختم على أفواههم) ، والمراد المبالغة فى منعهم من الكلام ،وإذا ختم على الأفواه امتنعت الألسنة عن النطق وكان أحكم فى المنع ، ولما كان المراد بالآية الأولى الإخبار عن المنافقين كعبد الله بن أبى

---

[1] – مفردات غريب القرآن ، ص : 429.

وأصحابه ممن استحكم نفاقه وتقرر فقال يوم أحد ما حكى الله تعالى من قولهم فى المخالفين لهم من الأنصار ممن أكرمه الله بالشهادة فى ذلك اليوم: (لو أطاعونا ما قتلوا) إلى ما قالوه من هذا ثم وروا عنه بقولهم لصالحى المؤمنين: (لو نعلم قتالا لاتبعناكم) فأخبر تعالى عنهم بما أكنوه من الكفر فقال تعالى: (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم) فناسب الإبلاغ فى قوله تعالى: (بأفواههم) ما انطووا عليه واستحكم فى قلوبهم من الكفر.

وأما آية الفتح فإخبار عن أعراب ممن قال تعالى فيهم: (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا)وهؤلاء لم يستقر نفاقهم كالآخرين وإنما أخل بهم قرب عهدهم بالكفر وإن لم يتقرر الإيمان فى قلوبهم لكن لا عن نفاق كنفاق الآخرين قال تعالى مخبرا عن هؤلاء الأعراب: (سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا) فعن هؤلاء قال تعالى: (يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم) ، فعبر بالألسنة إشعارا بأن حال هؤلاء ليس كحال المنافقين المقصودين فى آية آل عمران."[1] هذا التعليق من ابن الزبير يتفق عليه معظم من تعرضوا لتوجيه هاتين الآيتين ، ملاحظين في ذلك اختلاف السياق من آية لأخرى ، ولكن لا يكون هذا مقبولا إلا بعد استقراء أوجه الإستعمال القرآني للمادتين .

1- فكلمة (ألسنة) :

أ- جاءت في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ آل عمران :78.

ب- وقوله :﴿ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ﴾ النساء:46.

جـ. وقوله ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى ﴾ النحل:62.

د. وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ النور:15.

---

[1] – ملاك التأويل ، ص :94.

ه . وقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ النور:24.

و. وقوله تعالى ﴿ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ الروم :22.

ز. وقوله إن ﴿يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ ﴾ الممتحنة :02.

ونلاحظ من خلال هذه الآيات أن اللسان جاء بمعنى الألفاظ التي تجري على اللسان ، ويتداولها الناس بينهم تلقيا وإلقاء ، وأن استعمال لفظ (اللسان) ورد في سياق الحديث عن المؤمنين ، لأنه كان فيهم من يجري اللفظ على لسانه ولا يعرف أخطاره وأبعاده ، فلذلك لما ذكر القرآن تلقي المسلمين الكلام الكذب ، وأراد أن يعلمهم عن خطورته أضاف إلى ذلك ذكر الأفواه " مبالغة وإلزاما وتأكيدا."[1]

2- وأما كلمة (أفواه) فورد منها:

أ- قوله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ آل عمران :118.

ب- وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ المائدة:41.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ التوبة:8.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ التوبة : 30.

ه . وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ التوبة :32.

و. وقوله تعالى: ﴿ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ ابراهيم:09.

وقوله تعالى: ﴿كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾الكهف:05.

---

[1] – ينظر تفسير ابن عطية ، ج/4، ص: 171. و الجامع لأحكام القرآن ، لشمس الدين القرطبي (671هـ) ، ت:أحمد البردوني ، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة.، ج/12 ، ص:204.

الجو. وقوله تعالى ﴿عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ يس :65.

ويلاحظ من خلال استعراض هذه الآيات أن لفظ (الأفواه) ارتبط بالمظاهر الخارجية التي يتبناها الناس مذهبا ، يعيشون بها وهم كاذبون ، وهذه هي صفة المنافقين والمداهنين من اليهود والنصارى ، وبذلك بان الفرق بين استعمال القرآن للألسنة ، وهي في الكلام الذي يكون ثم ينتهي ، وبين الأفواه وهي للكلام الذي يعتقده المرء ويعيش به ، فلذلك ناسب إبدال (الأفواه) بـ(الألسنة) مراعاة لحال المتكلمين ومعتقداتهم .

2 . 2 . الإبدال بين المصادر.

ومن الأسماء التي وقع بينها الإبدال في الخطاب القرآني : (المصادر) ، ويسمى المصدر مفعولا مطلقا ، وسمي بالمصدر" لأن الفعل يصدر عنه ، ويسميه سيبويه : الحدث ، والحدثان ، وربما سماه الفعل ... وسمي المفعول المطلق ، لأن من حقه أن لا يقيد بحرف من حروف الجر تقييد سائر المفاعيل ، لأنه مفعول فحسب ؛ والحدثان بمعنى الحادث ، ولذلك يقال : هذا حدث من أحداث الدهر ، وكذلك يقال : حدثان الدهر... وربما سماه الفعل لأنه في الحقيقة فعل ، كما أنه في الحقيقة حادث ." [1]

ويقول ابن مالك :

" المصدر اسم ما سوى الزمان من ... مدلولي الفعل كأمن من أمن

الفعل يدل على شيئين الحدث والزمان ، فـ (قام) يدل على قيام في زمن ماض و(يقوم) يدل على قيام في الحال أو الاستقبال و(قم) يدل على قيام في الاستقبال و(القيام) هو الحدث ، وهو أحد مدلولي الفعل وهو المصدر، وهذا معنى قوله: (ما سوى الزمان من مدلولي الفعل) فكأنه قال : المصدر اسم الحدث كـ(أمن) فإنه أحد مدلولي أمن.

والمفعول المطلق: هو المصدر المنتصب توكيدا لعامله ، أو بيانا لنوعه ،أو عدده ، نحو ضربت ضربا وسرت سير زيد وضربت ضربتين.

وسمى مفعولا مطلقا لصدق المفعول عليه غير مقيد بحرف جر ونحوه بخلاف غيره من المفعولات فإنه لا يقع عليه اسم المفعول إلا مقيدا كالمفعول به والمفعول فيه والمفعول معه والمفعول له." [2]

---

[1] – شرح المفصل ، ج/1 ، ص: 297/296.

[2] – شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، ج/ 2 ، ص:169.

وقد جاء الإبدال في القرآن الكريم بين عدة مصادر ، منها ما أبدل مرتين ، أي : تكرر إبداله مع مصدرين مختلفين ، كلفظة (الحق) فمرة أبدلت بـ(القسط) ومرة أخرى بـ (الصدق)؛ ومن المصادر ما أبدل مرة واحدة لا ثاني لها في القرآن الكريم ، كـ (الحديث ، مع القيل)، وستكون البداية من المصادر المبدلة مرتين .

2 . 2 . 1 . المصادر المبدلة مرتين :

أ . (الحق) :

أ .1 . (الحق/ القسط) :

قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ يونس :47. وقال سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ الزمر:69. ففي الآية الأولى ذكر القضاء بالقسط ، وفي الثانية القضاء بالحق ، فما هي الأسرار البلاغية وراء إبدال القسط بالحق ؟ وما الفرق بينهما ؟.

القسط مصدر قسط يُقسط إذا عدل واسم الفاعل منه مقسط ، والقسط كذلك الجور والظلم ، من قسط يُقسط فهو قاسط ، قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ الجن:15. والإقساط أن يعطي قسط غيره بإنصاف ، من أقسط يقسط فهو مقسط ، والألف من أقسط تسمى ألف السلب أو الإزالة ، فقسط جار، وأقسط عدل ، والمعنى المقصود هنا (العدل والإنصاف) [1]. فقوله تعالى : (قضي بينهم بالقسط) ،معناه: "أَنَّ فِي مَجِيءِ الرَّسُولِ يَكُونُ الْقَضَاءُ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ...أَيْ : قَضَى اللَّهُ بَيْنَهُمْ بِحَسَبِ عَمَلِهِمْ مَعَ رَسُولِهِمْ." [1] فينجي الله الرسل ويعذب المكذبين.

---

[1] – ينظر : تهذيب اللغة ، لأبي منصور الأزهري الهروي، (370هـ)، ت: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت . ط/1، 2001م.ج/ 8 ص: 298. ، ولسان العرب ، ج/7 ص :377. ، ومفردات غريب القرآن ، ص:445.

[1] – التحرير والتنوير، ج/11 ، 188.

وأما لفظة (الحق) فلها معان عدة ، "قَالَ اللَّيْث: الْحق:نقيض الْبَاطِل، تَقول حَقّ الشيءُ يَحِقّ حَقّا مَعْنَاهُ:وَجب يجب وجوبا.وَتقول يَحِقّ عَلَيْك أَن تفعل كَذَا وَكَذَا، وَأَنت حقيق عَلَيْك ذَلِك، وحقيق عليّ أَن أَفعلهُ." [2]

ويقول الراغب : " أصل الحق المطابقة والموافقة ... ويقال لموجب الشيء بسسب تقتضيه الحكمة ، ولهذا قيل في الله تعالى هو الحق ، قال تعالى : (ثم ردوا إلى الله مولييهم الحق)الانعام62... ويقال في الإعتقاد للشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه كقولنا : اعتقاد فلان في البعث والثواب والعقاب والجنة والنار حق ،...ويقال في الفعل والقول الواقع بحسب ما يجب ، وبقدر ما يجب ، وفي الوقت الذي يجب ، كقولنا فعلك حق ، وقولك حق..."[3]

فتلخص من معاني كلمة الحق أنه يرد بمعنى (ضد الباطل ، الواجب ، المستحق ، الحكمة ، الصدق) ، فكلمة الحق أوسع في معانيها ومجالات استعمالاتها ، وأما لفظة القسط فأغلب ورودها في القرآن جاء مقترنا بالميزان والحكم بين الناس ، وذلك كله متعلق بأحكام الدنيا ، وعلى هذا التخريج وجه ابن الزبير رحمه الله سبب إبدال كلمة (القسط) ب(الحق) ، وبين أن المراد بالقسط العمل والتسوية فى الحكم ، فمظنة وروده حيث يراد موازنة الجزاء بالأعمال من غير زيادة، كما قال تعالى فى جزاء الكافرين: (جزاء وفاقا) النبأ: 30. أى موازنا لأعمالهم موافقا لها: (ولا يظلم ربك أحدا).

والحق : الصدق ، فوروده حيث يراد تصديق وعيد أو إخبار متقدم ؛ والله سبحانه وعد المؤمنين بزيادة الأجور والإحسان بما يفوت الغايات ويفوق الحصر ولم يجعل جزاءهم على أعمالهم الدينية وفاقا لأعمالهم فى مقادير الجزاء بل قال تعالى: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وقال تعالى: (وسنزيد المحسنين) وقال تعالى: (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) ومنه جعل الحسنة بعشر أمثالها ، وهذا كثير فى الكتاب والسنة .

---

[2] – تهذيب اللغة ، ج/3 ص : 241.

[3] – مفردات غريب القرآن ، ص: 139/138.

ولما كان الوارد فى آيتى الزمر منزلا على الحكم حقا بين النبيين والشهداء والملائكة قال تعالى: (وجئ بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق) ، فجئ بقوله (بالحق)تصديقا لما وُعِدوا من الزيادة وليس موضع ورود القسط .... [1]

فتحقق بإبدال الحق مكان القسط معنى بلاغيا اقتضاه سياق الآية والسورة ، فجاءت الكلمة في موضعها محكمة ، وتلك هي السمة الثابتة لحروف وكلمات القرآن المجيد .

أ . 2 . (الحق/ الصدق):

قالوتعالى﴿ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ العنكبوت:68. وقال في آية أخرى : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ الزمر:32. فأبدلت لفظة (الحق) بلفظة (الصدق) ، فماسر هذا الإبدال ؟ ، وماهي آثاره البلاغية ؟.

فالصدق والكذب أصلهما في الأقوال والأخبار، باعتبار مطابقة الخبر للواقع أو عدم مطابقته ، وقد يستعمل الصدق والكذب في كل ما يحق ويحصل في الإعتقاد ، نحو صدق ظني وكذب ، ويستعملان في أفعال الجوارح ، فيقال : صدق في القتال إذا وفى حقه ، والعكس ، ويعبر عن كل فعل فاضل ظاهرا وباطنا بالصدق ، فيضاف اليه ذلك الفعل الذي يوصف به ، نحو قوله تعالى : ﴿ في مقعد صدق ﴾ القمر:55. [2] والحق والصدق اسمان يطلقان على الدين قرآنا وسنة وأحكاما وما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم عن الله ، يقول الزمخشري وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ بالأمر الذي هو الصدق بعينه، وهو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إِذْ جَاءَهُ

---

[1] – ينظر: ملاك التأويل ، ص :245.

[2] – ينظر مفردات غريب القرآن ، ص : 306/305

فاجأه بالتكذيب لما سمع به من غير وقفة، لإعمال روية واهتمام بتمييز بين حق وباطل، كما يفعل أهل النصفة فيما يسمعون ...[1]

فالحق ضده الباطل ، والصدق ضده الكذب ، ولما تقدم ذكر الباطل في سورة العنكبوت مرتين ، مرة في قوله تعالى : (والذين ءامنوا بالباطل وكفروا بالله) ومرة في قوله تعالى قبل الآية التي معنا : (أفبالباطل يومنون) ناسب أن يقرن الباطل بذكر الحق ، وخلت سورة الزمر من لفظة الباطل ؛ أما لفظة (الحق) فقد تكررت في سورة الزمر ، قال تعالى: ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به ﴾، فجيء بالتقابل بين المكذب بالصدق والمصدق به ،واحتُفظ بلفظة الصدق لأنها محور هذه المقابلة ، إضافة الى ذلك أن ذكر خسران الكافرين في سورة الزمر جاء هكذا﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الآية:63. والكفر بالآيات معناه التكذيب بها ، ويقابل ذلك التصديق ، وأما في سورة العنكبوت﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الآية:52. أي كذبوا فناسب ذكر الحق ذكر الباطل ، كما ناسب ذكر الكذب والكفر ذكر التصديق .

. ب . (الضلال).

ب . 1 . (الضلال / الشقاق) :

قال تعالى﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ البقرة:176. ارتبط الشقاق في الآية في سياق الحديث عن الإختلاف في صدق القرآن .

وقال تعالى﴿ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ الحج :53. ارتبط الشقاق هنا بفتنة أصحاب القلوب المريضة .

---

[1] – الكشاف ، ج/4 ، ص : 128.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ فصلت :52. وهنا ارتبط الشقاق بالكفر بعد بيان الآيات ، وأكدت هذه الآية أن أضل الناس من كان في شقاق بعيد . وهذه الآيات الثلاث لا رابع لها في ذكر الشقاق البعيد .

والشقاق من الشق وهو : " الخرم الواقع في الشيء ، يقال شققته بنصفين ، قال تعالى : (ثم شققنا الأرض شقا)..... والشقاق المخالفة ، وكونك في شق غير شق صاحبك ، أو من شق العصا بينك وبينه ، قال تعالى :(وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من اهله). وقوله : (فإنما هم في شقاق) : أي مخالفة :.[1]

ومعنى الشقاق بَيْنَ فَرِيقَيْنِ والخلافُ بَيْنَ اثْنَيْنِ ، سُمِّيَ ذَلِكَ شِقاقاً لأَن كُلَّ فَرِيقٍ مِن فِرقتي العدواة قصد شقا اي ناحيه غير شق صاحِبِهِ شَقَّ امْرَه يشقه شقا فانْشَقَّ وَتَبَدَدَ اخْتِلافاً وشِقاقاً. فلانٌ العَصَا أَيْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ، وشَقَّ عَصَا الطَّاعَةِ فانْشَقَّت وَهُوَ مِنْهُ... [2]

ومعنى الشقاق في الآيات الثلاث : التيه والحيرة والضلال الفكري وَوَصْفُ الشِّقَاقِ بِالْبَعِيدِ مَجَازٌ عَقْلِيٌّ أَيْ بَعِيدٌ صَاحِبُهُ عَنِ الْوِفَاقِ ..."[3]، فالشقاق ضده الوفاق .

وأما الضلال البعيد فقد ارتبط في الغالب بالكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر من ذلك :

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾ النساء : 116.

وقوله سبحانه: ﴿ مَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾ النساء:136.

---

[1] – مفردات غريب القرآن ، ص :291.

[2] – لسان العرب ، ج/10 ص:183.

[3] – التحرير والتنوير، ج/2 ، ص:127.

وقوله جل إنكره ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾ النساء :167.

وقوله تعالى ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلاَ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ ﴾ الشورى:18.

ومعنى الضلال : " العدول عن الطريق المستقيم ، ويضاده الهداية ، قال تعالى : (فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها) :يونس108. ويقال الضلال لكل عدول عن المنهج عمدا كان أو سهوا ، يسيرا كان أو كثيرا ..." وإذا كان كذلك " ... صح أن يستعمل لفظ الضلال ممن يكون منه خطأ ما ، ولذلك نسب الضلال إلى الأنبياء وإلى الكفار ، وإن كان بين الضلالين بون بعيد ... والضلال ضربان : ضلال في العلوم النظرية ، كالضلال في معرفة الله ووحدانيته ، ومعرفة النبوة ونحوهما المشار اليهما في قوله تعالى : (ومن يكفر بالله وملائكته) ، وضلال في العلوم العملية ، كمعرفة الأحكام الشرعية التي هي العبادات ، والضلال البعيد إشارة لما هو كفر...[1]

ويلاحظ أن لفظ (الشقاق) أبدل مكان لفظ (الضلال) لعلاقة الشمول لأن الشقاق من الضلال ، لكن استعمل الخطاب القرآني الضلال كاسم جنس ليشمل كل أنواعه ، واقترن بالبعيد زيادة في تصوير بشاعة الذنب المذكور قبله و ﴿ الْبَعِيدُ أُرِيدَ قَوِيٌّ فِي نَوْعِهِ الَّذِي لاَ يُرْجَى لِصَاحِبِهِ اهْتِدَاءٌ، فَاسْتُعِيرَ لَهُ الْبَعِيدُ لأَِنَّ الْبَعِيدَ يُقْصِي الْكَائِنَ فِيهِ عَنِ الرُّجُوعِ إِلَى حَيْثُ صدر.[2] أما الشقاق البعيد فهو نوع من أنواع الضلال ، وأقل منه بشاعة ، لذلك ورد في سياق بيان المخالفين من اهل الكتاب ، ومن العرب الذين رأوا الآيات البينات ، وعرفوا الحق ، لكن تنكروا له ، بقولهم : هذا سحر وأساطير وغير ذلك من أنواع الجحود .

---

[1] – مفردات غريب القرآن ، ص : 327.

[2] – التحرير والتنوير ، ج/5 ، ص:202.

فالضلال جاء لبيان خطورة الذنب ، والشقاق جاء لتمييز أهل الباطل عن أهل الحق ، وأهل الخلاف عن أهل الوفاق . فناسبت كل كلمة موضعها ، واتضح أن القرآن الكريم عجيب في إحكام آياته وحروفه وكلماته.

ب . 2 . (الضلال/ التبار) :

جاء ذلك في سورة نوح في دعائه على قومه حين دعاهم الى الله ليلا ونهارا وجهارا وإسرارا ، فعصوه وخالفوا أمره ، فلما أيس منهم قال فيهم ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً ﴾ نوح:24. فدعا عليهم في هذه الآية بالضلال ، وفي نفس السورة ، يقول ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً ﴾ نوح:28. فأبدل في دعائه مكان الضلال التبار ، " والتَبارُ الهَلاكُ وتَبَّرَه تَتْبِيراً أَي كَسَّرَه وأَهلكه. وهؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ أَي مُكَسَّرٌ مُهْلَكٌ وفي حديث علي، كرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ: حَاضِرٌ وَرَأْيٌ مُتَبَّر ، أَي مُهْلَكٌ وتَبَّرَه هُوَ كَسَّرَه وأَذهبه. التَّنْزِيل الْعَزِيز وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَباراً ؛ قَالَ الزَّجَّاجُ: هَلاَكاً، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ كُلُّ مُكَسَّرٍ وَمُهْلَكٍ. وَفِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ وَكُلاًّ تَبَّرْنا تَتْبِيراً، قَالَ الْمُفَسِّرُ ؛ وَكُلُّ شَيْءٍ كَسَّرْتَهُ وَفَتَّتَّهُ، فَقَدْ تَبَّرْتَهُ، وَيُقَالُ تَبَّرَ الشيءُ يَتْبَرُ تَباراً. ابْنُ الأَعرابي: التَّبُورُ الْهَالِكُ ..."[1]

للسائل أن يسأل عن الأول واختصاصه بالإضلال، وعن الثاني واختصاصه بالإهلاك الذي هو التبار؟ . الجواب أن يقال: " لما قال قبل الأولى: ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً) ناسب قوله (ضَلاَلاً) وقال في آخر السورة: ﴿ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً) وهو دعاء بالهلاك، ناسب قوله إلا (تَبَاراً) أي هلاكا." [2] وهذا

---

[1] – لسان العرب ، ج/4،ص:88. وينظر تهذيب اللغة ،ج/14، ص:197.

[2] – كشف المعاني ، ص:367. وينظر درة التنزيل ، ص:1305.، والبرهان في متشابه القرآن، ص:241. وملاك التأويل ، ص:483.

التوجيه يتفق عليه أغلب العلماء ، والضلال والتبار يصبان في واد واحد وهو الهلاك والخسران ، فهذه العلاقة الجامعة بين الكلمتين زادت النص سبكا وترابطا ، وبدل أن تكرر نفس الكلمة استُخدمت كلمة أخرى تقاربها في المعنى ، وذلك لنفي الشعور بالرتابة مع إضفائها تنوعا في المحتوى ، مع زيادة التأكيد ، فبدا الإنتقال طبيعيا من الأمر الخطير إلى الأخطر لأن الدعاء بالضلال أقل هولا من الدعاء بالهلاك .

2 . 2 . 2 . المصادر المبدلة مرة واحدة :

2 . أ (النصيب ، الكفل) :

قال تعالى ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴾ النساء:85.

الْوَسَاطَةُ فِي: إِيصَالِ خَيْرٍ أَوْ دَفْعِ شَرٍّ ، سَوَاءٌ كَانَتْ بِطَلَبٍ مِنَ الْمُنْتَفِعِ أَمْ لاَ . " [1] والنصيب هو: الحظ ، والكفل هو: الحظ أيضا والنصيب والمثل [2]، فما هو السر البلاغي وراء إبدال النصيب بالكفل في الحديث عن الشفاعة السيئة ؟ .

والجواب : أن النصيب قد يكون قليلا أو كثيرا ؛ فذكر المولى سبحانه وتعالى أن للشافع في الشفاعة الحسنة نصيبا ، ونصيب الحسنة كبير، لأن الحسنة بعشر أمثالها ، وأما في الشفاعة السيئة فذكر أن للشافع فيها كفلا منها أي : مثلها ، وذلك لأن السيئة تجزى بمثلها ، كما قال تعالى مَن﴿ جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ الأنعام :160.[3]

ب . (الحديث ، القيل):

قال تعالى ﴿ اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثًا ﴾ النساء:87. وقال أيضا ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً ﴾ النساء :122. فوقع إبدال لفظ (الحديث) بلفظ (القيل) ، والحديث " كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه ...

---

[1] – التحرير والتنوير، ج/5 ، ص:143.

[2] – لسان العرب ، ج/11، ص : 589.

[3] – من أسرار البيان القرآني للسامرائي ، ص : 61.

قال تعالى ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ﴾ التحريم :03. ... وسمى تعالى كتابه حديثا فقال ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ الطور:34." [1]

" والقيل والقول واحد ...وقال تعالى ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ (41) ﴾ فقد نسب القول إلى الرسول وذلك أن القول الصادر إليك عن الرسول يبلغه إليك عن مرسل له ، فيصح أن تنسبه تارة إلى الرسول ، وتارة إلى المرسل ، وكلاهما صحيح ..." [2] وفي الآيتين وصف الله نفسه بأنه أصدق المتحدثين وأصدق الصادقين ، فما هو السر البلاغي وراء إبدال لفظ (الحديث) بلفظ (القيل) ؟ .

والجواب : أن في هاتين الآيتين استفهام إنكاري، الغرض منه نفي النقص والكذب على كلام الله وذكره ، فهو سبحانه أصدق القائلين وحديثه أصدق الحديث ؛ وقد أثبت الله عزوجل لنفسه القول والحديث ، كما جاء في الآيتين (حديثا ، وقيلا) ، والحديث والقيل عند المفسرين صفتان لكلام الله ، وصف الله بهما كلامه ، ولا يصح أن يشتق منهما اسما لله ، فلا يقال : من أسماء الله (المتحدث والقائل) ، لأن أسماء الله توقيفية .

والكلام عن الفرق بين الحديث والقيل في حق الله تعالى لا يمكن أن نقف عليه ، ولكن يمكن أن نقف على الفرق بين اللفظتين في مجال الكلام البشري ، وذلك من خلال القرآن الكريم .

يرى الباحث أن القيل يعني النطق باللسان ، أي الحروف والكلمات المنطوقة ، والحديث يعني المعاني والموضوعات التي يتضمنها القول ، ومصداق ذلك في كتاب الله ، قوله سبحانه ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَالِ هَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ النساء :87. يقول الفخر الرازي " وَهَذَا يَجْرِي مَجْرَى التَّعَجُّبِ مِنْ عَدَمِ وُقُوفِهِمْ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْكَلاَمِ مَعَ

---

[1] – مفردات غريب القرآن : ص:122/121.

[2] – نفس المصدر ، ص : 458.

ظُهُورِهِ. " [1] ومعنى ذلك أنهم عرب يتكلمون العربية ويفهمونها جيدا ، لكنهم لا يفقهون المعاني الإيمانية التي خاطبهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وتأتي آية أخرى تتحدث عن قبيلة أو جماعة من الناس زارهم ذو القرنين متفقدا لأحوالهم ، فوصفهم القرآن بقوله : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ الكهف : 93. ويعلق الفخر الرازي على هذه الآية بقوله "وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ لُغَةِ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كَانُوا يَفْهَمُونَ اللِّسَانَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ ذُو الْقَرْنَيْنِ ."[2] فمن خلال هذه الآيتين يتضح أن الحديث استعمل للمعاني ، والقول استعمل للسان واللغة .

وهناك معنى آخر نلمحه في جمع المصدرين ، فالحديث جمعه أحاديث ، وورد ذلك في القرآن الكريم خمس مرات ، ثلاث منها في سورة يوسف تعلقت بتعبير الرؤيا ، ومنها قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ يوسف:21. والأحاديث هنا بمعنى الرؤى والمنامات ، والمنامات تتضمن مواضيع معينة معقدة ، تأتي في شكل إشارات ورموز، تحتاج في فهمها إلى خبرة وعلم ، وتأويلها يعني البحث عن معانيها ومقاصدها ، وفك شفراتها ، لذلك صح التعبير عن المنامات بلفظ (الأحاديث) ؛ ومما يشبه هذا أيضا تسمية الخواطر النفسية بحديث النفس ؛ ومنه أيضا (المحدث) يُقَالُ لِلرَّجُلِ الصَّادِقِ الظَّنِّ ... وَفِي الْحَدِيثِ كَانَ قَدْ فِي الأُمم مُحَدَّثون، فإِن يَكُنْ فِي أُمتي أَحَدٌ، فعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ؛ جاءَ فِي الْحَدِيثِ تَفْسِيرُهُ أَنهم المُلْهَمُون ؛ والمُلْهَمُ هُوَ الَّذِي يُلْقَى فِي نَفْسِهِ الشيءُ، فيُخْبِرُ بِهِ حَدْساً وفِراسةً، وَهُوَ نوعٌ يَخُصُّ اللهُ بِهِ مَنْ يشاءُ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى مِثْلَ عُمر." [3]

ووردت أيضا لفظة (أحاديث) بمعنى الأحداث التي أصبحت من الزمن الماضي ، وصارت تلقى أخبارا ، قال تعالى عن أهل سبأ: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ

---

[1] – مفاتيح الغيب ، ج/10 ، ص : 146.

[2] – نفس المصدر ، ج/21 ، ص :498

[3] – لسان العرب ، ج/2 ، ص :134.

أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ سبأ:19. أي أخبارا يتداولها الناس بينهم ؛ ووردت لفظة (أحاديث) في سورة (المؤمنون) في سياق مشابه لسورة سبأ.

ومما يشبه هذا المعنى أيضا قوله تعالى عن بني إسرائيل :﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ البقرة:76. أي : أتخبرونهم بأسراركم .

ومنه أيضا قوله تعالى:﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ الضحى :11. " فإن التحدث بها شكرها، وقيل المراد بالنعمة النبوة والتحديث بها تبليغها."[1]

ولم يأت التعبير ب(أقاويل) في القرآن الكريم إلا مرة واحدة ، وجاء بمعنى الكذب والإفتراء ، قال تعالى:﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (42) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (43) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47)﴾ سورة الحاقة . " والتقول: أن يقول الإنسان عن آخر أنه قال شيئا لم يقله "[2] ، وهذه الآيات جاءت للتأكيد على أن القرآن الكريم هو كلام الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وليس للنبي صلى الله عليه وسلم فيه إلا تلاوته على مسامع الناس ، لذلك رزقه الله العصمة ، (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) ونفى عن قوله الشعر والكهانة والكذب ، وأكد أن القرآن نسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلم لا تتعدى (القول) أي النطق به ، ولو حدث على سبيل الإفتراض أن تقوَّل على الله ما لم يقله فسيكون مصيره كذا وكذا .

وما يهمنا من ذكر هذه الآية هو نسبة القرآن إلى قول النبي وليس لكلامه ، وإن كان القرآن لفظا ومعنى من عند الله ، فإن نسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلم تعني النطق به فقط ، فتبين أن معنى القول في أصله ينصرف إلى النطق باللسان كما يقول الراغب القَوْلُ يستعمل على أوجه: أظهرها أن يكون للمركّب من الحروف

---

[1] – أنوار التنزيل ، ج/5 ، ص :320.

[2]- المحرر الوجيز ، ج/5، ص :362.

المبرز بالنّطق، مفردا كان أو جملة، فالمفرد كقولك: زيد، وخرج. والمركّب، زيد منطلق، وهل خرج عمرو، ونحو ذلك . " [1]

ويمكن أن نضيف إلى ذلك أنه لما كان مجال النحو وغايته حفظ اللسان العربي من الوقوع في الزلل والخطإ ، لم يتعرض النحاة لمسألة الفرق بين الحديث والقول ، وإنما تناولوا قضية الفرق بين الكلام والقول .

وخلاصة الكلام :أن الحديث والقيل وإن ترادفا أحيانا في كلام الناس إلا أن القرآن الكريم خصص لكل منهما مجاله بدقة ؛ وفي مثل ذلك يقول الجاحظ : " وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها. ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر. والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة. وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث. ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين. ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين، ولا السمع أسماعا. والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال. البيان "[2]

فاستعمال القرآن لفظ الحديث جاء في سياق ذكر يوم القيامة والحشر ، ووقائع ذلك من الغيبيات التي نقلت إلينا أخبارا ، فجاء التعبير بـ (ومن أصدق من الله حديثا) متناسبا مع موضوع السياق ، وكما تقرر أن لفظ الحديث موضوع للمعاني والأخبار؛ وأما في الآية الثانية فجاء التعبير بـ (ومن أصدق من الله قيلا) ، في سياق ذكر ما وعد الله به المؤمنين من النعيم .

يقول ابن الزبير في ذلك : " أن الآية الأولى جاءت في سياق الإخبار عن الجمع يوم القيامة ، وأن ذلك يوم لا ريب فيه ، فناسب أن يعبر عن ذلك بصدق الحديث ، وأما الآية الثانية فجاءت في سياق الوعد بالجنة والنعيم والأزواج المطهرة

---

[1] – المفردات في غريب القرآن ، ص : 688.

[2] – البيان والتبيين ، ج/1 ، ص :41.

للمؤمنين ، والواعد يجب أن يكون وعده حقا ، و قوله صدقا ، ولذلك قال سبحانه (وعد الله حقا) وأردفه بقوله : (ومن اصدق من الله قيلا) ."[1]

جـ . (أملا ، مردا):

قال تعالى ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ الكهف : 46. وقال أيضا ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴾ مريم :76. فوقع الإبدال بين قوله : (أملا) و(مردا) ، " وقال ابن عباس : الباقياتُ الصَّالحاتُ : كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة ورجحه الطبري وقوله .خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً صاحبها ينتظر الثواب وينبسط على خير من حال ذي المال والبنين دون عمل صالح." [2]

وَالْمَرَدُّ، الْمَرْجِعُ، مُرَادٌ بِهِ عَاقِبَة الأَمر."[3] فاستعمل لفظ الأمل في سياق ذكر متع الحياة ومقوماتها من مال وبنين ، وهاته الأشياء هي غاية الإنسان في الحياة ، وهي أمله الذي له يعيش وبه يسعد ، فأراد المولى سبحانه أن ينبه المؤمنين إلى أن خير الأمل ومفتاح السعادة في العمل الصالح والطاعة لله (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) ، وأما الآية الثانية فجاءت في سياق ذكر الحشر والحساب ، وهو مقام يقتضي أن يبحث فيه الإنسان عن النجاة والعافية ، فاستعمل القرآن ذكر (المرد) ، وهو المرجع والمآب الذي يأوي اليه المؤمنون وقت الفزع ، فشبه المولى سبحانه وتعالى الأعمال الصالحة بالمكان الآمن الذي يفزع اليه الخائفون ، وكما جاء في الحديث (المؤمن في ظل صدقته) بيانا لأثرها في حفظ صاحبها من الخوف والفزع والعقاب.

---

[1] –ملاك التأويل ، ص:108.

[2] – تفسير ابن عطية ، ج/3 ، ص:520.

[3] – التحرير والتنوير، ج/16 ، ص:158.

د . (إمرا ، نكرا):

قال تعالى : ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ الكهف :71. وقال أيضا :﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾ الكهف :74. فأبدلت لفظة (إمرا) في الآية الأولى بلفظة (نكرا) في الآية الثانية ،.

والإمر: " المنكر ، من قولهم : أمِر الأمر، أي كُبر وكثُر ، كقولهم استفحل الأمر." [1] والنكر " الدهاء والأمر الصعب الذي لا يعرف ."[2] وكلا المصدرين استعملا في التعبير عن بشاعة الفعل المرتكب ، إلا أن التعبير بالنكر أشد ، ولذلك استعمل كل مصدر في وصف ما يليق به من الأفعال .

ففي الآية الأولى خرق الخضر عليه السلام سفينة المساكين الذين كانوا يعملون في البحر ، فاستنكر ذلك موسى عليه السلام ووصف الفعل بأنه (إمرا) أي ظلما واعتداء وجرما كبيرا ، ولكن في الآية الثانية كان الفعل أخطر وأكثر إجراما ، وذاك حين قتل الخضر ذلك الغلام الصغير بغير حق ، فحز ذلك في نفس موسى وانطلق لسانه مستنكرا ذلك الفعل ، ومعبرا عنه بأشد الألفاظ إنكارا فقال له : (لقد جئت شيئا نكرا) فناسب كل تعبير الفعل الذي اقترن به .

هـ . (ضرا ، سوءا) :

قال تعالى :﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ الأحزاب :17. وقال سبحانه وتعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا

---

[1] – مفردات غريب القرآن ، ص: 29.

[2] – نفس المصدر ، ص: 558.

يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ الفتح:11.

الضر والضر لُغَتَانِ فَالضَّرُّ الْمَصْدَرُ ، والضُّرُّ الاسْمُ، وَقِيلَ : هُمَا لُغَتَانِ كالشَّهْدِ والشَّهَادَةِ. وَكُلُّ سُوءِ حَالٍ وَفَقْرٍ أَوْ شِدَّةٍ فِي بَدَنٍ فَهُوَ ضُرٌّ ، وَمَا كَانَ ضِدًّا لِلنَّفْعِ فَهُوَ ضَرٌّ ." [1] ومعنى ذلك : " أن الضر بالفتح يعني الضرر في كل شيء ، وبالضم الضرر في النفس من مرض وهزال... "[2] وأما (السوء) فهو المصدر، وَالاسْمُ السُّوءُ، وَ السَّوْءُ مَصْدَرُ سُؤْتُه أَسُوءُه سَوءًا، وأَما السُّوءُ فاسْم الفِعْل."[3] والمعنى : أن السوء بالفتح ، يضاف إلى ما يراد ذمه كقولك : فلان رجل سوء ، وأما بالضم ، فمعناه الشر؛ وفرق ابوهلال العسكري بين الإساءة والمضرة فقال : "أن الإِسَاءَةَ قبيحة وَقد تكون مضرَّة حَسَنَة إِذا قصد بهَا ما يحسن نَحْو الْمضرَّة بِالضَّرْبِ للتأديب وبالكد للتعلم والتعليم ." [4]

فلدينا كلمتان (السوء) بالضم ، و(الضر) بالفتح ، والأولى جاءت في سياق ذكر المنافقين ، والثانية وردت في سياق الأعراب المتخلفين عن الغزو ، فأما المنافقون ففروا من مواجهة العدو ، وخذلوا المؤمنين ، فجاءت الآية الأولى مفتتحة بقوله تعالى : (قل فمن ذا الذي يعصمكم) ، وهو تحذير خاص للمنافقين الذين فروا من ميدان المعركة خوفا من الموت ، السُّوءُ بِالرَّحْمَةِ لأَنَّ الْمُرَادَ سُوءٌ خَاصٌّ وَهُوَ السُّوءُ الْمَجْعُولُ عَذَابًا لَهُمْ عَلَى مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُوءُ النِّقْمَةِ فَهُوَ سُوءٌ خَاصٌّ مُقَدَّرٌ مِنَ اللَّهِ لأَجْلِ تَعْذِيبِهِمْ إِنْ أَرَادَهُ، فَيَجْرِي عَلَى خِلاَفِ الْقَوَانِينِ الْمُعْتَادَةِ. [5] وأما الأعراب المتخلفون فخاطبهم الله بقوله : (قل فمن يملك لكم من الله شيئا) أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ يَقُولَ لَهُمْ مَا فِيهِ رَدُّ أَمْرِهِمْ إِلَى

---

[1] – لسان العرب ، ج/4 ، ص :483.

[2] – معاني الأبنية في العربية ،د/صالح فاضل السامرائي ،جامعة الكويت ، ص : 30/29.

[3] – ينظر القاموس المحيط ، للفيروزآبادى (817هـ)، مؤسسة الرسالة، لبنان ، ط/8 ، 2005 م.

[4] – الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ، ص:199.

[5] – التحرير والتنوير، ج/21 ، ص:292.

اللَّهِ لِيُعْلِمَهُمْ أَنَّ اسْتِغْفَارَهُ اللَّهَ لَهُمْ لاَ اللَّهَ عَلَى الْمَغْفِرَةِ بَلِ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ إِذَا ارادَه فإن كان ارادَ بِهِم نفعا نفعهم وإن كان ارادَ بِهِم ضرا ضرهم فما كان مِن النصح لأَنْفُسِهِمْ أَنْ يَتَوَرَّطُوا فِيمَا لاَ يُرْضِي اللَّهَ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ فَلاَ يَغْفِرُ لَهُمْ، فَالْغَرَضُ مِنْ هَذَا تَخْوِيفُهُمْ مِنْ عِقَابِ ذَنْبِهِمْ إِذْ تَخَلَّفُوا عَنْ نفير النبيء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَذَبُوا فِي الاِعْتِذَارِ لِيُكْثِرُوا مِنَ التَّوَبَّخِ لِلْمُؤْمِنِينَ ...[1] فالتعبير بالسوء وهو إرادة المكروه جاء متناسبا في سياق ذكر المنافقين ، وإبداله ب(الضر) في سياق الحديث عن الأعراب المسلمين المتخلفين ، ناسب حالهم لأن الله لا يريد لهم السوء وهم عباده المؤمنون ، وإنما خوفهم بالضر ، لأن في الضر تأديب لهم وتهذيب .

ز . (تأثيما ، كِذّابا) :

قال تعالى في نعيم السابقين المقربين ﴿ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا ﴾ الواقعة : 25. وقال سبحانه وتعالى في وصف المتقين ﴿ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ كِذَّابًا ﴾ النبأ:35. فأبدل لفظة (تأثيما) بلفظة (كِذّابا) ، فما هي الأسرار البلاغية وراء ذلك ؟ ، وما معنى الكلمتين ؟.

سُبِقت هاتان الكلمتان بنفي سماع اللغو في الجنة ، واللغو معناه : " كل مطروح من الكلام لايعتد به "[2] أي ما لا يعتبر من الكلام الزائد مما لا فائدة فيه ، فأهل الجنة مشتركون في هذا النعيم ، والإختلاف وقع في ما ذكر بعد اللغو من تأثيم ، وكِذّابا . ﴿ وَالإِثْمُ وَالتَّأْثِيمُ: ، وَهُوَ مَصْدَرُ أَثَّمَ، إِذَا نَسَبَ غَيْرَهُ إِلَى الإِثْمِ . "[3] والإثم : الذنب الذي يؤاخذ به ﴿ وَكِذَّابًا ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَتَشْدِيدِ الذَّالِ مَصْدَرُ كَذَّبَ .

---

[1] – نفس المصدر، ج/26 ، ص:162.

[2] – ينظر: الكليات لأبي البقاء الكفوي (1094هـ) ، ت: عدنان درويش - محمد المصري. مؤسسة الرسالة – بيروت.ص:657. و التعريفات للجرجاني ، ص :135.

[3] – التحرير والتنوير ،ج/27 ، ص : 296.

الْفِعَّالُ بِكَسْرِ أَوَّلِهِ وَتَشْدِيدِ عَيْنِهِ مَصْدَرُ فَعَّلَ مِثْلَ التَّفْعِيلِ ، وَنَظَائِرُهُ مَصْدَرُ
وَصَارَ ، وَالْإِضَاءُ مَصْدَرُ وَضَى، وَالْخِرَاقُ مَصْدَرُ خَرُقَ وَعَافَ ، وَالْإِسَارُ مَصْدَرُ
وَعَنِ الزَّجَّاجِ أَنَّ أَصْلَ هَذَا الْمَصْدَرِ مِنَ اللُّغَةِ الْيَمَنِيَّةِ." [1]

وعلى ما تقرر فإن التأثيم أعم من الكِذّاب وأبلغ منه ، فلذلك جاء نفي التأثيم في مقام السابقين ، وهم الأعلى درجة ، وجاء نفي الكِذّاب في مقام المتقين وَأَوْثَرَ هَذَا الْمَصْدَرُ هُنَا دون تَكْذِيب لِمُرَاعَاةِ التَّمَاثُلِ فِي فَوَاصِلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَإِنَّهَا عَلَى نَحْوِ النَّأْسِيسِ فِي الْقَوَافِي، وَالْفَوَاصِلُ كَالْأَسْجَاعِ وَيَحْسُنُ فِي الْأَسْجَاعِ مَا يَحْسُنُ فِي الْقَوَافِي .[2]

---

[1] – نفس المصدر، ج/30 ، ص:40.

[2] – نفس المصدر، نفس الجزء ، ونفس الصفحة.

2. 3 . الإبدال في باب أسماء الفاعلين والمفعولين والصفة المشبهة واسم التفضيل .

3 . 1 . الإبدال بين أسماء الفاعلين :

ومن وجوه الإبدال في القرآن الكريم ، الإبدال بين أسماء الفاعل ؛ " واسم الفاعل كما يقول النحاة يدل على الحدث والحدوث وفاعله ، ويقصد بالحدث معنى المصدر ، وبالحدوث ما يقابل الثبوت فـ(قائم) ـ مثلا ـ اسم فاعل يدل على القيام وهو الحدث ، وعلى الحدوث أي : التغير ، فالقيام ليس ملازما لصاحبه ، ويدل على ذات الفاعل أي : صاحب القيام . " [1]

وقد جاء الإبدال في بعض أسماء الفاعلين تارة مرتين ، وأخرى مرة واحدة ، وستكون البداية من المكرر ، ويُلحق به غير المكرر ، كما مر في بحث المصادر.

3 . 1 . 1 . الأسماء المبدلة مرتين :

. أ . (محسنين ، متقين):

جاء ذلك في قوله تعالى :﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حقا على المحسنين ﴾ البقرة :236. وفي قوله سبحانه : ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حقا على المتقين ﴾ البقرة: 241. و(المحسنين) جمع محسن ، وهو اسم فاعل معناه : المنعم المتفضل السابق بالخيرات ، و(المتقين) جمع متقي ، وهو اسم فاعل معناه : الممتثل أمر الله عز وجل فعلا وتركا ، والسؤال المطروح هنا لماذا أبدل لفظ المحسنين بالمتقين ؟ ، والجواب : " أن الآية الأولى: في المطلقة قبل

---

[1] – معاني الأبنية في العربية ، ص : 46.

الفرض والدخول، فالإعطاء في حقها إحسان لا في قبالة شيء لا تسمية ولا دخول. وهو وإن أوجبه قوم فهو في الصورة مجرد إحسان، فناسب: (المحسنين).

والآية الثانية في المطلقة الرجعية، والمراد بـ (المتاع) عند المحققين النفقة، ونفقة الرجعية واجبة والمراد بـ (المتاع) عند المحققين، فناسب: حقا على المتقين، ورجح أن المراد به النفقة: أنه ورد عقيب قوله: (متاعا إلى الحول) والمراد به: النفقة، وكانت واجبة قبل النسخ، ثم قال: " وللمطلقات " فظهر أنه النفقة في عدة الرجعية بخلاف المطلقة البائن بخلع فإن الطلاق من جهتها فكيف تعطى المتعة التي شرعت جبرا للكسر بالطلاق وهي الراغبة فيه وباذلة المال فيه، فظهر أن المراد بـ (المتاع) هنا: النفقة زمن العدة لا المتعة. " [1]

وللعلماء في هاتين الآيتين اضطراب كثير في حكم المتعة هل هي واجبة بقوله (حقا على) أو مندوبة بقوله : (المحسنين) ، وهذا مجال الفقه .

. ب . (محسنين ، مؤمنين) :

قال تعالى : ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ البقرة : 97. وقال عز وجل : ﴿ ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ﴾ الأحقاف: 12. جاءت البشارة في الآيتين مرتبطتين بوصفين مختلفين ، ففي الآية الأولى (للمؤمنين) ، وأبدل مكانها في الثانية ب(المحسنين) وهنا يطرح السؤال مامعنى اللفظتين وما علاقة كل منهما بموضعه ؟.

والجواب أن البشارة الخبر الدال على حصول الخير العظيم وهذا لا يحصل إلا في حق من اتصفوا بصفات الإسلام والإيمان والإحسان ، وهذه

---

[1] – كشف المعاني ، ص :117.

الثلاثية هي التي وردت في حديث جبريل عليه السلام [1] الذي سأل فيه النبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان ، وكان يسأله ويصدقه .

واختصت آية البقرة بذكر (المؤمنين) لأنها مفتتحة بوصف إيمان المتقين بالغيب واليوم الاخر ، وذكر فيها وصف الكافرين الذين لايؤمنون ولوجاءتهم كل آية ، وذكر فيها وصف المنافقين الذين قالوا آمنا في ظاهرهم وفي بواطنهم كافرون ، وذكر فيها وصية الله لأهل الكتاب بأن يؤمنوا بالقرآن ولا يكونوا أول الكافرين به ، وختمت السورة ب(آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون).

وأما إبدال (المؤمنين) ب(المحسنين) في سورة الأحقاف فلسببين اثنين أولهما : قوله تعالى: (لتنذر الذين ظلموا) الَّذِينَ ظَلَمُوا هُمُ الْمُشْرِكُونَ (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) لُقْمَانَ: 13 يَلْحَقُ بِهِمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِذَلِكَ قُوبِلَ بِالْمُحْسِنِينَ. فَالْمُؤْمِنُونَ الْأَتْقِيَاءُ لِأَنَّ الْمُرَادَ ظُلْمُ النَّفْسِ وَيُقَابِلُهُ الْإِحْسَانُ ."[2] والسبب الثاني : أنه روعي في استعمال لفظ (الإحسان) ما سيذكر بعدها من الوصية بالوالدين والإحسان إليهما.

. جـ . (مؤمنين ، متقين):

قال تعالى: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران :68. وقال أيضا :إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ الجاثية :19. جاء في الآية الأولى ذكر ولاية الله للمؤمنين ، وأبدل مكان المؤمنين لفظة (المتقين) ، والسر وراء ذلك أن آية آل عمران ذكر فيها لفظ المؤمنين (الذين آمنوا) فناسب أن يتكرر لفظ المؤمنين محافظة على النسبة والتخصيص ، وأما في سورة الجاثية فإنها سبقت بذكر الشريعة ، والشريعة أحكام فيها الأوامر والنواهي ، وامتثال الأوامر

---

(1) – ينظر الترغيب والترهيب ، ج/1، ص:141.

(2) – التحرير والتنوير، ج/26 ، ص:26.

والنواهي هو عين التقوى ، قال تعالى ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ الآية :18. فإبدال المؤمنين بالمتقين وفى معناه حق الوفاء ، وأوضح أحقية الموضع بذكر (المتقين) .

. د . (الكافرون ، المسرفون):

قال تعالى ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ الأنعام :122. وقال سبحانه وتعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ يونس :12. أبدلت لفظة (الكافرين) ب(المسرفين) ، والكافر اسم فاعل من الكفر ، ونقيض الإيمان؛ آمنَّا باللَّه وكَفَرْنا بالطَّاغُوت ؛ كَفَرَ باللَّه يَكْفُر كُفْراً وكُفُوراً وكُفْرَانًا. ويُقَالُ لأَهل دَارِ الْحَرْبِ: كَفَرُوا أَي عَصَوْا وَامْتَنَعُوا. والكُفْرُ: نُكْرَانُ النِّعْمَةِ، وَهُوَ نَقِيضُ الشُّكْرِ. والكُفْرُ: جُحُودُ النِّعْمَةِ، وَهُوَ ضِدُّ الشُّكْرِ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ؛ أَي جَاحِدُونَ. وكَفَرَ نِعْمَةَ اللَّهِ يَكْفُرها كُفُوراً وكُفْرانًا وكَفَرَ بِهَا: جَحَدَها وسَتَرها." [1] والإسراف ضد القصد ، وهو : " مُجاوزةُ القَصْدِ. وأَسْرَفَ فِي مَالِهِ: أَنْفَقَ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ. "[2] و " الإسراف: تجاوز الحد في النفقة، وقيل: أن يأكل الرجل ما لا يحل له، أو يأكل مما يحل له فوق الاعتدال، ومقدار الحاجة. وقيل: الإسراف تجاوز في الكمية، فهو جهل بمقادير الحقوق.

والإسراف: صرف الشيء فيما ينبغي زائداً على ما ينبغي؛ بخلاف التبذير؛ فإنه صرف الشيء فيما لا ينبغي." [1] ويجوز أن يسمى الكافر مسرفا لمجاوزته الحد في العصيان .

---

[1] – لسان العرب ، ج/5 ، ص :144.

[2] – نفس المصدر، ج/9 ، ص:148.

[1] – التعريفات للجرجاني : ص : 21.

وتوجيه الآيتين اللتين معنا أن الآية الأولى تقدمها قوله تعالى: ("كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) ، فذكر فى هذه الآية طرفان قد بولغ فيهما وهما المجعول له نور يمشى به فى الناس لا يفارقه ، والمتخبط فى ظلمات لا يخرج عنها وهما مثلان للمؤمن والكافر ، إضافة إلى ذلك أن سورة الأنعام مفتتحة بقوله تعالى: (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) ، فناسب ذكر الكافرين فيها ، وأما في سورة يونس فأبدل فيها قوله : (للكافرين) إلى قوله (المسرفين) لما فى صفة الإسراف من الاحتمال لمناسبة ما تقدمه من تقلب حالتى الإنسان عند مس الضر إياه وكشفه عنه. فعلى هذا يحتمل أن يكون الإسراف فيما دون الكفر فيكون المتصف به غير منقطع الرجاء إذا لم يبلغ الكفر، قال تعالى: (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) ، فشتان ما بين مسرف راج ومتخبط فى ظلمات كفر داج، فجاء كل على ما يناسب، ولم يكن ليناسب العكس بوجه.[2]

. هـ . (الكافرون ، الفاسقون) :

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ آل عمران :110. وقال سبحانه: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ النحل :83. فوصفت الأكثرية في الآية الأولى ب (الفاسقين) وأبدلت في الثانية بلفظة (الكافرين) ، والفسق معناه : الخروج عن الطاعة ، وعصيان الأوامر ، قال تعالى في وصف الشيطان (ففسق عن أمر ربه) أي عصاه وامتنع من امتثال أمره ، فناسب أن يذكر الفسق وصفا لأهل الكتاب الذين خالفوا أمر الله ، وناسب في الآية الثانية ذكر (الكفر) بمعنى جحود النعمة ، لأن الحديث فيها عن الذين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها.

---

[2] – ينظر: ملاك التأويل ، ص: 169. ودرة التنزيل ، ص:594.

. و . (الكافرون ، المبطلون) :

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاء أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ غافر:78. وقال أيضا : ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ غافر:85.

والخسران في الآيتين تعلق بالمبطلين والكافرين **والْمُبْطِلُونَ هُمُ الْمُعَانِدُونَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ، وَتَرْقَحُونَ** المعجزات الزائدة على قدر الحاجة على سبيل التعنت." [1] والباطل ضده الحق ، (جاء الحق وزهق الباطل) ، فلما ذكر سبحانه القضاء بالحق ، ذكر ما يقابله من خسران المبطلين يوم القيامة ، وأما في الآية الثانية فذكر أنه إذا حل بالناس بأس الله ورأوا العذاب عيانا لاينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، والإيمان ضده الكفر ، فناسب ذكر الكافرين في سياق الحديث عن الإيمان .

. ز . (عابدون ، مخلصون) :

قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ البقرة :138 وقال تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ الآية :139 الصَّبْغُ مَا يُلَوَّنُ بِهِ الثِّيَابُ وَيُقَالُ: صَبَغَ الثَّوْبَ يَصْبُغُهُ بِفَتْحِ الْبَاءِ وَكَسْرِهَا وَفَتْحِ الصَّادِ وَكَسْرِهَا لُغَاتٍ ثَلاَثٌ. وَالصِّبْغَةُ) صَبَغَ كَالْجِلْسَةِ مِنْ جَلَسَ ، وَهِيَ الْحَالَةُ الَّتِي يَقَعُ عَلَيْهَا الصَّبْغُ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ بِصِبْغَةِ اللَّهِ عَلَى أَقْوَالٍ الأَوَّلُ أَنَّهُ دِينُ اللَّهِ

---

[1] – مفاتيح الغيب ، ج/27 ، ص:533.

وَذَكَرُوا فِي أَنَّهُ لم سمي دين الله بصبغة اللَّهِ وُجُوهًا. أَحَدُهَا بَعْضَ النَّصَارَى كَانُوا يَغْمِسُونَ أَوْلَادَهُمْ فِي مَاءٍ أَصْفَرَ يُسَمُّونَهُ الْمَعْمُودِيَّةَ وَيَقُولُونَ :هُوَ تَطْهِيرٌ لَهُمْ وَإِذَا فَعَلَ الْوَاحِدُ بِوَلَدِهِ ذَلِكَ قَالَ : الآن صار نصرانيا. فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قُولُوا صِبْغَةَ اللَّهِ وَهِيَ الدِّينُ ، والإسلام لاوَالسَّبَبُ فِي إِطْلَاقِ لَفْظِ الصِّبْغَةِ عَلَى الدِّينِ طَرِيقَةٌ حَسَنَةٌ كَمَا تَقُولُ لِمَنْ يَغْرِسُ الأَشْجَارَ وَأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَأْمُرَهُ بِالْكَرَمِ: كَمَا يَغْرِسُ فُلَانٌ تُرِيدُ رَجُلاً مُوَاظِبًا عَلَى الْكَرَمِ ، ونظيره قوله تعالى: (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ)يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ) . [1] فلما جاءت الصبغة بمعنى دين الله ناسبه وصف المؤمنين أنفسهم بأنهم عابدون .

وأما الآية الثانية فهي تتحدث عن الأعمال ، والأعمال يُشترط في قبولها شيئان : الإخلاص وموافقة ما أمر الله به ، فلذلك ناسب أن يذكر الإخلاص كشرط في قبول العمل بعد ذكر العبادة التي هي طاعة الله في ما أمر، وتتحقق بإبدال العبادة بالإخلاص ملاءمة كل لمعناه وسياقه.

. ح . (عابدين ، خاشعين) :

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ الأنبياء : 73. وقال أيضا : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ الأنبياء :90، سبقت الآية الأولى بقوله تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72) ﴾ ، فالمذكورون (إبراهيم ، ولوط ، وإسحاق ، ويعقوب) جعلهم الله أئمة في الدين وأوحى إليهم ب(فعل الخيرات ، إقام الصلاة ،

---

[1] – نفس المصدر، ج/4 ، ص:75.

إيتاء الزكاة) وهذه عبادات ، والقائم بها يقال له عابد وجمعه عابدون ، لذلك وصفوا بالعابدين ، فناسب ذكر العبادة موطنه .

وأما في الآية الثانية التي أبدل فيها لفظ العابدين بالخاشعين ، فهي تتحدث عن مقام الدعاء والخضوع والرغبة والرهبة ، وهذا مقام يناسبه الخشوع ، لذلك ناسب إبدال الخشوع بالعبادة محله ومكانه ، وهو الأليق به .

. ط . (هامدة ، خاشعة) :

قال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ الحج: 05.

وقال سبحانه من آياته: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (38) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39) ﴾ سورة فصلت .

فوصفت الأرض في سورة الحج بأنها (هامدة) ، وفي سورة فصلت بأنها (خاشعة) ، والهمود السكون بلا حركة ، من قولك " همدت النار طفئت ، ومنه أرض هامدة لا نبات فيها ، ونبات هامد يابس ... والإهماد الإقامة بالمكان كأنه صار ذا همد ..." [1] فالأرض الهامدة هي التي لا نبات فيها ، فصارت بذلك جرداء

---

[1] – مفردات غريب القرآن ، ص : 604.

قاحلة ميتة ، وقد وصف الله الأرض بأنها تموت وتحيا كالإنسان ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ البقرة:164.

ولما كان سياق سورة الحج عن البعث والخلق والإحياء والإماتة ، ضرب الله مثلا لذلك بالأرض ، ووصفها بالهامدة تشبيها بالجثة الهامدة ، وهي التي خرجت منها الروح ، فناسب هذا الوصف سياقه ، وفي سورة فصلت أبدل وصف الأرض من الهمود إلى الخشوع في تصوير إلهي بديع جاء منسجما مع ذكر مكونات الكون ووصفها بأنها مخلوقات عابدة ولا تعبد ، وجاء المثال بأقرب مخلوق عظيم يعيش عليه الإنسان ويلامسه وهو الأرض ، كاشفا لنا عن سر من أسرارها ، وهو الخشوع والطاعة لله الخالق ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ الإسراء:44. إضافة إلى ذلك جاء في هذا السياق موضع سجدة ، حثا للإنسان بأن ينضم الى صفوف العابدين الخاشعين من كل مخلوقات رب العالمين .

3 . 1 . 2 . الأسماء المبدلة مرة واحدة :

3 . 1 . 2 . أ . (العاكفين ، القائمين):

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ البقرة :125. وقال: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ الحج :26. فوقع الإبدال في الآيتين بين (العاكفين) و(القائمين) ، والعكوف معناه ملازمة الشيء والمواظبة عليه ، قال ابن منظور : " عَكَفَ: عَلَى الشَّيْءِ يَعْكُفُ وَيَعْكِفُ عَكْفاً أَقبل عَلَيْهِ وَوَاظَبَهُ مُواظِباً لاَ يَصْرِفُ عَنْهُ وَجْهَهُ، وَقِيلَ أَقَامَ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ أَي يُقيمون؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً ، أَي مُقيماً." [1] والقائم بالشيء : الفاعل له على وجه المواظبة ، ولكن ذكر العكوف أبلغ من ذكر القيام بالشيء ، ومنه ملازمة المسجد والإعتكاف فيه ، فالإعتكاف هو الملازمة للمسجد وعدم الخروج منه .

وعبر القرآن بالعاكفين في سورة البقرة ليشمل به كل أنواع الزائرين للمسجد الحرام ، فمنهم الذي يصلي ويذهب ، ومنهم من يعتكف فيه يصلي ولا يفارقه ؛ وخصت البقرة باللفظ الأبلغ لما ذكرناه سابقا بأن الجو العام لسورة البقرة التكريم والإنعام ، فناسب ذكر العاكفين فيها ، " ... مع أن لفظ العكوف أخص بالمقصود فيكون خصوص آية الحج بقوله: "والقائمين " لتقدم ذكر العكوف فى قوله تعالى قبل الآية: (سواء العاكف فيه والباد) ، فلما تقدم ذكر العكوف متصلا بالآية وقع الاكتفاء بذلك وعدل عن التكرار الذي من شأن العرب العدول عنه إلا حيث يراد تعظيم أو تهويل ، نحو قوله تعالى: (الحاقة ما الحاقة) وشبه ذلك." [2]

3 . 1 . 2 . ب . (المجرمون ، الظالمون) :

---

[1] – لسان العرب ، ج/9 ، ص:255.

[2] – ملاك التأويل ، ص:49.

قال تعالى :﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ الأنعام :21 ، وقال سبحانه وتعالى أيضا :﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ يونس :17. فأبدلت لفظة (الظالمين) بلفظة (المجرمين) . والجواب " أنه لما قال في الآية الأولى: (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا..) وكان المعنى أنه لا أحد أظلم لنفسه ممن وصف الله تعالى بخلاف وصفه فأوردها العذاب الدائم، كان قوله: (إنه لا يفلح) عائدا إلى من فعل هذا الفعل ، أي: لا يظفر برحمة الله ، ولا يفوز بنجاة نفسه ، من كان ما ذكر من فعله، فبناء الآخر على الأول اقتضى أن يكون: (إنه لا يفلح الظالمون) .

وأما الآية الثانية في سورة يونس وتعقيبها بقوله: (إنه لا يفلح المجرمون) دون قوله: (إنه لا يفلح الظالمون)وإن كان الوصفان لفريق واحد، فلأنهما تقدمتهما الآية التي تضمنت وصف هؤلاء القوم بما عاقبهم به فقال: (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتكم رسلكم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين) (يونس: 14-15) فوصفهم بأنهم مجرمون عند تعليق الجزاء بهم.

وقال بعده: (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعلمون. وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات..) (يونس: 14- إلى الموضع الذي أبطل فيه حجتهم ودفع سؤالهم وهو (..ائت بقرآن غير هذا أو بدله) يونس: 15 فقال تعالى: (إنه لا يفلح المجرمون) ليعلم أن هؤلاء سبيلهم في الضلال سبيل القوم الذين أخبر عن هلاكهم وقال: (كذلك نجزي القوم المجرمين) يونس: 13 ليوقع التسوية بينهم في الوصف كما أوقع التسوية بينهم في الوعيد." [1]

3 . 1 . 2 . جـ . (آمنين ، فرهين) :

---

[1] – درة التنزيل ، ص: 502.

قال تعالى ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴾ الحجر:82. أي : قوم صالح (أصحاب الحجر) ، وتكرر ذلك في قوله تعالى ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾ الشعراء :149. وقرئت (فرهين) ؛ يقول ابن عاشور: " وفرهين صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ فِي قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ فِي وَزْنِ اسْمِ الْفَاعِلِ، مُشْتَقٌّ مِنَ الْفَرَاهَةِ وَهِيَ الْحَذَقُ بِالصِّنَاعَةِ، أَيْ عَارِفِينَ حَذِقِينَ بِنَحْتِ الْبُيُوتِ مِنَ الْجِبَالِ بِحَيْثُ تَصِيرُ بِالنَّحْتِ كَأَنَّهَا وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ. عَامِرٍ وَعَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ فَارِهِينَ بِصِيغَةِ اسْمِ الْفَاعِلِ ." [1]

وحكى القرآن حالهم في سورة الحجر بقوله : (وكانوا ينحتون) ، "وَ آمِنِينَ) حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ يَنْحِتُونَ وَهِيَ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ، أَيْ مُقَدِّرِينَ أَنْ يَكُونُوا آمِنِينَ عَقِبَ نَحْتِهَا وَكَأَنَّهَا لَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْحُصُونِ لاَ يَنَالُهُمْ فِيهَا الْعَدُوُّ لِكِنَّهُمْ نَسُوا أَنَّهَا لاَ تُؤْمِنُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ فَلِذَلِكَ قَالَ مَا (أَغْنى عَنْهُمْ مَا كانُوا يَكْسِبُونَ) . " [2]

وأما في سورة الشعراء ففيها الخطاب مباشرة من سيدنا صالح إلى قومه ، لذلك جاء بضمير التخاطب (وتنحتون) ، والخطاب المباشر في الآية حكى وضعهم وحالهم الذي كانوا عليه حين وعظهم وأنذرهم ، فإبدال لفظة (آمنين) بلفظة (فارهين ، أو فرهين) صورت لنا زيادة على إحساسهم بالأمن ، نمط معيشتهم وهم ينحتون من الجبال بيوتهم وأكنانهم في براعة وحذق ، وهو ما يغري على الخلود الى الدنيا والتشبث بها ، لذلك حذرهم سيدنا لوط من ذهاب ذلك النعيم وهلاكهم إن استمروا في غيهم وتكذيبهم وكفرهم بآيات الله ، لعل ذلك يدفعهم لاتباعه والإيمان بالله ، ولكن عمت أبصارهم عن الحق ونالوا ما يستحقونه من العذاب .

3 . 1 . 2 . د . (لاعبين ، باطلا) :

---

[1] – التحرير والتنوير، ج/19 ، ص:176.

[2] – نفس المصدر، ج/14 ، ص:74.

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ الأنبياء:16.

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ ص:27. وقع الإبدال بين (لاعبين) و(باطلا) واللعب في حق البشر قد يكون محمودا وقد يكون مذموما ولهوا باطلا ، وأما في حق المولى سبحانه وتعالى فمنفي من أصله ، فالله سبحانه وتعالى حكيم ولم يخلق شيئا إلا لحكمة علمها من علمها وجهلها من جهلها ، وليس في ملكه ما يسمى عبثا أو لهوا أو باطلا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وفي هاتين الآيتين يذكر الحق سبحانه وتعالى أنه ما خلق السماء والأرض وما بينهما (للعب ، أو باطلا) فعبر في الأولى باسم الفاعل المجموع ، تعظيما لذاته ، وأبدله في الثانية بالمصدر (الباطل) ؛ وعند النظر في سياق الآيتين نجد أن كل لفظة جاءت في موضعها على حسب المقام الذي تقتضيه ، فالتعبير باللاعبين جاء في سياق التهكم وإهانة الظالمين ، قال تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (12) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (13) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (14) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (15) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) ﴾ .

وأما التعبير ب(الباطل) فجاء في سياق ذكر الخصومات والمحاكمات ، وهي تدور على مبدأ الحق والباطل ، جاء ذلك في ذكر مخاصمة الملكين المتسورين على داود المحراب بادعاء الخصومة ، بأن أحدهما ظلمه خصمه باستيلائه على نعجته الواحدة وضمها إلى نعاجه التسع والتسعين ، وجاء ذلك في سياق ذكر استخلاف داود على الناس وجعله خليفة ، ليحكم بين الناس بالحق ، فالسياق كما يُرى يستدعي أن يكون للفظة (الباطل) مكانا هي أليق به وأجدر ، في إشارة الى أن المولى سبحانه وتعالى أقام ملكه على الحق والعدل وهما من أسمائه سبحانه ، ولو اتبع الحق ﴿ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ المؤمنون :71.

3 . 2 . الإبدال بين أسماء المفعولين .

ومن وجوه الإبدال في القرآن الكريم الإبدال بين أسماء المفعولين ، وقد عرف النحاة اسم المفعول بأنه : ما دل على الحدث ومفعوله ، كـ(مضروب) فدل على الحدث (الضرب) وعلى من وقع عليه الحدث (الشيء المضروب) أو" هو الجاري على يفعل من فعله، نحو ...مكرَم ومنطَلق به ومستخرج ومدحرج. ويعمل عمل الفعل تقول: زيد مضروب غلامه؛ ومكرم جاره، ومستخرج متاعه، ومدحرج بيده الحجر. وأمره على نحو من أمر اسم الفاعل في إعمال مثناه ومجموعه واشتراط الزمانين والإعتماد." [1] وفي هذا المبحث بعض النماذج التي وقع بينها الإبدال.

3 . 2 . 1 . الإبدال بين أسماء المفعولين المكررة :

1 . أ . (رسول ، نبي) :

قال تعالى: ﴿ يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ﴾ الحجر:11.

وقال سبحانه أيضا: ﴿ يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون ﴾ الزخرف:7.

وقع الإبدال بين لفظة (رسول) بمعنى مرسل ، وبين اسم (نبي) و" النبئ يهمز لا يهمز فمن همزه جعله من النبأ وهو الخبر،فعيل بمعنى فاعل لإنبائه عن أمر الله تعالى وشريعته و ما بعثه به وقيل بمعنى مفعول لأن الله أنباه بوحيه و أسرار غيبه..." [2] ، واختار الباحث الرأي الثاني .

فلفظة الرسول إذا لا تعني النبي ، فبينهما فروق دقيقة ذكر منها أبو هلال العسكري في فروقه ، في الباب الأربع والعشرين ، أربع فروق :

01- الفرق الأول باعتبار المصدر ، فالنبوءة مصدرها من الله ، يشرف بها من اصطفاه ويؤيده بالمعجزة ، ، أما لفظة الرسول فقد تطلق على من أرسله الله ، وتطلق على غيره .

---

[1] – المفصل في صناعة الإعراب ،ج/1 ، ص:271.

[2] – مشارق الأنوار على صحاح الآثار ، لعياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل (544هـ)، المكتبة العتيقة ودار التراث ، تونس / القاهرة ، ج/2، ص :1

02- الفرق الثاني باعتبار التحمل ، أي : أن الإنباء قد يكون من غير تحميل نبأ ، فقد تخبر بشيء لم تؤمر بتبليغه ، أما الإرسال فلا يكون إلا بتحميل الرسول رسالة يبلغها .

03- الفرق الثالث باعتبار الإضافة ، فالنبوة تضاف إلى النبي ، ولا تضاف إلى الله ، فلا يقال : نبوة الله ، بل يقال : رسالة الله ، ولذلك قال تعالى لسيدنا موسى ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ الأعراف :144.

04- الفرق الرابع باعتبار التبليغ ، فالرسالة يحملها القائم بها ليؤديها الى غيره ، أما النبوة : فهي تكليف القيام بالرسالة ، فيجوز إبلاغ الرسالات ، ولا يجوز إبلاغ النبوات . [1]

وأضاف القرطبي فرقا خامسا معتبرا في ذلك قوة المدح في اللفظتين ، يقول القرطبي: "لَفْظَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكُلٍّ نَعْتٌ مِنْ هَذَيْنِ النَّعْتَيْنِ أَلَا تَرَى أَنَّ اسْمَ الرَّسُولِ يَقَعُ عَلَى الْكَافَّةِ وَاسْمُ النَّبِيِّ لَا يَسْتَحِقُّهُ إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَفُضِّلَ الْمُرْسَلُونَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بِأَنْ جَمَعُوا النُّبُوَّةَ وَالرِّسَالَةَ.[2]

واشار ابن حجر الى ملمح آخر معلقا على كلام القرطبي : "فَإِنَّ النَّبِيَّ وَالرَّسُولَ اشْتَرَكَا فِي أَمْرٍ عَامٍّ وَهُوَ النَّبَأُ وَافْتَرَقَا فِي الرِّسَالَةِ الَّذِي ذَكَرَهُ فِي الْفَرْقِ الرَّسُولُ وَالنَّبِيُّ مُقَيَّدٌ بِالرَّسُولِ الْبَشَرِيِّ ، وَإِلَّا فَإِطْلَاقُ الرَّسُولِ كَمَا فِي اللَّفْظِ هُنَا وَلُ الْمَلَكَ كَجِبْرِيلَ مَثَلًا ، فَيَظْهَرُ لِذَلِكَ فَائِدَةٌ أُخْرَى ، وَهِيَ تَعَيُّنُ الْبَشَرِيِّ دُونَ الْخَلَلِ فِي الْكَلَامِ مِنَ اللَّبْسِ .[3]

وهذا الملمح الذي ذكره ابن حجر يركز على خصوص لفظ النبوة بالأنبياء ، وعموم لفظة الإرسال في الأشياء ، فقد ورد في القرآن الكريم لفظ الإرسال مقرونا بعدة أشياء كـ : (الريح والرياح ، العذاب ، المطر ، الطير، الشياطين... الخ) .

---

[1] – الفروق لأبي هلال العسكري ، ص:289.

[2] – تفسير القرطبي ، ج/1 ، ص : 413.

[3] – فتح الباري لابن حجر العسقلاني(852ه) ،دار المعرفة بيروت ، ج/ 11 ، ص :112.

يقول ابن منظور: "قَالَ أَبو الْعَبَّاسِ: الْفَرْقُ بَيْنَ إِرسال اللَّه عَزَّ وَجَلَّ أَنبياءه وإِرْساله الشَّيَاطِينَ عَلَى أَعدائه فِي قَوْلِه تَعَالَى: أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ مريم أَن: 83 إِرْسَاله الأَنبياء إِنما هُوَ وَحْيُه إِليهم أَن أَنذِروا عِبَادِي، وإِرْسَاله الشياطينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَخْلِيَتُه وإِياهم كَمَا تَقُولُ كَانَ لِي طَائِرٌ فَأَرْسَلْته أَي خَلَّيْتُهُ وأَطلقته، وأَما إِرْسَالات، فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ قِيلَ الخَيْل، وَقَالَ ثَعْلَب: الْمَلَائِكَة. والمُرْسَلة تَقَعُ عَلَى الصَّدْرِ الْوَقِيلَة القِلادة فِيهَا الخَرَز وَغَيْرُهَا."[1]

وبعد ذكر هذه الفروق يتبين لنا أن لفظ (النبي) أخص ، وأمدح من لفظ (الرسول) كما سبق من كلام القرطبي . ولا يخلو استعمال أحد اللفظين في موضعه من سر بلاغي وترابط معنوي ، وهذا ما سنوضحه بعد ذكر بعض التوجيهات التي ذكرها العلماء في ذلك .

فابن الزبير يرى " أنه لما تقدم في آية الزخرف لفظ (كم) الخبرية وهي للتكثير ناسب ذلك ذكر من يوحي إليه من نبي مرسل أو نبي غير مرسل، فورد هنا ما يعم الصنفين، عليهم السلام. أما آية الحجر فلم يرد فيها ولا قبلها ما يطلب بالتكثير مع ما تضمنت من قصد تأنيسه، عليه السلام، وتسليته، فخصت بالتعبير باسم الرسالة تسلية له عن قولهم: (إنك لمجنون) بما جرى للرسل قبل، عليهم السلام، من مثل ذلك، ومن البين أن موقع الرسل هنا أمكن في تسليته، عليه السلام، فجاء كل على ما يجب من المناسبة. "[2]

فتوجيه ابن الزبير يُختصر في أن آية الزخرف استعمل فيها لفظ (النبي) لتناسب التكثير في (كم الخبرية) (وكم ارسلنا) ، والأنبياء كما هو معلوم أكثر عددا من الرسل. "الرَّسُولُ فِي الْعُرْفِ هُوَ الْمُنَبَّأُ مِنْ جِهَةِ اللَّهِ بِأَمْرٍ يَقْتَضِي تَكْلِيفًا وَإِنْ لَمْ يُبَلِّغْهُ إِلَى غَيْرِهِ فَهُوَ رَسُولٌ وَإِلَّا فَهُوَ نَبِيٌّ غَيْرُ رَسُولٍ وَعَلَى هَذَا فَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ وَلَا عَكْسَ."[1]

---

[1] – لسان العرب ، ج/11 ، ص:285.

[2] – ملاك التأويل ، ص :289.

[1] – فتح الباري ، ج/ 11 ، ص :112.

وأما آية الحجر فافتتحت ب (ولقد ارسلنا) أي : لتحقيق خبر الإرسال ، فناسب أن يستعمل لفظ الرسول لزيادة التأكيد.

أما ابن جماعة فقد قال : " أن في الحجر: ﴿ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ (10) فذكر الرسالة فقط فناسب: ﴿ يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ) .

وفى الزخرف: تقدم ذكر النبوة في قوله تعالى: ﴿ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ (6) . فناسب: ﴿ يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ).[2]

وإضافة الى ما ذكر يرى الباحث أن هناك ملامح أخرى لكشف الترابط التام بين اللفظة والسورة التي وردت فيها ، وهذه الإشارات تتلخص فيما يلي :

1 . أن موقف الكافرين في سورة الحجر لم يتجه للتشكيك في نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد خاطبوه بقولهم : (ياأيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون)، فكان انكارهم متوجه لمضمون رسالته ، فناسب هنا ذكر الرسل والمرسلين ، أما موقف الكافرين في سورة الزخرف فكان موجها نحو نبوة الأنبياء والإستخفاف بهم ، فقد أنكروا أن يصطفي الله سبحانه وتعالى سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ، و ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ الآية : 31. واستخف فرعون بموسى ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54) ﴾. ، واستخف المشركون أيضا بنبوة عيسى وقالوا ﴿ أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ الآية :58. فناسب التعبير بلفظ النبوة، تقريرا وتأكيدا على شرف المرسلين وعظمتهم ، وأن النبوة اصطفاء خاص من الله سبحانه وتعالى يجعلها حيث يشاء ، لذلك أمر الله النبي صلى الله عليه وسلم بأن يستمسك بالوحي المنزل اليه وأنه شرف له ولقومه ، قال تعالى: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (43) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ

---

[2] – كشف المعاني ، ص:222.

(44) ﴾ . كما قال سبحانه وتعالى في عيسى عليه السلام ﴿إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ الآية :59.

2 . أنه ورد في آخر سورة الحجر الأمر بالتبليغ في قوله تعالى (**فاصدع بما تؤمر**)، ومعناه أد الرسالة كما أمرت ، والأمر بالتبليغ يتناسب مع ذكر لفظة **الرسول**. فتحقق بذلك الترابط بين مفتتح السورة و **مختتمها**. **وأما سورة الزخرف** ، فلم يؤمر فيها النبي صلى الله عليه وسلم بالتبليغ ، وإنما أمر بالثبات على الدين ، والاعتبار بمن مضى من إخوانه الأنبياء والمرسلين .

. 1 . ب . (نبي ، نذير) :

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ **الأعراف** :94. وقال أيضا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ سبأ : 34. فأبدل مكان (نبي) (نذير) ، ونذير صيغة مبالغة من اسم الفاعل (مُنْذِر) ، وهذا الإبدال جاء بين (اسم مفعول وبين مبالغة اسم الفاعل) ، والنبوة سبق الحديث عن معناها ، وأما النِّذارة فمعناها التحذير، وهي أحد شطري النبوة ، فالنبوة بشارة ونذارة ، وقد قال تعالى في وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ **البقرة** :119. فإبدال لفظ (النبي) بـ(النذير) جاء متسقا مع سياق الآية ، فالآية تتحدث عن المترفين ، وهم أصحاب الجاه والمكانة والعيش الرغيد ، فهؤلاء لا ينفع في دعوتهم في الغالب إلا التحذير ، لأن الترف الذي يعيشونه يخشون زواله وفناءه ، وأما أسلوب الترغيب فلا يُجدي معهم ، لأنهم في نَعْمة [1] فاكهين ، وفي ترف وغنى لا يمكنانهم في الغالب من سماع الحق والإلتفات إليه ، فناسب أن يوصف النبي بالنذارة في سياق دعوة المترفين.

---

[1] – النعمة بالفتح ، هي المَسَرَّةُ وَالفَرَحُ والترفه. لسان العرب ، ج/12، ص:580.

. 1 . ج . (نبي ، وزير) :

قال تعالى ممتنا على سيدنا موسى عليه السلام ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هارون نبيا ﴾ مريم :53. وقال في آية أخرى :﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴾ الفرقان : 35. فأبدل مكان النبوة الوزارة ، والوزارة من الأزر ، "يُقَالُ أَزَّرْتُهُ تأْزِيرًا وَآزَرَ فِي حَدِيثِ الْمَبْعَثِ قَالَ لَهُ وَرَقَةُ إِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ نَصَرْتُكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا) [1]أي بَالِغًا شَدِيدًا يُقَالُ آزَرَهُ وآزَرَهُ أَعانه وأَسعده، مِنَ الأَزْرِ القُوَّةِ والشِّدّة؛ وَمِنْهُ حَدِيثُ بَكْرٍ أَنه قَالَ للأَنصار يَوْمَ السَّقِيفَةِ: لَقَدْ نَطَرْتُم وآزَرْتُمْ وآسَيْتُمْ) . " [2] وقد دعا موسى ربه بأن يجعل له وزيرا من أهله يشد به أزره ، قال تعالى على لسان موسى ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) ﴾ سورة طه.

ويلاحظ أن ذكر (الوزير) جاء في سياق مباشرة الدعوة من موسى وهارون ، قال تعالى بعد الآية التي معنا (فقلنا اذهبا ...) ، والملاحظ أيضا أن في آية سورة مريم ذكر الله فعل (وهبنا) ، وفي آية الفرقان الفعل (جعلنا) وحكم (جعل) إذا تعدى إلى مفعولين حكم (صير) ، أي بعد أن لم يكن صار وزيرا ، فجعل دلت على تجدد الصفة في الموصوف ، وألمحت الى بيان استجابة الله لنبيه وإيتائه سؤله.

3 . 2 . 2 . الإبدال بين أسماء المفعولين التي لم تتكرر:

3 . 2 . 2 . أ . (مدحورا ، مخذولا) :

---

[1] – فتح الباري ، ج/121 ، ص :354.

[2] – لسان العرب ، ج/4 ، ص:16.

قال تعالى:﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ الإسراء:18. وقال سبحانه : ﴿لا تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴾الإسراء :22 ، والدحر، والدحور : " الطرد والإبعاد ، يقال : دحره دحورا ..." [1] والخذلان : " ترك من يظن به أن ينصر نُصرته ..." [2]

فجاء في الآية الأولى اسم المفعول (مدحورا) . " والمدحور المهان المبعد المذلل المسخوط عليه" [3]- في سياق ذكر العذاب في جهنم ، والعذاب كما جاء في القرآن الكريم موصوفا بأنه (أليم ، محيط ، مهين ، غليظ ، شديد ...) ، ومن خُلد في النار فهو مطرود من رحمة الله ، فناسب ذكر الدحْر سياق العذاب ، وأما في الآية الثانية فالكلام يتعلق بالدنيا ، وكيف هو حال من أشرك بالله عز وجل ، لذلك عبر باسم المفعول (مخذول) لأن الخذلان يقتضي أن يكون قد اعترى المخذول بعد توقعه أن يكون له وليا أو نصيرا ، فإذا خذله من ظنه ينصره ، أصبح مذموما مخذولا ، وفي هذا تصوير لحال الشارد عن الله ، الذي يتشبث بالمخلوقين ويتخذهم أربابا من دون الله ، فكل مشرك مخذول ، وكل مؤمن منصور ، وإن جرت الأقدار بما يخالف هذه السنة الكونية ، فلأجل حكمة يعلمها الله .

3 . 2 . 2 . ب ، (مدينون ، مبعوثون) :

---

[1] – مفردات غريب القرآن ، ص : 183.

[2] – نفس المصدر ، ص : 160.

[3] – تفسير ابن عطية ، ج/3 ص:458.

قال تعالى حاكيا عن المنكرين المكذبين قولهم ﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ (15) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (16) أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (17) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (18) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (19) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (20) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (21) ﴾ الصافات.

وقال أيضا في نفس السورة ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (50) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (53) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (54) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (55) ﴾ .

في الآية الأولى يحكي القرآن الكريم أقوال المنكرين للبعث بقولهم (أإنا لمبعوثون) ، وفي الثانية قول القرين لصاحبه (أإنا لمدينون) ، والبعث معروف ، وهو إعادة الإنسان الى الحياة بعد الموت ، وحشره ومحاسبته ، وقد جاء ذلك في جو سؤال وحيرة من المنكرين ، بقولهم : كيف يكون البعث بعد أن صار الناس ترابا وعظاما ؟ ، فجاء البيان الإلهي في الرد عليهم بقوله : (فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون) في جملة قصيرة ، تصور سهولة ذلك على الخالق القادر الذي (إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) ؛ وأما في الآية الثانية ، فالحكاية من رجل مسلم من أهل الجنة يحكي قصته مع صديق كان له في الدنيا كاد أن يغرر به ، ويفسد عليه عقله ، فكان يشككه في قضية الحساب يوم القيامة ، والملفت للنظر أن هذا المغرِّر لم يتحدث عن البعث ، كما سبق من أقوال المنكرين ، بل كان اهتمامه بتفنيد قضية المحاسبة ، لأن المدين معناه المحاسَب المُجَازى على أفعاله ، وسمي يوم الحساب بيوم الدين ، أي يوم : الجزاء ، فالإهتمام بتفنيد الحساب يوحي بأن ذلك كان في سياق ارتكاب المعاصي و المخالفات ، وأن هذا الصديق الغاش لصاحبه كان يزين لصاحبه الفسوق والعصيان ، بنفي المحاسبة والمجازاة ؛ والإغراء

على فعل المعصية له جنود كثيرة ، منها : الشهوة ، والشيطان ، والجمال ، والخليل ، لذلك جاء في الحديث ((المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل)) [1].

فمن خلال إبدال اسم المفعول (مبعوثون) باسم المفعول (مدينون) ، برزت صورة الصديق الغاش المغرر بصاحبه ، مما يؤكد اختصاص كل كلمة بموضعها التي وردت فيه ، ولو وضعنا في مكان (مدينون) مبعوثون ، لما تبدت لنا تلك الصورة في شكلها الناصع المبين ، وهنا نكتشف ما للكلمة القرآنية من آثار بلاغية وأسرار بيانية .

3 . 2 . 2 . جـ . (منقعر ، خاوية):

قال تعالى في قوم عاد ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20) ﴾ سورة القمر. وقال في سورة الحاقة عنهم أيضاً: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7) ﴾. واسم النخل اسم جنس جمعي من أَسْمَاءِ الأَسْحَقِ يَجُوزُ فِيهَا التَّذْكِيرُ حَمْلاً عَلَى الْجِنْسِ وَالتَّأْنِيثُ حَمْلاً عَلَى الْجَمَاعَةِ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَزَّ: (أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ) أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ)إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا(وَقُرِئَ: (تَشَابَهَتْ) (السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ)إِذَا(السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ) ....[2] ومعنى الإنقعار في آية القمر: اقتلاع النخلة من أصلها ؛ قال ابن منظور وقَعَّر النخلَةَ فانْقَعَرَتْ هِيَ قَطَعَها مِنْ أَصلها وَسَقَطَتْ ، والشجرةُ انْجَعَفَتْ مِنْ أَصلها وانْصَرَعَتْ هِيَ .وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ : كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ)والمُنْقَعِرُ المُنْقَلِعُ مِنْ أَصلِه وقَعَرْتُ النَّخْلَةَ إِذا قَلَعْتها مِنْ أَصلها حَتى تَسْقُط، وَقَدِ انْقَعَرَتْ هِيَ .[3] ففي سورة القمر وصف المولى جل وعلا قوم عاد بعد

---

[1] –رياض الصالحين ، ت . شعيب الأرنؤوط (مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ط3 : 1998م) ص :144.

[2] – الإتقان في علوم القرآن ، ج/2 . ص: 239.

[3] – لسان العرب ، ج/5 ، ص:109.

أن هلاكوا بأنهم كالنخل المنقعر المقتلع من أصله فسقط ، وهو تشبيه يصور لنا قوة البنية الجسدية عند قوم عاد ، لأن جذوع النخل من أصلب وأشد جذوع الأشجار ، ومن أطولها أعمارا ، وقوم عاد كما حكى القرآن عنهم في الكثير من الآيات أنهم كانوا أشد قوة وبأسا ، فكفروا فأخذهم الله ، وأهلكهم بريح صرصر عاتية ، وصرعوا عن بكرة أبيهم .

ففي سورة القمر صور لنا القرآن الكريم ذلك المشهد العجيب للجثث وهي ملقاة على الأرض كالنخل المقتَلع ، وأما في سورة الحاقة فشبهم بالنخل الخاوية " أَيْ كَأَنَّهُمْ أُصُولُ نَخْلٍ خَالِيَةِ الأَجْوَافِ لاَ شَيْءَ فِيهَا تَمَلُ أَنْ يَكُونَ وَصْفًا لِلْقَوْمِ ، رِيحٍ كَانَتْ تَدْخُلُ أَجْوَافَهُمْ فَتَصْرَعُهُمْ كَالنَّخْلِ الْخَاوِيَةِ الْجَوْفِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الْخَالِيَةُ بِمَعْنَى الْبَالِيَةِ لأَنَّهَا إِذَا بَلِيَتْ خَلَتْ أَجْوَافُهَا، فَشُبِّهُوا بَعْدَ أَنْ أهلكوا بالنخيل البالية .[1] فإبدال وصف النخل بالإنقعار الى الوصف بالخواء ، كشف المشهد من زاويتين ، زاوية هلاك (إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد) في مشهد مباشر ، وزاوية أخرى وهي بعد نهاية المشهد بزمن .

وهناك ملمح بلاغي آخر حققته كل كلمة في موضعها ، وهو تحقيق النسق الصوتي في الفواصل ، ففاصلة سورة القمر(الراء) فوردت فيها لفظة (منقعر)، وأما سورة الحاقة ففواصلها في الغالب (الهاء) فناسبها ذكر لفظة (خاوية).

---

[1] – مفاتيح الغيب ، ج/30 ، ص:622.

3 . 3. الإبدال بين الصفات المشبهة و أسماء التفضيل.

الصفة المشبهة هي : "هى لفظٌ مَصُوغٌ من مصدر اللازم، للدلالة على الثبوت ويغلب بناؤها من لازم باب فرِح، ومن باب شرُف؛ ومن غير الغالب نحو سيّد ومَيِّت: من ساد يسود ومات يموت، وشيْخ: من شاخ يشيخ."[1] ومعنى أنها مشبهة أي : أنها مشبهة باسم الفاعل ، " وذلك من قبل أنها تذكر وتؤنث وتدخلها الألف واللام ، وتثنى وتجمع بالواو والنون ، نحو: (مررت برجل حسن الوجه) و(زيد كريم حسبه) و (شديد ساعده) و(صعب جانبه) ، فترفع ما بعد هذه الصفات من الأسماء بفعلها ... وهي تدل على معنى ثابت فإن قصد الحدوث قيل: هو حاسن الآن أو غدا ، وكارم ، وطائل ، ومنه قوله تعالى﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ هود:12. ... وعدل عن (ضيّق) إلى ضائق ليدل على أنه ضيْق عارض في الحال غير ثابت ..." [2]

3 . 3 . 1 . الإبدال بين الصفات المكررة :

3 . 3 . 1 . أ . (الوصف بالكرم):

أ . 1 . (كريم ، بهيج) :

أوقال تعالى﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ الشعراء: 07. وقال سبحانه﴿ وَالسَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ لقمان :10.

قال تعالى﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ الحج:05. وقال أيضا:﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا

---

[1] – شذا العرف في فن الصرف ، لأحمد بن محمد الحملاوي (1351هـ)، ت: نصر الله عبد الرحمن نصر الله ، مكتبة الرشد الرياض. ص : 63.

[2] – شرح المفصل لابن يعيش ، ج/3 ، ص : 123/122.

رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ ق:07. فوصف نبات الأرض بأنه بهيج ، وأبدل هذا اللفظ بقوله : (كريم) ، فما هو السر وراء هذا الإبدال ؟.

البهجة تعني الحسن الظاهر من الأشياء ؛ " يُقَالُ: رَجُلٌ ذُو بَهْجَةٍ، وَيُقَال: هُوَ حُسْنُ لَونِ الشيْءِ ونَضَارَتُه، وَقيلَ في النّباتِ النّضَارَةُ، وَفِي الإنسانِ الضَحِكُ أَسارِيرِ الوَجْهِ، أَو ظُهُورُ الفَرَحِ البَتّة." [1] والكريم معناه : النفيس من نوعه ، أو هو حسن الباطن والمعدن ، فهو يتعلق بالباطن من الأشياء لا بأشكالها ، يقول ابن منظور: "اللَّئِيمُ نَقِيضُ الكَرِيمِ، والكَرِيمُ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحْمَدُ، فَاللَّهُ عَزِيزٌ كَرِيمٌ، وَجَمَلٌ كَرِيمٌ كَذَلِكَ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ الْعَظِيمِ ابْنُ سِيدَهْ: الكَرَمُ نَقِيضُ اللُّؤْمِ يَكُونُ فِي الرَّجُلِ بِنَفْسِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ آبَاءٌ، وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْلِ وَالإِبِلِ وَالشَّجَرِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْجَوَاهِرِ إِذَا عَتَوُا الْعِتْقَ..."[2] ونستخلص من معاني البهجة والكرم أن البهجة تتعلق بالمظهر والشكل ، والكرم يتعلق بالمعنى والمضمون ، ومن المعروف أن من النبات ما هو جميل الشكل ينتفع بمظهره لا بمادته ، ومنه ما لا جمال لشكله ، ولكنه عظيم المنفعة بمادته ، ومنه من جمع الحسنين جمال الشكل وتعدد المنافع والفوائد . ووصف النبات في الآيات التي معنا مرة بالبهيج ومرة بالكريم ، هو وصف شامل لا يخرج منه نوع من أنواع النبات ، فأبدال لفظة بهيج بلفظة كريم استفدنا من ذلك صورة تامة كاملة عن كل نبات الأرض ، تغني عن الكثير من التعبيرات والجمل والنصوص الوصفية ؛ والسر البلاغي الكامن وراء استعمال كلمة (بهيج ، وكريم) يتجلى عند ربط كل كلمة بسياقها وجو السورة التي وردت فيها ، والسؤال الذي يحتاج إلى جواب هو: ما هي العلاقة بين الكلمة والسورة التي وردت فيها ؟ . وللجواب على ذلك ، يجب أن نستحضر ما ذُكر آنفا ، بأن البهجة للشكل ، والكرم للمضمون ، ونستصحب هذه المعاني للنظر في سياق كل كلمة .

---

[1] –القاموس المحيط ، ص : 181.

[2] – لسان العرب ،ج/12 ، ص:510 .

أما لفظة (بهيج) فوردت في سورتين : (الحج) ، و (ق) ، وسياق سورة الحج يتحدث عن خلق الإنسان من علقة حتى اكتمل وصار سويا ، وقد جاء في عدة آيات أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وصوره في أحسن صورة ، وهذا التصوير يتعلق بالشكل لا بالمضمون ، فكم من جميل فاسق وكافر ومشرك بالله ، وكم من أسود دميم يعلو قدره عند الله ، فسياق الخلق والتصوير ناسبه ذكر البهجة التي تعني المظهر الخارجي والجمال الشكلي ، وهذا المعنى تحقق كذلك في سورة (ق) ففي سياقها أيضا الحث على التأمل في المحسوسات والمظاهر كيف أبدعها الله وزينها ، ومنها بهجة نبات الأرض ، قال تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (6) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) ﴾.

وأما لفظة (كريم) فجاءت في سورتي (الشعراء ، ولقمان) ، وسورة الشعراء في مجملها تتحدث عن الأنبياء (موسى وأبراهيم ونوح ولوط وهود وشعيب ومحمد صلى الله عليهم أجمعين) ، وهؤلاء هم أصفياء الله وخيرة أوليائه ، وهم أنفس الناس نسبا ومعدنا ، وفي مثل ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن أي الناس أكرم ؟ قَالُوا يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، قَالَ: «أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ» قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ ، قَالَ: «فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ يَعْقُوبَ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ إِسْحَاقَ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ». [1] فهؤلاء الأصفياء أكرمهم الله وأعلى قدرهم بما حوته مضامينهم من طاعة وإيمان وأخلاق وتقوى ، لا لمجرد لصورهم وأشكالهم وأنسابهم ، فناسب ورود وصف النبات بالكرم ، سياق الحديث عن الكرام من الخلق ، وهذا المعنى تحقق كذلك في سورة (لقمان) بشكل أوضح وأظهر ، فلقمان الحكيم المخلد ذكره في القرآن الكريم ، وباسمه سميت سورة كاملة ، ماهو إلا رجل بسيط أسود الوجه ، كبير الشفتين ، مشقق القدمين [2]، وباختصار لاشكل له يغري على احترامه ، ولكنه رجل كريم في معناه ، في اخلاقه وتقواه ، في عقله وحكمته ، (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، فنال حظه من جميل الباطن ، وهو الجمال الذي

---

[1] – صحيح البخاري ، ج/4 ، ص:151.

[2] – تفسير ابن كثير ، ج/6 ، ص:333.

يوزن به العباد عند رب العالمين ، ومن هنا نلاحظ أنه لما كان الحديث عن الظواهر والأشكال (جمال الظاهر) وردت لفظة (بهيج) ، ولما كان الحديث عن المعاني والمضامين (جمال الباطن) وردت لفظة (كريم) ، ولا يخفى ما هنالك من الإعجاز البياني الرائع الذي لا يضاهيه بيان .

أ . 2 . (**كريم ، مبين**) :

جاء الإبدال بين الصفة المشبهة (كريم) وبين اسم الفاعل (مبين) في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ الدخان :17. وقال تعالى ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ الدخان:13. فارتبط وصف الكرم في الآية بسيدنا موسى ، وأبدل وصف الكرم بوصف البيان عند وصف النبي صلى الله عليه وسلم ، فما هو السر البلاغي وراء ذلك ؟.

فالوصف بالكريم والمبين يتناسب مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو خير خلق الله وأكرمهم نسبا وأعلاهم قدرا ، وهو أفصح من نطق بالضاد ، أرسله الله إلى الناس أميا ، وأيده بمعجزة البيان ، والقرآن في اصله معجزة بيانية ، فلا ضير إذا أن يوصف النبي صلى الله عليه وسلم بالمبين أو الكريم ، ولكن وصف البيان في حق سيدنا موسى لا يتناسب معه ، بما عرف عنه في القرآن الكريم أنه دعا الله بأن يطلق لسانه ويعينه على إفهام قومه ، قال تعالى على لسانه :﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) ﴾ سورة طه . وقد ذكر القرآن استخفاف فرعون بموسى ، والتشنيع عليه بضعف البيان فـ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ الزخرف :52. قال ابن عاشور: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ القصص :34. وقد حكى اللَّهُ فِي الْآيَةِ عَنْ مُوسَى :﴿وَأَخِي هَارُونُ

---

(1) – الفهاهة : من فَهَّ يَفُهُّ فَهَّهُ وفَهِيهٌ إِذَا جَاءَتْ مِنْهُ سَقْطَةٌ مِنَ العِيِّ وغيره. *ينظر*: اللسان ، ج/13 ، ص :525.

هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي ﴾ القصص: 34و.لَيْسَ مَقَامُ مُوسَى يَوْمَئِذٍ مَقَامَ خَطَابَةٍ وَلاَ تَعْلِيمٍ وَتَذْكِيرٍ حَتَّى تَكُونَ قِلَّةُ الْفَصَاحَةِ نَقْصاً فِي عَمَلِهِ، وَإِنَّمَا مَقَامُ اسْتِدْلاَلٍ وَحُجَّةٍ فَيَكْفِي أَنْ يَكُونَ قَادِراً عَلَى إِبْلاَغِ مُرَادِهِ وَلَوْ بِصُعُوبَةٍ وَقَدْ زَالَ اللَّهُ عَنْهُ ذَلِكَ حِينَ تَفَرَّغَ لِدَعْوَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا قَالَ: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ طه: 36 ." [1] فالإبدال بين الوصفين (كريم ، ومبين) حقق المطابقة التامة بين الصفة والموصوف ، ومن هنا تتجلى بلاغة القرآن وسر إعجازه ، ودقته في استعمال كل لفظ في موضعه الأليق به.

ب . (وصف العذاب) :

ب . 1 . (أليم ، قريب ، عظيم) :

قال تعالى في قصة سيدنا صالح مع قومه:وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ الأعراف :73. وقال في سورة هود: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ هود:64. وقال في سورة الشعراء : ﴿وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ اشعراء:156. فوصف العذاب في الآية الأولى بأنه (أليم) وأبدل هذا الوصف مرة ب(قريب) في هود ، ومرة ب(عظيم) في الشعراء ، وصيغة (فعيل) تدل على " الثبوت مما هو خلقة أو مكتسب ، كطويل ، وقصير ، وخطيب ، وفقيه ، وهذا الوصف يبنى من (فعُل) المضموم العين ، وهذا الفعل يدل على الطبائع وعلى التحول في الصفات ..."[2]

والسؤال المطروح ما هو السر البلاغي وراء إبدال الوصف للعذاب ؟. والجواب على ذلك يكمن أولا في معاني تلك المفردات ، فالألم وصف لأثر العذاب

---

[1] – التحرير والتنوير ، ج/25 ، ص:231.

[2] – معاني الأبنية في العربية ، ص :94.

وما يحدثه ، ووالوصف بذلك فيه توجيه للعقول وإحالتها إلى التجربة والعادة ، فكل إنسان يمر عليه الألم ويعرف طعمه بالتجربة والعادة والإحساس ، ومن عادة الإنسان إذا استشعر الألم أن يفر منه ؛ ووصف العذاب بأنه قريب ، فيه توجيه العقول إلى الخوف من توقعه في أي لحظةومن أي اتجاه ، وإشعارهم بعدم الأمان ؛ ووصف العذاب بأنه عظيم مبالغة في الوعيد وتوجيه العقول الى الخوف من هول مطلعه ومنظره . فاجتمع في هذه الأوصاف صورة متكاملة لوصف العذاب من ناحية الألم الذي يحدثه ، ومن ناحية قربه ، ومن ناحية هوله وشدته وخطورته .

أما عن علاقة كل كلمة بالسورة التي وردت فيها ، فيرى الإسكافي أن التعبير ب(أليم) في الأعراف مبالغة في الوعيد ، لأن السورة تميزت بالمبالغة في الوعظ من قبل سيدنا صالح ، خلافا لباقي السور ، فناسب المبالغة في الوعظ المبالغة في الوعيد ، وأما في سورة هود فالتعبير فيها ب(قريب) لأنه ذكر بعد ذلك قوله : (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام) ، فأجمل وفصل ، وأما في سورة الشعراء ، فناسب التعبير ب(يوم عظيم) ذكر يوم الشرب عندما قال : (لها شرب ولكم شرب يوم معلوم) . [1]ويضيف الزمخشري معنى إضافي حين قال : "عظم اليوم لحلول العذاب فيه ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب، لأن الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد." [2]

---

[1] – ينظر درة التنزيل ، ص :612. والبرهان في متشابه القرآن ، ص:123، وملاك التأويل ، ص :200.

[2] – الكشاف ، ج/3 ، ص :329.

3 . 2 . 3 . الإبدال بين الصفات التي لم تتكرر:

3 . 2 . 3 . أ . الصفة المشبهة (**حنيذ ، سمين**) :

قال تعالى في قصة ضيف إبراهيم المكرمين ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ هود:69. وقال في آية أخرى ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) ﴾ الذاريات .

"قَالَ اللَّيْث: الاشْتِوَاءُ اللحْمِ بالحِجَارةِ المُسَخَّنة، تَقول: حَنَذْتُه حَنْذاً، وَقَالَ فِي قول الله جلّ وعزّ: {فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ} (هُود: 69) . قَالَ: مَحْنوذٌ مَشْوِيّ. " [1] ووصف ابن منظور طريقة الشواء بقوله: "الْحَنِيذُ من اللَّحْمِ الَّذي يُؤْخَذُ فَيُقَطَّعُ أَعْضاءً فيخطلها بالحجارة فيقابل، يَكُونُ ارْتِفَاعُهُ ذِرَاعًا وعَرْضُه أَكْثَرَ مِنْ ذِرَاعٍ فِيمَا بَيْنَهما، ويُجْعَلُ لَهُ بَابَانِ ثُمَّ يُوقَدُ فِي الصَّفَائِحِ بِالْحَطَبِ ، فإذا اشتد حَرُّهَا وذَهَبَ كُلُّ دُخَانٍ فِيهَا ولَهَبٍ أُدخل فِيهِ اللَّحْمُ، وأُغلق البابان بصفيحتين قَدْ كَانَتَا قُدِّرَتَا لِلْبَابَيْنِ ثُمَّ ضُرِبَتَا بِوَبَرٍ أَوْ بِفَرْثِ الشَّاةِ وأُدفئتا إِدفاءً شَدِيدًا لِئَلَّا يَخْرُجَ مِنْهُ شَيْءٌ مِنَ الرَّائِحَةِ فِي النَّارِ سَاعَةً، ثُمَّ يَخْرُجُ كأَنه البُسْرُ قَدْ تَبَرَّأَ اللحمُ مِنَ الْعَظْمِ مِنْ شِدَّةِ نُضْجِه؛ وقِيلَ: الْحَنِيذُ أَن يَشْوِيَ اللَّحْمَ عَلَى الْحِجَارَةِ المُحْمَاةِ، وَهُوَ مُحْنَذٌ... " [2] أي : "مشويّ بالرضف في أخدود.وقيل حَنِيذٍ يقطر دسمه، من حنذت الفرس إذا ألقيت عليها الجل حتى تقطر عرقا، ويدل عليه بِعِجْلٍ سَمِينٍ . "[3] " والسمين: خلاف المهزول.وقد سَمِنَ

---

[1] – تهذيب اللغة ،ج/4 ، ص:268.

[2] – لسان العرب ،ج/3 ، ص:484.

[3] – الكشاف : ج/2 ، ص:410.

سِمَناً ، فهو سَمِينٌ وتَسَمَّنَ مثله، وسَمَّنَهُ غيره. وفي المثل: "سَمِّنْ كلبك يأكك ". والسُّمْنَةُ بالضم: دواء تُسَمَّنُ به النساء. " [1]

فوصف العجل مرة بالحنيذ ومرة بالسمين له أسرار بلاغية ولطائف بيانية تتكشف لنا عند النظر في سياق اللفظتين . ففي سورة هود ، نجد أن نظم الآية جاء هكذا (فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) ، والمعنى كما يقول ابن عاشور : " ... الْفَاءُ فِي فَمَا لَبِثَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى التَّعْقِيبِ إِسْرَاعاً فِي إِكْرَامِ الضَّيْفِ وَتَعْجِيلِ الْقِرَى سُنَّةٌ عَرَبِيَّةٌ تَهُمُّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَبَادَرَ إِلَى قِرَاهُمْ .

وَاللُّبْثُ فِي الْمَكَانِ يَقْتَضِي الِانْتِقَالَ عَنْهُ، أَيْ فَمَا أَبْطَأَ. وَ(أَنْ جَاءَ)يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فَاعِلَ لَبِثَ ، أَيْ فَمَا لَبِثَ مَجِيئُهُ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ، فَمَا أَبْطَأَ مَجِيئُهُ مُصَاحِباً لَهُ، أَيْ وَلَيْسَ جَعْلُ فَاعِلِ لَبِثَ ضَمِيرُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيُقَدَّرُ جَارٌّ لِـ(جَاءَ). وَالتَّقْدِيرُ فَمَا لَبِثَ بِأَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ وَانْتِفَاءُ اللُّبْثِ مُبَالَغَةٌ فِي الْعَجَلِ ." [2]

والعجلة المذكورة في الآية تقتضي أن يكون ذلك في مدة الشوي ، والتقدير : فأتى بالعجل مشويا في وقت وجيز، والعجلة لها علاقة بمدة الشوي لا بالمشوي وصفته ، لذلك ناسب أن يعبر في هذه الآية ب (حنيذ) ، ولا يمكن أن تحل محلها لفظة (سمين) .

وأما في سياق سورة الذاريات ، فنظم الآية جاء هكذا (فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين) ، ومعنى رَاغَ "فِي الْمَشْيِ إِلَى جَانِبٍ ، وَرِيَاغَانُ الثَّعْلَبِ . أَوِ الْمُرَاوَغَةُ حَادَ عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ الضُّيُوفُ إِلَى أَهْلِهِ، أَيْ إِلَى بَيْتِهِ الَّذِي فِيهِ أَهْلُهُ. " [3] ، ونلاحظ في هذه الآية أنه لا مكان لذكر العجلة التي تعلقت في الآية السابقة بمدة نضج العجل ، وإنما جاء السياق لبيان قيام إبراهيم بواجب الضيف ، وإحضاره أعز ما عنده ، والضيف من الواجب أن يكرم ، ويطعم ، ودلالة

---

[1] – الصحاح للجوهري ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار(دار العلم للملايين – بيروت ط4.: 1987 م) ، ج/5 ، ص: 2138.

[2] – التحرير والتنوير،ج/12 ، ص:117.

[3] – نفس المصدر، ج/26 ، ص:358.

(سمين) فيها مدح لسيدنا إبراهيم بالكرم الجميل ، لأن الكريم قد يعطي حق الضيف ويطعمه ، لكن ليس من أعز ما عنده ، إلا إذا كان الضيف له مكانة وقدر ، ويعرف المُضيف أنه لا يليق بأمثاله إلا اللحم المشوي السمين ؛ وسيدنا إبراهيم لم تكن له معرفة بهؤلاء الضيوف ، (قوم منكرون)، وإكرام الضيف المنكر بهذه الكيفية يدل على عظمة المضيف ، صاحب المبادئ العظيمة التي لا تتغير بتغير الأشخاص أو الأحوال ، فناسب إذا ذكر لفظة (سمين) في سورة الذاريات ، وتحقق بهذا الإبدال تكاملا في التصوير ، فالآية الأولى عرضت مشهد العجلة والإهتمام بالضيف ، والآية الثانية عرضت مشهد ما أُكرِم به الضيف ، وهما صورتا مدح لأبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام .

3 . 3 . 2 . 3 . ب . (اسم التفضيل):

إسم التفضيل يصاغ من الأفعال التي يجوز التعجب منها للدلالة على التفضيل ويأتي على وزن أفعل فتقول زيد أفضل من عمرو وأكرم من خالد كما تقول ما أفضل زيدا وما أكرم خالدا ، ولا يبنى من فعل زائد على ثلاثة أحرف كدحرج واستخرج ولا من فعل غير متصرف ك (نعم وبئس) ، ولا من فعل لا يقبل المفاضلة ك (مات وفنى) ولا من فعل ناقص ك (كان وأخواتها) ولا من فعل منفى نحو(ما عاج بالدواء وما ضرب) ولا من فعل يأتى الوصف منه على (أفعل) نحو (حمر وعور) ولا من فعل مبنى للمفعول نحو(ضرب وجن) .[1]

وقد جاء الإبدال في القرآن الكريم بين أسماء التفضيل ، ومن ذلك قوله تعالى في المفاضلة بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ الرعد:34.

---

[1] – ينظر: شرح المفصل لابن يعيش ، ج/3، ص : 134. وهمع الهوامع للسيوطي ،ج/3، ص:73، وشرح ابن عقيل ، ج/3 ،174.

وكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ طه :127.

وقال جل وعلا: ﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ الزمر:26.

وقال سبحانه: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ فصلت :16.

جاء الإبدال في الآيات الأربع بين الكلمات التالية : (أشق ، أشد ، أكبر ، أخزى) ، فما هو السر البلاغي وراء ذلك ؟.

يجدر بنا قبل أن نبحث عن الأسرار البلاغية للإبدال بين هاته الأسماء أن نعرف أصولها ومعانيها ؛ فكلمة (أشق) من المشقة وهو الجهد والكلفة ، "وَيُقَالُ: هُمْ بِشِقٍّ مِنَ الْعَيْشِ إِذَا كَانُوا فِي جَهْدٍ ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الأَنْفُسِ ﴾ النحل : 07. وأصل الشق نِصْف الشَّيْءِ كأنه قَدْ ذَهَبَ بِنِصْفِ أَنْفُسِكم حَتَّى بَلَغْتُموه... "[1] . وعلاقة هذا المعنى بالسورة التي ورد فيها اسم التفضيل أشق ، أن سياقها يتحدث عن المشركين العرب الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، فبين الله أحوالهم واستهزاءهم بالرسول عليه الصلاة والسلام ، وحاجهم في قضية الشرك ، وبين كيدهم ومكرهم وصدهم عن الحق ، و أخبر عن مآلهم ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (32) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (34) ﴾ ، وعذاب الحياة الدنيا الذي توعدهم الله به أنواع .

---

[1] – لسان العرب ،ج/10 ، ص:183.

قال الرازي: " أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَخْبَرَ عَنْهُمْ بِتِلْكَ الأُمُورِ الْمَذْكُورَةِ بَيَّنَ أَنَّهُ جَامَعَ لَهُمُ الْخِزْيَيْنِ بَيْنَ عَذَابِ الآخِرَةِ الَّذِي هُوَ أَشَقُّ، وَأَنَّهُ لاَ دَافِعَ لَهُمْ عَنْهُ لاَ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ أَمَّا عَذَابُ الدُّنْيَا فَالْقَتْلُ، وَالْقِتَالُ، وَاللَّعْنُ، وَالذَّمُّ، وَالإِهَانَةُ..وَإِنَّمَا قَالَ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ أَيْ إِنْ شِئْتَ بِسَبَبِ الْقُوَّةِ وَإِنْ شِئْتَ بِسَبَبِ كَثْرَةِ الأَنْوَاعِ، وَإِنْ شِئْتَ بِسَبَبِ أَنَّهُ لاَ يَخْتَلِطُ بِهَا شَيْءٌ مِنْ مُوجِبَاتِ الرَّاحَةِ، وَإِنْ شِئْتَ بِسَبَبِ الدَّوَامِ وَعَدَمِ الانْقِطَاعِ ... " [1] والمعنى أن عذاب الدنيا الذي توعده الله به عليهم شاق ، وعذاب الآخرة أشق ، ، ونلاحظ أن أشق هي التي أفرزت معنى المشقة في وصف عذاب الدنيا للمشركين ، وهو أمر مرتقب لم يحن وقته بعد ، ولكنه تهديد ووعيد ، وازداد قوة في الوصف بقوله تعالى: (أشق) التي توقف عندها الكلام ، وقُطع عنها ذكر المفضول (أشق من عذاب الدنيا) إضافة إلى أن حرف القاف يقلقل هنا قلقة كبرى ، ويغص الحلق بنطقه ، في إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيمًا (12) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (13) ﴾. فلا يمكن لأي كلمة أن تعبر عن هذا الوصف في هذا المقام غير لفظة (أشق).

وأما ما يتعلق بقوله تعالى : (أشد وأبقى) ، فهذا التركيب جاء في سياق الترغيب والترهيب كعادة القرآن في ذلك ، قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (126) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (127) ﴾ طه. فذكر المولى عز وجل جزاء من أعرض عن ذكره أن له معيشة ضنكا (شديدة) ، ويحشر يوم القيامة أعمى ، ثم ذكر سبحانه أن ذلك سينال أيضا من أسرف (عصى وظلم) ولم يؤمن بآيات ربه ، " كأنه قال: ونحشر على العمى الذي لا يزول أبدا أشدّ من ضيق العيش المنقضي. أو أراد: ولتركنا إياه في العمى أشدّ وأبقى من تركه لآياتنا." [1]

---

[1] – مفاتيح الغيب للرازي ، ج/19 ، ص:46.

[1] – الكشاف ، ج/3 ، ص :96.

يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَذْيِيلاً لِلْقِصَّةِ وَلَيْسَ مِنْ حِكَايَةِ خِطَابِ اللَّهِ لِلَّذِي حَشَرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَخْزَى.

فَالْمُرَادُ بِعَذَابِ الْآخِرَةِ مُقَابِلُ عَذَابِ الدُّنْيَا الْمُفَادِ مِنْ قَوْلِهِ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكَةً، الْآيَاتِ وَاعْتَرَضَ بِأَنَّ تَكُونَ الْجُمْلَةُ مِنْ حِكَايَةِ خِطَابِ اللَّهِ لِلَّذِي حَشَرَهُ أَعْمَى، فَالْمُرَادُ بِعَذَابِ الْآخِرَةِ الْعَذَابُ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ الْمُخَاطَبُ، أَيْ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا وَأَبْقَى لِأَنَّهُ أطول مُدَّة." [2] فالتعبير ب(أشد) سهلت عملية الإضافة (أبقى) فلو قلنا (اشق وابقى) او (أكبر وابقى) أو (أخزى وأبقى) لوجد اللسان فيها ثقلا لا تُذهبه إلا الشدة ، كما أن المعنى المقابل للضنك لا يتحقق تفاضله إلا بالشدة ، وهذا ما يؤكد دقة البيان القرآني في اختيار المفردة المناسبة للمكان المناسب.

وأما قوله تعالى : (أكبر) في وصف عذاب الآخرة ، فجاء في سياق الحديث عن من قضوا ومضوا من الأمم التي كذبت رسلها وعتت عن أمر ربها ، إجمالا دون تعيين، فأخبرنا المولى سبحانه وتعالى أنه أخزاهم في الدنيا ، والخزي : " السوءُ. خَزِيَ الرجلُ يَخْزَى خِزْياً وخَزًى؛ الأَخيرة عَنْ سِيبَوَيْهِ وَقَعَ فِي بَلِيَّة وشَرٍّ وشُهْرَةٍ فذَلَّ وهَانَ. وَقَالَ: " [3] عَذَابِ الْآخِرَةِ بِالْأَكْبَرِ مَعْنًى أَشَدُّ فَهُوَ أَشَدُّ كَيْفِيَّةً مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا وَأَشَدُّ كَمِّيَّةً لِأَنَّهُ أبدي." [4] فناسب في مقام الإخبار عن الأمم السابقة عموما أن يعبر بكلمة (أكبر) التي تفيد العموم وتحتمل عدة تأويلات كما سبق من كلام ابن عاشور.

وأما قوله تعالى : (أخزى) في وصف عذاب الآخرة ، فقد جاء في سياق معين ، فهو يتحدث عن قوم هود (عاد) ؛ فأخبر المولى سبحانه وتعالى أنه عاقبهم بالريح الصرصر ، ليذوقوا عذاب الخزي ، والخزي في حق قوم هود متناسب مع ما كانوا عليه من الإستكبار والعتو ، والزهو بالقوة ، فادعاؤهم القوة والبأس ، ناسب أن يقابل بالذل والخزي والمهانة ، فالله عادل حكيم ، ومن سننه أن يرفع من

---

[2] – التحرير والتنوير، ج/16 ، ص:333.

[3] – لسان العرب ، ج/14 ، ص :226.

[4] – التحرير والتنوير، ج/23 ، ص: 396.

تواضع ، وأن يذل من عصى وأن يخزي أشد من أن تتراماهم الريح في
و كالريش ، وأن تلقيهم هلكى على التراب عن بكرة أبيهم فيشاهدهم المار ودیارهم
جثثا تقصر عن جثثهم وبليت أجسامهم كأنهم أعجاز نخل خاوية. " [1]

فلذلك جاء التعبير ب(أخزى) مؤديا معناه تاما كاملا مترابطا منسجما .

ويلاحظ أن إبدال وصف العذاب في الآيات التي مرت معنا كان دقيقا وعجيبا ، وكل لفظة أخذت موضعها الأخص بها ، في إحكام رباني عجيب ، ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4) ﴾ الملك .

---

[1] – نفس المصدر ، ج/24 ، ص:258.

الإبدال بين الإسمين الموصولين: (الذي ، وما).

جاء الإبدال بين الإسمين الموصولين في قوله تعالى﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَالَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ البقرة :120.

وَلَئِنْ أَتَيْتَ ﴿الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ البقرة :145.

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ الرعد:37.

اتفق أغلب العلماء في أن الإسم الموصول (الذي) أبلغ في الإستغراق من (ما) ، وذلك أن (الذي) تختلف عن (ما) في أنها:[1]

. تتضمن من البيان ما لا تتضمنه (ما) ، فـ(الذي) تدخل عليها أسماء الإشارة فتكون (الذي) صفة لها ، كقوله تعالى مِّنْ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ ﴾ الملك :20. أما (ما) فلا يوصف بها ، فلا يقال : (أمن هذا ما جند لكم).

. أن الذي تثنى وتجمع وتؤنث ، فتلحقها هذه العلامات بيانا لهذه المعاني ، وأما (ما) فهي على لفظة واحدة في كل الحالات .

. أن (الذي) تلزمها أمارة التعريف (ال) عكس (ما) ، فهي نكرة ، وصلتها تكون صفة لها بيانية ، ومن شدة إبهام (ما) خص بها التعجب .

. أن (الذي) للعاقل وغير العاقل ؛ أما (ما) فهي لغير العاقل ، وتقابلها في خصوصية وصف العاقل (من) .

---

[1] – ينظر : درة التنزيل ، ص:270. ، معاني النحو:ج/1 ، ص:120/119/114.

ويتلخص مما ذكر أن (الذي) أكثر بيانا ، وابلغ استغراقا من (ما) ، وهذا ما انطلق منه الخطيب الإسكافي في توجيه معنى الآيات التي معنا ، ووافقه الكرماني وابن جماعة ، وتوجيههم للآيات جاء كالتالي :

1. أن العلم في الآية الأولى : يعني جملة الشرع ، أي : العلم بالله وصفاته وأسمائه وكل ما جاءت به الشريعة الإسلامية ، والمعنى : (ولئن اتبعت أهواء اليهود والنصارى بعد ما بعثك الله بدين الإسلام ...) ، لأن سياق الآية جاء بعد ذكر الملتين ، ملة اليهود وملة النصارى ، فالعلم في الآية جاء بمعنى الملة الإسلامية ، وجاء التحذير الرباني بعد وصف اليهود والنصارى بأنهم لا يرضون عن النبي صلى الله عليه وسلم حتى يتبع ملتهم ، فلذلك حذره بعد أن اصطفاه الله بملة الإسلام ، من أن يتبع مللهم ، فالحديث على الملل عام ، ناسبه التعبير بـ(الذي جاءك) وهو ملة الإسلام ، واتضح أن معنى العلم : العلم بالكمال الذي ليس وراءه علم.

2 . أن العلم في الآية الثانية : يعني : العلم بتحويل القبلة من وجهتها المقدسية إلى الوجهة المكية ، وهذا التحول الذي شرعه الله لنبيه هو جزء من أحكام الشريعة ، وليس كل الشريعة ، والمعنى :(ولئن اتبعت قبلتهم بعد ما حولناك عنها الى قبلة المسجد الحرام ...) ، وهذا مايؤكده السياق الذي جاء في معرض الحديث عن القبلة والتوجه الجديد شطر المسجد الحرام ، ولما كان العلم في هذه الآية يتعلق بمسألة القبلة وهي جزء من مسائل الشرع ، ناسبه استعمال الإسم الموصول الأقل استغراقا ، فاستعمل القرآن الكريم هنا (ماجاءك)، فاتضح أن العلم في الآية الأولى يعني الشرع كله ، وفي الآية الثانية يعني : مسألة من مسائل الشرع فقط .

3. . وأما الآية الثالثة ، فهي لا تختلف عن الآية الثانية في التوجيه ، فالعلم فيها يعني (البعض) ، وليس الكل ، بدليل قوله تعالى:﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ الرعد:36. فذكر القرآن أن أهل الكتاب يفرحون بنزول القرآن ، وبعضهم ينكرون بعضا منه ، فجاء التحذير والنهي عن اتباع

المنكرين لهذا البعض ، لا الذين أيدوه وفرحوا بما أنزل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ والمعنى : (ولئن اتبعت أهواء المنكرين لبعض القرآن بعد إخبارك عنهم ....) ، فلما كان الأمر يتعلق ببعض أهل الكتاب ، وببعض ما أنزل إلى النبي صلى الله عليه وسلم لا بجميعه ، ناسب استعمال (ما) الأقل استغراقا كما وقع في الآية الثانية ، إلا أن الآية الثانية قرن فيها الإسم الموصول (ما) ب(مِن) ، وتوجيهها : أن (مِن) جاءت في سياق الحديث عن القبلة ، وأمر القبلة مخصوص بفرائض مضيقة ، وأوقات مخصوصة بها في اليوم والليلة ، وقد تعرضت للنسخ ، والنسخ مؤقت بزمن ابتداء مشروعية التحويل وكأن المعنى : (من الوقت الذي جاءك العلم فيه بالقبلة التي وليتها ، وأمرت بالتوجه اليها). أما الآيتان الأولى والثالثة ، فليس فيهما ما يجوز فيه النسخ ، فلم يتخصص وجوبه بوقت .[1]

هذه جملة ما ذكره العلماء في توجيه معنى هاته الآيات ، ولابن الزبير رأي آخر في صور التناسب بين الإسم الموصول وموضعه ، فكانت نظرته مرتكزة أساسا على (الكم) أي : على مدى التطويل والإيجاز والبسط والإختصار في كل سياق ، فلاحظ أن سياق الآيات الثلاث اختلف من ناحية الطول والإختصار، في ذكر أهل الكتاب ، فسياق الأولى جاء فيه وصف أهل الكتاب مطولا ، فناسبه الزيادة في اللفظ ،أي : استعمل فيه اسم الموصول (الذي) وهو مكون من خمسة أحرف ، وأما سياق الآية الثانية ، فجاء أوجز من الأولى ، وأطول من الثالثة ، فاستعمل فيهما اسم الموصول (ما) وهي على حرفين ، لكن بزيادة (من) في الآية الثانية مراعاة لزيادة الإطناب فيها عن الثالثة ، ومن ناحية أخرى نجد ابن الزبير يعقد مقارنة بين اختتام الآية الأولى والثالثة : (نصير) و(واق) فالكلمة الأولى جاءت على وزن (فعيل) وهي من صيغ المبالغة ، والأخرى على وزن (فاعل) والمعنى في صيغة فعيل أبلغ من صيغة فاعل ، لذلك اختصت الآية الأولى بفعيل ، ليناسب سياقها الأطول ،

---

[1] – ينظر: درة التنزيل ، ص :270، و البرهان في متشابه القرآن ، ص :77، وكشف المعاني ، ص :104.

والثالثة بوزن فاعل ليناسب سياقها الموجز. فناسب الإطناب الإطناب ، والإيجاز الإيجاز.

ويضيف ابن الزبير ملحظا آخر يتعلق بترتيب النزول ، فالآية الأولى أسبق ، ثم الثانية ، ثم الثالثة في سورة الرعد ، فالأولى أطول ، والأخيرة أوجز ، والثانية بينهما في الطول والإيجاز.[1]

وخلاصة القول : أن ما ذكره العلماء من توجيهات للإبدال بين اسماء الوصل في هاته الايات ، ارتكز في الأساس على دور السياق الذي كشف لنا عن وجوه التناسب المختلفة التي نقلناها عنهم ، وهذا يؤكد مرة بعد أخرى أهمية السياق في تحديد المعنى ، وأنه لا بد من استحضاره واستصحابه في تحليل النصوص ، فهو مفتاح النص ونافذته ، وأي إهمال أو إغفال له ، سينتج عنه ضياع المعنى واضطرابه .

ومن ناحية أخرى نلاحظ أن التوجيهات التي ذكرها العلماء رغم تباينها إلا أنها وضعتنا أمام اسرار النظم القرآني ودقة التآمه ، وشدة ترابطه ، وأنه كلام الله المعجز الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، و من أي ناحية وقع فيه النظر فسيعود منه بعجائب ولطائف ، لا حصر لها ولا عد ، وصدق من قال فيه (لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد). [2]

---

[1] – ينظر : ملاك التأويل لابن الزبير ، ج/1، ص :47.

[2] – طرف من حديث عبد الله بن مسعود((إن هذا القرآن مأدبة الله ، فاقبلوا مأدبته ...)) ، ينظر الترغيب والترهيب للمنذري (656ه) ، ت: إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط/1، 1417ه، ج/2 ، ص : 231.

3 ـ الفصل الثالث : الإبدال في باب الأفعال .

ظاهرة الإبدال في القرآن الكريم لم تقف عند حد الحرف والإسم ، بل تعدتهما إلى الفعل ، وفي هذا الفصل سنتناول وجوه الإبدال بين الأفعال بأنواعها المختلفة ، الماضية والمضارعة والطلبية ، وهنا يجب أن ننبه إلى أن الإبدال في باب الأفعال كثير جدا يصعب حصره ، وقد لا تكفيه رسالة دكتوراه بله فصل من فصول رسالة ماجستير ، ولذلك جاءت النماذج الواردة في الفصل مختارة على حسب ما يؤدي الغرض في إبراز أهم وجوه الإبدال ، وحسب ما يسع هذا الفصل في هذه الدراسة .

وقبل الشروع في التطبيقات يجدر بنا أن نقف عند تعريف الفعل في اللغة العربية ، وأهم مميزاته .

ـ تعريف الفعل لغة : الحدث .

. واصطلاحا : هوكل كلمةٍ دلتْ على معنى في نفسِها. وتعرضتْ بنيتُها للزمان " [1] أي : أن الفعل حدث مقترن بزمن ، سواء كان ماضيا أم حاليا أم في الإستقبال ، ومن خصائصه صحة دخول قد عليه، وحرفي الإستقبال، والجوازم، ولحوق المتصل البارز من الضمائر، وتاء التأنيث الساكنة نحو قولك: قد فعل وقد يفعل وسيفعل وسوف يفعل ولم يفعل وفعلت ويفعلن وافعلي وفعلت.

والفعل هو أحد أقسام الكلام عند النحاة ، ويتميز بأنه مرن يقبل التحول والتصريف من حال الى حال ومن زمن الى زمن ومن جنس الى جنس ، ويتميز عن الإسم بالمميزات التالية :

أ- أن الفعل مبني في غالب أحواله ، خصوصا في حالتي الماضي والأمر ، فالماضي مبني على الفتح ، والأمر مبني على السكون ، والبناء معناه : لزوم الكلمة حركة واحدة في الإعراب .

---

[1] – ينظر: المفصل في صناعة الإعراب ، ص : 319. وهمع الهوامع ، ج/1 ،ص:25.

ب- أن الفعل لا يقبل الجر، فالجر من خصائص الاسم ، لذلك جيء بما يعرف ب(نون الوقاية) لوقاية الفعل من الكسر، في مثل (يؤرقني ، وأكرمني).

جـ - أن الفعل يختص بالجزم (السكون وما ناب عنه)، ولا يكون ذلك في الأسماء .

د - أن الفعل يفيد التجدد والحدوث، خلافا للاسم فإنه يفيد الثبوت ؛ يقول عبد القاهر الجرجاني : " إن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئا بعد شيء ، وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئا بعد شيء ،فإذا قلتَ : زيدٌ منطلقٌ" فقد أثبتَ الانطلاقَ فعْلاً له، من غيرِ أن تجعلَه يَتجدَّد ويَحْدُثُ منه شيئاً فشيئاً، بل يكونُ المعنى فيه كالمعنى في قولك: "زيد طويل"، و "عمرو قصير": فكما لا تقصد ههنا إلى أن تَجعل الطولَ و القِصَرَ يتجدَّد ويَحدثُ ، بل تَوجِبُهما وتُثْبِتُهما فقط، وتَقْضي بوجودِهما على الإطلاق، كذلك لا تتعرضُ في قولك: زيدٌ منطلقٌ لأكثرَ من إثباته لزيد. وأما الفعلُ ، فإنهُ يُقْصَدُ فيه إلى ذلك، فإذا قلتَ : زيدٌ ها هو ذا ينْطلقُ فقد زَعمْتَ أن الانطلاقَ يقعُ منه جُزءاً فجزءاً، وجعلْتَهُ يُزاوله ويُزَجِّيه. وإذا أردت أن تعتبره حيث لا يَخْفى أَنَّ أحدَهما لا يَصْلُح في موضعِ صاحبه، فانظرْ إلى قوله تعالى: {لَبِثُوا لَهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ} [الكهف: 18] فإنَّ أَحداً لا يَشكُّ في امتناع الفعل ههنا، وأن قولنا: "كالبهم يبسُطُ ذراعَيْه" يؤدِّي الغرضَ ، وليس ذلك إلاَ لأنَّ الفعلَ يقتضي مزاولةَ وتجدُّدَ الصفةِ في الوقتِ ، ويَقْتضي الاسمُ ثُبوتَ الصفةِ وحُصولها من غيرِ أن يكونَ هناك مُزاولةٌ وتَرْجيةُ فعلٍ ، ومعنىً يَحْدُث شيئاً فشيئاً. " [1]

وفي هذا الفصل سيقع اهتمامنا بالفعل من ناحية معناه المعجمي وعلاقته بالسياق الذي ورد فيه ، وقد نعرج على الدلالة الصرفية للفعل إن اقتضى المقام ذلك ، لأن الدلالة الصرفية للأوزان تساعد في تبين المعنى والكشف عن أسراره.

---

[1] – دلائل الإعجاز ، ص: 175/174.

3 . 1 . الإبـــدال بين الأفعال الماضية :

1 . أ . الإبدال بين (سوى ، و قضى) :

قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ البقرة :27. وقال أيضا: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12) ﴾ سورة فصلت .

جاء الإبدال بين الفعلين (سواهن ، قضاهن) ،وَسَوَّاهُنَّ أَيْ خَلَقَهُنَّ فِي اسْتِقَامَةٍ، وَاسْتِقَامَةُ الْخَلْقِ هِيَ انْتِظَامُهُ عَلَى وَجْهٍ لاَ خَلَلَ فِيهِ وَلاَ ثَلْمَ...[1] وسَوى الشيءَ وأَسْوَاهُ جعله سَوِيّاً.[2]

الاسْتِوَاءَ هُوَ الاسْتِقَامَةُ يُقَالُ اسْتَوَى الْعُودُ إِذَا قَامَ وَاعْتَدَلَ ثُمَّ قِيلَ اسْتَوَى إِلَيْهِ كَالسَّهْمِ الْمُرْسَلِ إِذَا قَصَدَهُ قَصْدًا مُسْتَوِيًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْتَفِتَ شَيْءٍ آخَرَ وَمِنْهُ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ أَيْ خَلَقَ بَعْدَ الأَرْضِ السَّمَاءَ وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَهُمَا زَمَانًا وَلَمْ يَقْصِدْ شَيْئًا آخَرَ بَعْدَ خَلْقِهِ الأَرْضَ .[3]

وَالْقَضَاءُ يَجِيءُ لِلإِنْجَازِ وَالإِتْمَامِ مَعْنَى الإِتْمَامِ وَالْحُكْمِ، فَهُوَ يَقْتَضِي الابْتِكَارَ وَالإِسْرَاعَ، كَقَوْلِ أَبِي ذُؤَيْبٍ الْهُذَلِيِّ:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا دَاوُدُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُ[4]

فجاء اختيار الفعل (سوى) في سورة البقرة ، دون غيره من الأفعال التي يمكن أن تحل مكانه ، كـ(خلق ، أنشأ ، صنع ، قضى ...) ، وكذلك بالنسبة للفعل

---

[1] – التحرير والتنوير ، ج/1، ص:285.

[2] – لسان العرب ، ج/14 ، ص :415.

[3] – التفسير الكبير للرازي ، ج/2 ، ص : 380.

[4] – التحرير والتنوير ،ج/24، ص :248.

(قضى) في سورة فصلت ، فماهو السر البلاغي وراء هذا الإختيار ؟ ولماذا أبدل الفعل قضى بالفعل سوى ؟.

ولبيان الأثر البلاغي لاختيار كل فعل في موضعه الذي ورد فيه يجب أن ننظر إلى سياق كل سورة ؛ فافتتاح السياقين في السورتين جاء كالتالي :

ففي سورة البقرة : (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم) فاستنكار الكفر بالله جاء في سياق عام ، أي : من كل البشر دون تحديد ، ودون تهديد ووعيد وصرح هنا بلفظ الجلالة .

وأما في سورة فصلت فافتتاحها : (قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين) فاستنكار الكفر بالله جاء في سياق الحديث عن العرب المشركين ، ولم يصرح بلفظ الجلالة وإنما قال (بالذي خلق) لأن المقام مقام تقرير وتعليم وبيان ، لذلك أردفه بقوله (ذلك رب العالمين) تأكيدا وتقريرا .

وفي سياق سورة البقرة ذكر المولى سبحانه نعمه على عباده ، وما سخره لهم في الأرض من خيرات ، ثم جاء الحديث بعد ذلك عن خلق الإنسان وجعله خليفة في الأرض ، وقصة تفوق آدم على الملائكة بالعلم ، وقصة دخوله الجنة وخروجه منها ، فالسياق كله إخبار عن بدايات الخلق وتكريم الإنسان ، لذلك ناسب مقام التكريم استعمال الفعل (سوى) ، الذي يدل على الإتقان والدقة والحكمة واللطف .

وأما في سورة فصلت فالسياق فيها يتحدث عن دينونة السموات والأرض لله رب العالمين (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) ، فالمقام مقام إظهار القوة المطلقة لله سبحانه ، ووجوب الطاعة له وحده والخضوع لحكمه طوعا أو كرها، فالآيات هنا تجسد أمامنا صورة السموات والأرض في خضوعما كشخصين منقادين لأمر سيدهما يسمعان ويجيبان ، في مقام سمته السمع والطاعة لأقوال الله وأحكامه الصادرة عنه ، فناسب استعمال لفظ (قضاهن) سياق إصدار الأحكام والأوامر الإلهية ، وفي ذلك زيادة بيان للعرب المشركين بأن الآمر هو الله ، والحاكم هو الله الذي لا ند له ولا شريك ، وكل ما

في الكون خلقه وملكه ، فهو الواجب الطاعة ، وهو المعبود الحق الذي لا إله غيره ولا رب سواه ؛ فناسب استعمال كل فعل سياقه ومقامه.

ب . **الإبدال بين** : (وجد ، وثقف).

قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ النساء:89. وقال سبحانه : ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ النساء:91.

أبدل في الآيتين الفعل (وجد) بالفعل (ثقف) ، وهذان الفعلان يشتركان في أصل المعنى وهو(العثور على الشيء والتمكن منه) ، ولكن بلا شك أن لكل فعل خصائصه ومميزاته ، وهذا ما سنتبينه من خلال البحث عن الأسرار البيانية لكل منهما ، ومسوغات استعمال كل فعل في موضعه الذي ورد فيه.

فالفعل (وجد) فعل مبهم لا يتعين إلا بإرجاعه إلى أصله ومصدره ، " نقول: وَجَد وهي كلمة مُبْهمة فإذا صُرفت أفصحت ، فقلت في المال: وجْدا ، وفي الضالة: وِجدانا (ووجودا)، وفي الغضب: مَوْجِدَةً وفي الحُزْن: وَجْداً.."[1] وأما (ثقف) فهو من "ثَقُفَ ، ككَرُمَ وفَرِحَ ، ثَقْفاً وثَقَفاً وثَقافَةً: حاذقاً خفيفاً فطِناً، فهو ثَقْفٌ ... وثَقِفَهُ، كسَمِعَهُ: أخذَه، أو ظَفِرَ به، أو أدْرَكَهُ..." [2] "ويقال : ثَقِفْت كذا إذا أدركتَه ببصرك لحذق في النظر ، ثم يتجوز به فيستعمل في الإدراك وإن لم تكن معه ثقافة ..." [3]

---

[1] المزهر ، ج/2 ، ص :260.

[2] – القاموس المحيط ، ص :795.

[3] – مفردات غريب القرآن ، ص : 78.

ومن خلال معاني هذه الأفعال نلاحظ أن الفعل (وجد) يتصرف في معاني (الحزن ، والغضب ، والغنى ، والعثور على الشيء) ، فهو يتعلق بما يجده الإنسان في نفسه من حزن وغضب ، وما يعثر عليه خارج نفسه من مدركات محسوسة ، كوجوده للأشياء ، وأما الفعل (ثقف) فيستعمل في الأصل فيما يدركه الإنسان بذكائه وفطنته ، ويستعمل في عموم معنى الإدراك ، فبين الفعلين (وجد ، وثقف) عموما من ناحية (الإدراك)، وخصوصا من ناحية (طريقة الإدراك) ، وهذا ما سيتضح بعد الوقوف على موقع استعمال كل منهما في سياقه ؛ فنجد في سياق الآية الآولى أن الله سبحانه وتعالى جعل الإمتناع عن الهجرة عَلاَمَةً عَلَى كُفْرِ الْمُتَظَاهِرِينَ بِالإِسْلاَمِ ، حَتَّى لاَ يَعُودَ بَيْنَهُمُ الاِخْتِلاَفُ فِي شَأْنِهِمْ ، وَهِيَ عَلاَمَةٌ بَيِّنَةٌ، فَلَمْ يَبْقَ مِنَ النِّفَاقِ شَيْءٌ مَسْتُورٌ إِلاَّ نِفَاقَ مُنَافِقِي الْمَدِينَةِ الْمُهَاجِرَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هِيَ الْخُرُوجُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ بِقَصْدِ مُفَارَقَةِ أَهْلِ مَكَّةَ ، ..فَإِنْ تَوَلَّوْا)أَيْ أَعْرَضُوا عَنِ الْمُوَاهَدَةِ إِنْذَارٌ لَهُمْ قَبْلَ مُؤَاخَذَتِهِمْ ، إِذِ الْمَعْنَى فَأَبْلِغُوهُمْ هَذَا الْحُكْمَ فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَلَمْ يَتَقَبَّلُوهُ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ..." [1] والوجود المقصود في الآية متعلق بالمكان والزمان أي : في أي مكان وجدوا ، ومتعلق بوجود من تحققت فيه العلامة البينة (الإمتناع من الهجرة) ، فمعرفة هؤلاء لا تحتاج إلى فطنة وذكاء وحذق ، فأمرهم واضح بين ، لذلك عبر القرآن الكريم عن العثور عليهم بلفظة الوجود(وجدتموهم) التي تعني مطلق الإدراك .

وأما في الآية الثانية فهي تتحدث عن قوم آخرين وهم " قوم من بنى أسد وغطفان، كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليأمنوا المسلمين، فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم (كلما رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ) كلما دعاهم قومهم إلى قتال المسلمين (أُرْكِسُوا فِيهَا) قلبوا فيها أقبح قلب وأشنعه، وكانوا شراً فيها من كل عدوّ ..."[2] وَثَقِفْتُمُوهُمْ بِمَعْنَى لَقِيتُمُوهُمْ لِقَاءَ حَرْبٍ فِعْلُهُ كَفَرِحَ ، وَفَسَّرَهُ فِي

---

[1] – التحرير والتنوير ، ج/5 ، ص:152.

[2] – الكشاف ، ج/1 ، ص:548.

الاكشافُ وُجُودٌ عَلى حَالةِ قَهْرٍ وَغَلَبةٍ... [1] والثقافُ الظفرُ بالمطلوبِ ، أيْ : فَإنْ وَجَدْتَهُمْ وَظَفِرْتَ بِهِمْ فِي حَرْبٍ ، أيِ انْتَصَرْتَ عَلَيْهِمْ.[2] فالفعل (ثقف) جاء في سياق الحديث عن قوم يُخْفُون ما لا يُظْهِرون ، ومعرفتهم تحتاج إلى فطنة وذكاء وخبرة بأحوال الناس ، وهذا يتناسب مع معنى الحذق والفطنة المستفاد من الفعل ثقف ، إضافة على ذلك أن معنى ثقف كما فسره الزمخشري يعني في حالة قهر وغلبة ، أي في حالة انكشفوا فيها وهم يقاتلون في صفوف الأعداء ، لا في حالة السلم ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يتعرض للمنافقين بالقتل والتشنيع رغم وجودهم بين المؤمنين ، لأنهم يتسترون بالإسلام ، وقتالهم في هذه الحالة فيه شبهة ، لذلك أُثِر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((فكيف إذا تحدّث الناس أنّ محمدا يقتل أصحابه)) [3]، فإيثار الفعل (ثقف) في هذا السياق حقق معنى دقيقا ، وهو التمكن والإدراك المبني على حذق وفطنة ، فنلاحظ أن الفعلين (وجد ، وثقف)استعمل كل واحد منها في ما هو أليق به لتأدية المعنى الخاص به ، وإن اشتركا في أصل المعنى .

وقد ورد الفعل (وجد) في آية أخرى ، وأبدل بالفعل الماضي (ألفى) ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ لقمان :21. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ البقرة :170.

وقع الإبدال بين الفعل الماضي (وجد) ، والفعل الماضي (ألفى) ، وهو رباعي الوزن ، لاشتراكه مع وجد في أصل المعنى ، يقول الإسكافي : " أن (ألفينا) يقصد بها بعض الوجوه التي ستعمل عليها: (وجدنا) ، لأنه يقال: وجدت الشيء، فلا يحتاج إلى مفعول ثان إذا وجدته عن عدم، ولوجدان الضالة تقول: وجدت الضالة

---

[1] – التحرير والتنوير، ج/2 ، ص:202.

[2] – نفس المصدر، ج/10 ، ص:50.

[3] – نفس المصدر، ج/10 ، ص:266.

وتقول: وجدت زيدا عاقلا، فيكون الوجود متعلقا بالخبر الذي هو المفعول الثاني، فلا بد له في هذا الوجه منه، ولا يكتفي بالمفعول الأول. وأما قولهم: ألفيت، فإنها مخصوصة بهذا الوجه من وجوه (وجدت)، لا يقال: ألفيت درهما بمعنى: وجدت درهما، ولا ألفيت الضالة، فكان في الموضع الأول استعمال اللفظ الأخص أولى، وتأخير اللفظ المشترك إلى المكان الثاني أولى. " [1] ففرق الإسكافي بين الفعلين من حيث التعلق بالمفعول ، ف (وجد) هو الأصل ، لأنه يقتصر على مفعول واحد ، وقد يتعدى إلى مفعولين ، أما (ألفى) فهو فرع عنه في إفادة معنى (العثور) ، لكن يلزمه دائما التعدي إلى مفعولين ؛ و لكل فعل خصائصه الوظيفية ، فلا يقال : " ألفى بمعنى وجد التى فى قولهم: وجدت الضالة فتتعدى إلى واحد ولا يقال ألفى بمعنى وجد التى بمعنى علم متعديا إلى اثنتين وما يقع منتصبا بعد مفعوله فى مثل قولك: ألفيت زيدا عالما فإنما انتصابه على الحال بدليل أنه لا يوجد إلا نكرة."[2]

والخلاصة أن الفعل ألفى يشترك مع وجد في معنى العثور ، لكن الفعل وجد يتعلق بالذوات والأحوال ، أما الفعل ألفى فيتعلق بالأحوال فقط ، وعلى هذين المعنيين تقوم بلاغة كل فعل في موضعه ، فأما في موضع (ألفينا) فلبيان الحال والعرف السائد الذي وجد عليه الخلف سلفهم وهم له متبعون ، دون تمحيص وتثبت وبيان ، لذلك جاء ختام الآية بقوله تعالى : (أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) ، وأما في الموضع الثاني ، فجاء الفعل (وجدنا) لبيان نوعية العقائد والأفكار التي يعتنقونها ويؤمنون بها ولذلك ختمت بقوله تعالى : (أو لوكان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير) أي أن هذه العقائد من اختلاق الشيطان وأكاذيبه ، وعلى هذا فتقدير كلامهم في الآية الأولى (بل نتبع عرف آبائنا ثقة بهم) و في الآية الثانية (بل نتبع العقائد التي ورثناها عن آبائنا ثقة في تلك العقائد والتعاليم) ، ومن هنا ناسب ذكر الفعل (ألفى) في سورة البقرة لأنها جاءت في سياق التبرأ من الأشخاص يوم القيامة (إذ تبرأ الذين اتُبِعوا من الذين اتَّبعوا) ، وأما

---

[1] – درة التنزيل ، ص :311.

[2] – ملاك التأويل ، ص :56.

الفعل (وجد) فجاء في سياق تعاليم سيدنا لقمان ووصاياه لابنه ، فلما كان المقام مقام إرشاد وتوجيه ، وبيان لتعاليم الحق ، ناسب أن يذكر بعده ما يقابل ذلك من مبادئ أهل الضلال ، وبيان فساد عقائدهم الموروثة ، فإبدال الفعل (وجد) الذي جاء في سياق تصوير فساد العقائد ، بالفعل (ألفى) الذي صور فساد الأعراف السائدة ، حقق المعنى في أجلى صوره ، وناسب كل فعل مقامه وسياقه ، ولو خولف بينهما في التعبير لضاعت الصورة المنشودة التي رسمها الباري عز وجل.

جـ . **الإبدال بين** (سلك ، وجعل) :

ورد في سورة (الزخرف) إبدال الفعل (جعل) من الفعل (سلك) ، قال تعالى ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ الزخرف :10 . وقال جل وعلا في سورة (طه) ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ الآية 53 :

يقول الزركشي في البرهان عن الفعل (جعل) "هِيَ أَحَدُ الْأَفْعَالِ المشتركة، التي هي أمهات أحداث ، وهي (فعل وعمل وجعل وطفق وأنشأ وأقبل وَأَعَمُّهَا :فَعَلَ يَقَعُ عَلَى الْقَوْلِ وَالْهَمِّ وَغَيْرِهِمَا .." [1] وذكر الزركشي لمعنى (جعل) سبعة أحوال ، ويقول في النوع الرابع : أَنْ يَأْتِيَ لِلنَّقْلِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَالتَّصْيِيرِ فيتعدى إلى مفعولين إما حسا كقوله تعالى ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا). وَإِمَّا عَقْلًا مِثْلَ ...(وجعلنا اللَّيْلَ يَلْتَبِسُ) بِشَيْئَيْنِ الْمَنْقُولِ وَهُوَ اللَّيْلُ وَالْمَنْقُولِ إِلَيْهِ وَهُوَ اللِّبَاسُ ..

---

[1] – البرهان في علوم القرآن ، ج/4، ص:128.

وفي هذه الآية يعني الفعل (جعل) التصيير والإنتقال ، أي : صير من الأرض سبلا وطرقا يسلكها الناس ، لذلك ورد بعد آية الزخرف ذكر الأنعام والفلك التي سخرها الله للإنسان للركوب والسفر، فالسبل المقصودة في الآية ماتيسر على ظهر الأرض من طرق ومسالك ؛ وأما في سورة طه فالتعبير اختلف حيث اختلف المقام ، فأوثر فيها استعمال الفعل (سلك) ، والفعل(سلك) من :" السُّلُوكُ مَصْدَرُ سَلَكَ طَرِيقًا؛ وسَلَكَ المكانَ يَسْلُكُه سَلْكاً وسُلُوكاً وسَلَكَه غَيْرَه وفيه وأَسْلكه إِيَّاهُ وفيه وعَلَيْه؛. والسَّالِكُ، مِفْتاحٌ سَلَكْتُ الشَّيْءَ في الشَّيْءِ فانْسَلَك أَي أَدخلته فيه وَدَخَلَ؛ في التَّنْزِيلِ :﴿كذلك سَلَكْناهُ في قُلُوبِ المُجْرِمِينَ ﴾ الشعراء:200. ..يُقَالُ سَلَكْتُ الخَيْطَ في المِخْيَطِ أَي أَدخلته فيه... وسَلَكَ يَدَه في الجَيْب والسِّقاء ونَحْوِهِمَا يَسْلُكُها وأَسْلَكَها: أَدخلها فيهِمَا. والسَّلَكَةُ الخَيْطُ الَّذِي يُخاط بِهِ الثوبُ، وَجَمْعُهُ سِلْكٌ وأَسْلاكٌ وسُلُوكٌ؛ كِلاهُمَا جَمْعُ الجَمْعِ. والمَسْلَكُ الطَّرِيقُ..".[1] ،وَحَقُّ أَنْ هَذَا الفِعْلَ إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الْمَدْخُولُ فِيهِ، وَيُسْتَعْمَلُ مُتَعَدِّيًا بِمَعْنَى وأَسْلَكَهُ أَنْ يَكُونَ تَعَدِّيهِ بِهَمْزَةِ التَّعْدِيَةِ فَيُقَالُ: أَسْلَكْتُ الْمِسْمَارَ فِي اللَّوْحِ، أَيْ جَعَلَهُ سَالِكًا فِيهِ. فِعْلُ سَلَكَ يُسْتَعْمَلُ قَاصِرًا وَمُتَعَدِّيًا.

فَأَمَّا قَوْلُهُ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا فَهُوَ سَلَكَ الْمُتَعَدِّي، أَيْ أَسْلَكَ فِيهَا سُبُلًا ، أَيْ جَعَلَ سُبُلاً سَالِكَةً فِي الأَرْضِ ، أَيْ دَاخِلَةً فِيهَا، أَيْ مُتَخَلِّلَةً وَذَلِكَ كِنَايَةٌ عَنْ كَثْرَتِهَا فِي جِهَاتِ الأَرْضِ .[2] ويرى الكرماني ، أن التعبير في سورة طه ب(سلك)سببأن لفظ السلوك مَعَ السَّبِيل أكثر استعمالا بِهِ فَخص بِهِ ،وَخص الزخرف بِـ (جعل)واجا لكلا م وموافقة لما قبلهَا وَمَا بعْدهَا.[3]

ويرى الباحث أن إيثار لفظ (سلك) في سورة طه أعطى صورة دقيقة لعجائب خلق الله وقدرته ، في كثرة ما أودعه الله من مسالك في الأرض ، فالمسالك فيها كثيرة ومتشعبة ومعقدة وجاء التعبير ب(سلك) ليشمل كل أنواع المسالك

---

[1] – لسان العرب ، ج/10 ، ص: 442 ، 443.

[2] – التحرير والتنوير ، ج/16 ، ص :236 ، 237.

[3] – البرهان في متشابه القرآن ، ص :175.

الظاهرة والخفية ، كالأنفاق والطرق الجبلية ، والمسالك الجوية ، ومسالك الهواتف والشبكات العنكبوتية ، ومسالك البحار، والأنابيب النفطية ، ومنه قوله تعالى للنحل: (فاسلكي سبل ربك ذللا) والسلوك هنا بمعنى النفاذ في الطريق ، فتبين من معنى (سلك) أي أن الله سبحانه أقدر الإنسان على اختراع المسالك وسهل له ذلك ، في إشارة إلى الطاقات الكامنة في هذا المخلوق العجيب الذي أبدع الله صنعه ، ولذلك جاء في سورة طه قوله تعالى لنبيه : (وقل رب زدني علما) ، فإبدال الفعل (جعل) بالفعل (سلك) جعل جو الآية يرتكز على إبراز صفات العلم والمعرفة والقدرة والإحاطة ، وإتقان الصنعة يدل على عظمة الصانع ، إضافة الى بيان صفات الله الحق الذي يستحق العبادة ، فالتعبير ب (سلك) جاء متناسبا مع مقام الرد على فرعون ، الذي ادعى الألوهية وهو أعجز من أن يصنع شيئا ذا بال ، بخلاف آية الزخرف ، فإن التركير فيها كان على ذكر صفات الله الخالق القادر الغني الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ، فالمقام مقام تنزيه الله سبحانه عن اتخاذ الولد ، إضافة الى أن هذه السورة تكرر فيه لفظ (جعل) كمثل قوله وَ جَعَلَ لَكُمْ (مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ) ، وقوله :(وَجَعَلُوا مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا) و(وَقَوْلِهِمْ إِنَّ الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا) وقوله :(وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ) ...الخ ، فالسورة في أصلها مبنية على تكرار هذا الفعل ، فإيثار الفعل (جعل) فيها حقق تلاؤما في البنية التركيبية لمفرداتها ، وتماسكا وتناسبا وارتباطا محكما بجو السورة في عمومها.

د . **الإبدال بين** (خلق ، وفطر) :

قال تعالى على لسان نبيه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ الشعراء :78. وقال على لسانه أيضا :﴿ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ الزخرف :27.

وبين (خلق وفطر) عموم وخصوص ، فالعموم يتمثل في أصل معنى الإنشاء والإيجاد ، والخصوص يتضح بعد الوقوف على أصل معنى الكلمتين واستعمالهما في لغة القرآن الكريم .

يقول الراغب : "الخَلْقُ أصله: التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشّيء من غير أصل ولا احتذاء، قال تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ الأنعام :01. أي: أبدعهما، بدلالة قوله تعالى ﴿ بَدِيعُ السَّماواتِ والأَرْضِ ﴾ البقرة :117. ، ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء نحو: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ﴾ النساء : 01 ... وليس الخَلْقُ الذي هو الإبداع إلاّ لله تعالى..."[1] ويؤكد ابن عاشور على أن مادة (خلق) في القرآن الكريم تطلق "الأَشْيَاءِ الْمَعْدُومَةِ فَهُوَ إِخْرَاجُ الأَشْيَاءِ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ إِجْلاَ صَنْعَةَ فِيهِ لِلْبَشَرِ الْخَلْقُ. وَإِيجَادُ الْعَوَالِمِ وَأَجْنَاسِ الْوُجُودَاتِ وَأَنْوَاعِهَا وَتَوَلُّدِ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ بِمَا أَوْدَعَتِ الْخَلْقَةُ الإِلَهِيَّةُ فِيهَا مِنْ نِظَامِ الإِيجَادِ مِثْلِ تَكْوِينِ الأَجِنَّةِ فِي الْحَيَوَانِ فِي بُطُونِهَا وَذَلِكَ كُلُّهُ خَلْقٌ وَهُوَ مِنْ تَكْوِينِ اللَّهِ تَعَالَى ... "[2]

وفي معنى الخلق جاء الفعل (فطر، وفاطر) وذلك في مثل قوله تعالى على لسان إبراهيم ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام : 79 ، وهناك سورة في القرآن تسمى (فاطر) ومطلعها : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ الآية :01. يقول ابن عاشور :"وَالْفَاطِرُ : الْفَطْرِ ، وَهُوَ الْخَلْقُ، وَفِيهِ مَعْنَى التَّكَوُّنِ سَرِيعًا لأَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْفَطْرِ وَهُوَ الشَّقُّ، وَتَكَوُّنُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ) إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ) وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَا فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لِعَدَمِ جَرَيَانِ هَذَا اللَّفْظِ بَيْنَهُمْ فِي حَتَّى أَتَانِي أَعْرَابِيَّانِ يَخْتَصِمَانِ فِي بِئْرٍ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا أَنَا فَطَرْتُهَا،

---

[1] – مفردات غريب القرآن ، ص : 297/296.

[2] – التحرير والتنوير ، ج/1 ، ص:327.

أَيْ أَنَا ابْتَدَأْتُهَا بِوَصْفِ أَنَّهُ وَصْفَ الْفَاطِرِ (السماوات وَالأَرْضِ) بِمَا سَبَقَ بِهِ الْقُرْآنُ ...[1] أي : من الدلالات الإسلامية الجديدة ، كالصلاة والصيام.

فتحصل مما سبق أن معنى الخلق والفطر متقارب ، ولكن بتدقيق النظر في موضع الفعلين سنطلع على أسرار بلاغية عجيبة ، تزيدنا بيانا ويقينا في دقة استعمال القرآن الكريم لألفاظه ، بحيث لا يمكن أبدا أن ينوب لفظ عن مرادفه ، إلا إذا كان الْمُبْدِلَ له هو الله الحكيم الخبير ، كما هو الحال في القراءات الصحيحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ك(النشر ، والنشز) وغيرها.

فالفعل (خلق) في سياقه واضح بين لا يحتاج إلى شرح وبيان ، وأما الفعل (فطر) فهو الذي يكشف لنا عن سر بلاغي يؤكد سبب إيثاره في سياقه وموضعه ، وإبداله من مرادفه ، ولبيان ذلك يقتضي الرجوع الى مشتقات هذا الفعل في القرآن الكريم وخصوصا لفظة (الفطرة) التي تعني :الْخِلْقَةُ وَالْهَيْئَةُ الَّتِي فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ الَّتِي هِيَ مُعَدَّةٌ وَمُهَيَّئَةٌ لأَنْ يُمَيِّزَ بِهَا مَصْنُوعَاتِ اللَّهِ، وَيَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى رَبِّهِ وَيَعْرِفُ شَرَائِعَهُ. "[2] ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ـ يجعلانه يهوديا ـ أو ينصرانه أو يمجسانه ـ يجعلانه نصرانيا أو مجوسيا ـ) والفطرة هي الإسلام "وَالْمُرَادُ تَمَكُّنُ النَّاسِ مِنَ الْهُدَى فِي أَصْلِ الْجِبِلَّةِ وَالتَّهَيُّؤِ لِقَبُولِ الدِّينِ الْمَفْلُوءِ تُولِيهَا لاَ سْتَمَرَّ عَلَى لُزُومِهَا وَلَمْ يُفَارِقْهَا إِلَى غَيْرِهَا حُسْنَ هَذَا الدِّينِ ثَابِتٌ فِي النُّفُوسِ وَإِنَّمَا يُعْدَلُ عَنْهُ لآِفَةٍ مِنَ الآْفَاتِ الْبَشَرِيَّةِ..."[3]

فقول سيدنا إبراهيم : (إلا الذي فطرني) في سورة الزخرف ، تأكيد على أن التوحيد هو الفطرة التي خلق عليها كل إنسان ، كما سبق في الحديث ، واستعمال الفعل (فطر) متناسب مع جو السورة التي تتحدث في مجملها عن التوحيد ونبذ

---

[1] – نفس المصدر ، ج/22 ، ص : 249. وينظر: لسان العرب ، ج/5 ، ص:55. والمفردات في غريب القرآن ، ص: 640.

[2] – تفسير ابن عطية : ج/4 ، ص:336.

[3] – شرح صحيح البخاري لابن حجر ، ج/3 ، ص :249.

الشرك ، وفضح عقائد المشركين اللذين انحرفوا عن الفطرة ونسبوا لله الولد والصاحبة ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ؛ وأما مسألة الخلق فقد ذكرت السورة أن هؤلاء المشركين لم يكن لهم شك في أن الله هو خالقهم وخالق السموات والأرض ، قال تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ الزخرف :09. وقال عنهم أيضا ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ الزخرف :87. لذلك أبدل الفعل (خلق) الوارد في سورة الشعراء بالفعل (فطر) في سورة الزخرف ، وهو ماحقق انسجاما تاما بين الفعل وموضوع السورة ، وأما في سورة الشعراء فاستعمل الفعل (خلق) لأنه ورد في سياق بيان حقيقة الربوبية ؛ قال تعالى عن محاورة ابراهيم لقومه ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) ﴾ ، فيلاحظ في هذه الآيات أن سيدنا إبراهيم جادل قومه في معبوداتهم ، وسألهم أن يصفوا له نوع معبودهم ، فأجابوا : بأنهم يعبدون اصناما يظلون لها عاكفين ، فبين لهم فساد عقيدتهم ، وأن الأصنام التي يعبدونها من دون الله ، لا تنفع ولا تضر، ولاتسمع ولا تبصر ، وأنها ألد أعدائه ، ثم أخذ يبين صفات الله المعبود بحق ، وتدرج في ذكر صفاته ، فبين بأنه الخالق الرازق ، النافع الضار ، المحيي المميت ، مالك يوم الدين ، فناسب في هذا الموضع استعمال الفعل (خلقني) المنسجم مع ما سيق من كلام في بيان صفات الله ، ولا يقبل هذا المحل الفعل (فطرني) أو غيره من الأفعال المرادفة له ، كـ(الإيجاد ، والتقدير ، والفَطْر ، والإبتداء ، والإبداع) كما لايقبل محل الفعل (فطر) غيره من الأفعال ، فلا يؤدى الغرض والمعنى إلا بما عبر به

القرآن ، وهذا ما يجعل القارئ يكتشف سر إعجاز القرآن وبلاغته ، ودقة استعماله الفعل في موضع ، وإبداله بفعل آخر في سياق آخر مشابه له .

٥ . الإبدال بين (فزع ، وصعق) :

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ النمل :87. وقال في موضع آخر: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ الزمر:68.

في هاتين الآيتين وقع الإبدال بين الفعلين الماضيين (فزع ، وصعق) ، في سياق الحديث عن أهوال يوم القيامة يوم ينفخ في الصور، فجاء الوصف بالفعل (فزع) في سورة النمل ، وفي سورة الزمر جاء بدله الفعل (صعق) ؛ فما هو السر البلاغي وراء الإبدال بين هذين الفعلين ؟ :

الفزع: "الذعر من الشيء، وهو في الأصل مصدر فزِع منه وفَزَع فَزَعاً وفَزْعاً وفِزْعاً وأفزَعه وفزَّعه ورَوَّعه، فهو فَزِعٌ ... " [1]، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ فَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لاَ تَخَفْ ﴾ ص: 22. والصعق : الموت ، يقال صَعِقَ الإنسان صَعْقاً وصَعَقاً، فهو صَعِقٌ: غُشِيَ عليه وذَهَبَ عَقْلُهُ من صَوْتٍ يَسْمَعُهُ كالهَدَّة الشَّديدة وصَعِقَ صَعَقاً وصَعْقاً وصَعْقَةً وصُعاقاً، فهو صَعِقٌ: ماتَ ، قالَ مُقاتِلٌ فِي قَوْلِهِ أصابته صاعِقَةُ الصاعِقَةُ المَوْتُ ... [2] فتحصلنا من الفعلين (فزع ، وصعق) على صفتين هما : (الخوف ، والموت) .

وقد ورد في الآيتين استثناء ، ففي آية النمل استثناء من عموم الخوف الذي يكون بسبب الأهوال، فالله سبحانه وتعالى يكرم بعض عباده بالأمن حين يخيم الفزع على الجميع ، قال تعالى: ﴿ مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ

---

[1] – لسان العرب ، ج/8 ، ص:251.

[2] – نفس المصدر ، ج/10 ، ص : 198

يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ النمل : 89. ومنه قوله سبحانه في سورة الأنبياء : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾الأنبياء :101 . إلى أن قال : ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ الآية :103.

وقد تكرر في القرآن الكريم قوله تعالى : (لا خوف عليهم ولاهم يحزنون) في صفات المؤمنين ، وعدا منه سبحانه بتأمينهم ؛ فالمؤمنون هم المقصودون بالإستثناء في قوله سبحانه وتعالى :(ففزع من في السموات والأرض إلا من شاء الله) ، فاتضح أن الإستثناء في الآية مترتب على صفة الإيمان .

والحديث عن الفزع والأمن في آخر سورة النمل جاء متناسبا مع السياق الذي ورد فيه ، ومع جو السورة ومطلعها خصوصا ، فقد تحدث المولى عز وجل عن قصة سيدنا موسى عند تكليمه في الواد المقدس ، عند الشجرة المباركة ، ذلك الحدث العظيم الذي أفزع موسى عليه الصلاة والسلام وخصوصا حين رأى العصا تتحول إلى حية تسعى ، قال تعالى ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ النمل :10.

وأما الإستثناء في آية الزمر فهو استثناء من عموم الذين يصعقون عند قيام الساعة ، وهي الصعقة التي لا تترك شيئا إلا أفنته ، والصعقة كما قال ابن عاشور : صعقة موت ، وصعقة اضطراب ،فَالأَحْيَاءُ يُصْعَقُونَ فَيَمُوتُونَ كَمَا يَمُوتُ بِالنَّفْخَةِ الأُولَى، وَالأَمْوَاتُ يُصْعَقُونَ اضْطِرَابًا تَدِبُّ بِسَبَبِهِ فِيهِمُ الْحَيَاةُ مُسْتَعِدِّينَ لِقَبُولِ الْحَيَاةِ، فَإِذَا نُفِخَتِ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ حَلَّتِ الأَرْوَاحُ فِي الأَجْسَادِ فَالْحُوقِهِمْ ... [1] ؛ وقد ذكر العلماء والمفسرون أن الأرواح وبعض الملائكة من الأشياء التي استثناها الله .

والحديث عن الصعق في سورة الزمر ، جاء متناسبا مع ذكر القيام منه بعد النفخة الثانية (فإذا هم قيام ينظرون) ، كما أن سورة الزمر ورد فيها قوله تعالى مخاطبا نبيه وأمته ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ الزمر:30. وكما قال الكرماني : "

---

[1] – التحرير والتنوير ، ج/24 ، ص : 64.

خصت الزمر بقوله {صعِقَ} وَافقَة لقَوْله و{إِنَّهُم ميتون} نَ مَعْنَاهُ مَاتَ . "[1]
وسياق الآيتين مالأتتان ﴿ذَلِكَ فِي عَرَضِ الْمَوْعِظَةِ الدُّنْيَا وَهَذِهِ الآيَةُ فِي غَرَضِ عَظَمَةِ شَأْنِ اللَّهِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ..." [2]

و . الإبدال بين (عمل ، وكسب):

قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون ﴾ الزمر : 48. وقال أيضا: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون ﴾ الجاثية :33.

وقع الإبدال في الآيتين بين الفعلين الماضيين (كسبوا ، عملوا) ، فماهو السر البلاغي وراء اختيار كل فعل في موضعه ؟ ، وما علاقة كل فعل بالسورة التي ورد فيها ؟.

يرى أغلب العلماء الذين اهتموا بتوجيه هاته الآيتين وما شاكلها في القرآن الكريم ، أن ذلك يعود إلى عادة القرآن في التفنن في الألفاظ والفصاحة ، واستدعاء التناسب بين الفعل وألفاظ السورة التي ورد فيها ، حفاظا على التلاؤم والإنسجام للبنى التركيبية للسورة ، فالفعل (كسب) في سورة الزمر ، وقع بين ألفاظ الكسب ، كقوله تعالى: ﴿قِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ الآية :24 ،و﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ الاية :48قد﴿قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَغْنَى عَنْهُم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ الآية :50. فلذلك خصت آية الزمر بالفعل : (كسب) ، وأما سورة الجاثية فقد خصت بالفعل (عمل) لأنه وقع بين ألفاظ العمل ، في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ الآية

---

[1] – البرهان في متشابه القرآن : ص :192.

[3] – التحرير والتنوير : ج/24 ، ص :65.

﴿ كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ الآية 28. ﴿ وَبَدَا لَهُم سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ﴾ الآية :29. فقد وضح وجه التناسب في الآيتين، وعكس الوارد لا يناسب .[1]

وقد نظر الدكتور السامرائي في آيتين مشابهتين لما نحن بصدده ، وهي قوله تعالى في سورة النحل ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ﴾ الآية :34 ، مقابل قوله تعالى ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ الزمر :51. وبين أسباب اختصاص كل لفظ بالسورة التي ورد فيها ، واعتمد على الإحصاء ، فوجد لفظ (العمل) ورد في سورة النحل (10) مرات ، ولفظ (الكسب) لم يرد فيها البتة ، وأما في سورة الزمر فلفظ (الكسب) ورد فيها (5) مرات ، ولفظ العمل (6) مرات ، فكانت سورة النحل خالصة للفظ (العمل) ، بينما لفظ الكسب اختص بسورة الزمر لوروده فيها بنسبة متساوية تقريبا مع لفظ العمل [2]؛ وهذا التوجيه المعتمد على الإحصاء قد يحظى بالتوفيق ، وقد يخطئه ، فلا يمكن أن يعتمد عليه إلا بعد أن النظر في المستويات الدلالية المختلفة (المعجمية ، السياقية ، التركيبية) ، فحينئذ يستأنس بالإحصاء إذا وافق المعنى الدلالي ، ذكرنا ذلك لأننا لو طبقنا ما قاله السامرائي على الآيتين اللتين معنا لوقع العكس ، فلفظ العمل في الحقيقة ورد في سورة الزمر (8) مرات ، عكس ما قاله السامرائي من أنه (6) مرات ، وهذه النسبة الغالبة للفظ العمل في سورة الزمر ترجح كفته ، والحقيقة عكس ذلك ، فلفظ (الكسب) في الآيتين اللتين معنا جاء في سورة الزمر ، وأما سورة الجاثية فقد ورد فيها لفظ العمل (6) مرات ، ولفظ الكسب (3) مرات ، وهذه الأغلبية جاءت متوافقة مع ورود لفظ العمل في سورة الجاثية ، فنلاحظ أن الإحصاء عمل غير منضبط ، وبالتالي يجدر بالدارس أن يحذر من التعامل مع التحليل بهذا الأسلوب ، وخصوصا في كتاب الله عز وجل .

---

[1] – ينظر: (درة التنزيل ، ص :1117) و (البرهان في متشابه القرآن ، ص : 218) و (كشف المعاني ، ص : 123) و (ملاك التأويل ، ج/2 ، ص :298).

[2] – ينظر : من أسرار البيان القرآني للسامرائي ، ص : 182.

فالعمل والكسب متلازمان ، ويفرق بينهما بأن العمل هو الفعل ، والكسب هو النتيجة المحصل عليها ، فالتجارة عمل ، والربح كسب ، والسرقة عمل ، والعقاب عليها كسب ، يقول ابو هلال العسكري: الْعَمَل إِيجَاد الأَكْثر فِي الشَّيْء يُقَال فلَان يعْمل الطين خزفا... وأصل الْعَمَل فِي اللُّغَة والْبِنَاء وَمِنْه سميت الرَّاحِلَة يعلمة...و الْكسْب الْفِعْل الْعَائِد على فَاعله بنفع أَو ضرّ ...يُقَال اكْتسب الرجل مَالا وعقلا واكتسب ثَوَابًا وعقابا وَيكون بِمَعْنى الفعل فَوْلك اكْتسب طَاعَة ،فحد المكتسب هُوَ الْجَاعِل للشَّيْء مكتسبا لَهُ بحادث إِمَّا بِنَفسِهِ أَو غَيره،فمكتسب الطَّاعَة هُوَ الْجَاعِل لَهَا مكتسبة بإحداثها ، ومكتسب المَالهُوَ الْجَاعِل لَهُ مكتسبا بإحداث مَا يملكهُ بِهِ...[1] فاستعمال لفظ (الكسب) جاء في سياق الحديث عن نتائج الأعمال ، لذلك نجد أن ما سبق آية الزمر هو الحديث عن الظالمين عندما يعاينون سوء العذاب يوم القيامة ، ويطلعون على سوء نتائج ما كانوا يعملون ، فأعمالهم أكسبتهم سوء العذاب ، فناسب أن يذكر الكسب في هذا الموطن ، وأما في سورة الجاثية ، فعبر القرآن بالعمل في سياق بيان أصناف من الأعمال كانوا يعملونها ، هي التي أودت بهم إلى تلك النتائج السيئة ، ومنها : (اتباع أهوائهم ، إنكارهم البعث) ، كما أن السياق يتحدث عن استدعاء الأمم للحساب ، وأن كل أمة تدعى إلى كتابها ، ومن المعلوم أن الحساب يكون بعرض الأعمال أولا ، ثم الحكم عليها ثانيا ، فالسياق يتحدث عن الأعمال لذلك ناسب أن يعبر بلفظ (العمل) في هذا المقام ، والله أعلم.

ز . الإبدال بين (انفجرت ، وانبجست) :

قال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ البقرة :60. وقال سبحانه أيضا : ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ

---

[1] – الفروق للعسكري ، ص :37، 38 ، 134، 135.

عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ الأعراف :160.

وقع الإبدال بين الفعلين الماضيين (انفجرت ، وانبجست) ، ورد هذان الفعلان في وصف عيون الماء الخارج من الحجر الذي ضربه موسى عليه السلام بعصاه ، "والمَفْجَرُ والفُجْرُ، مِنَ الْمَاءِ مِنَ الْحَوْضِ وَغَيْرِهِ، وَفِي الصِّحَاحِ وَضِعُ تَتَّخِذُ الْمَاءَ وَالْفُجْرَةُ الْوَادِي نَفْسِهِ الَّذِي يَنْفَجِرُ إِلَيْهِ الْمَاءُ كَثُجْرَتِهِ. وَالْمَفْجَرُ تَطْمَئِنُّ فَتَنْفَجِرُ فِيهَا أَوْ وَأَفْجَرَ يَنْبُوعاً مِنْ مَاءٍ أَي أَخرجه.[1]

وَالْبَجْسُ شَقٌّ فِي رِخْوٍ بة أَو حَجَرٍ أَو أَرض يَنْبُعُ مِنْهُ الماءُ، فإِن لَمْ يَنْبُعْ فَلَيْسَ بانْبِجاسٍ والانْبِجاسُ عامٌّ، والنُّبُوع لِلْعَيْنِ خَاصَّةً.[2]

فانفجار الماء وانبجاسه يعني خروجه بقوة وكثرة ، لكن فرق الراغب بين الفعلين بقوله "بَجَسَ الماء وانْبَجَسَ : انفجر، لكن الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع، ولذلك قال عزّ وجلّ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً [الأعراف/ 160] ، وقال في موضع فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً [البقرة/ 60] ، فاستعمل حيث ضاق المخرج اللفظان ، قال تعالى وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً [الكهف/ 33] وقال: وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً [القمر/ 12] ولم يقل: بجسنا. [3]

فالانفجار أكثر قوة من الإنبجاس ، وهذا بينه الراغب ، وأكد عليه ابن الزبير في بيان الفرق بين التعبيرين ، يقول رحمه الله : " أن الفعلين وان اجتمعا فى المعنى فليسا على حد سواء بل الإنبجاس ابتداء الإنفجار، والإنفجار بعده غاية له قال القرطبى: "الإنبجاس أول الإنفجار "، وقال ابن عطيه: "انبجست :انفجرت لكنه

---

[1] – لسان العرب ن ج/5 ، ص: 45.

[2] – نفس المصدر ، ج/6 ، ص : 24.

[3] – المفردات في غريب القرآن ، ص :108.

أخف من الانفجار "وإذا تقرر هذا فأقول: إن الواقع فى الأعراف طلب بنى إسرائيل من موسى عليه السلام السقيا ، قال تعالى: "وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه " والوارد فى سورة البقرة طلب موسى عليه السلام من ربه ، قال تعالى: "وإذ استسقى موسى لقومه " فطلبهم ابتداء فناسبه الابتداء ، وطلب موسى عليه السلام غاية لطلبهم لأنه واقع بعده ومرتب عليه فناسب الابتداء والغاية الغاية، فقيل جوابا لطلبهم: "فانبجست " وقيل إجابة لطلبه: "فانفجرت " وتناسب ذلك وجاء على ما يجب ولم يكن ليناسب العكس.[1].

وبالنظر إلى جو سورة البقرة في الحديث عن بني إسرائيل نجد أنها تختلف عن جو سورة الأعراف ، فسياق سورة البقرة سياق تكريم وتعداد للنعم ، لذلك عرضت صور النعم التي أنعم الله بها على بني اسرائيل في صفات أكثر حسنا وكما ، وناسب ذلك أن يعبر باللفظ الأفخم والأقوى ، الذي يلائم جو التعبير ، كما يقول ابن جني : " باب في قوة اللفظ لقوة المعنى " [2]، لذلك استعمل القرآن الفعل (انفجرت) في سورة البقرة ، وأما سورة الأعراف فجاء فيها الحديث عن بني اسرائيل في جو كله تقريع وتأنيب ، لذلك آثر القرآن التعبير بالفعل (انبجست) بحسب الجو العام للسورة ، وكما يقول السامرائي : " انفجرت أولاً بالماء الكثير ثم قلّ الماء بمعاصيهم ...فالسياق في ذمّ بني إسرائيل فذكر معها الإنبجاس وهو أقلّ من الإنفجار وهذا أمرٌ مشاهد فالعيون والآبار لا تبقى على حالة واحدة فقد تجفّ العيون والآبار فذكر الإنفجار في موطن والإنبجاس في موطن آخر وكلا المشهدين حصل بالفعل.[3]

---

[1] – ملاك التأويل ، ص :40

[2] – الخصائص لابن جني ، ج/3 ، ص :268.

[3] – لمسات بيانية ، للسامرائي ، دار عمار ،الأردن ، ط/3 - 2003 م.ص :544.

4 . الإبدال بين الأفعال المضارعة :

2 . أ . الإبدال بين (يذبحون ، ويقتلون) :

جاء ذلك في قوله تعالى ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ البقرة :49. وقوله تعالى ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ الأعراف : 141.

وقع الإبدال بين الفعلين المضارعين (يذبحون ، ويقتلون) ، والحدث المذكور ورد في قصة معاناة بني إسرائيل في زمن فرعون ، الذي سامهم سوء العذاب ، فقتل أبناءهم وترك نساءهم ، فمرة عبر القرآن بـ (يذبحون أبناءكم) ومرة عبر بـ(يقتلون ـ بالتخفيف والتشديد ـ أبناءكم) فما هو السر البلاغي وراء هذا التغاير في التعبير؟ وماسر استعمال لفظ (الذبح)في البقرة ، وإبداله في سورة الأعراف بلفظ (القتل) ؟.

من المعلوم بداهة أن القتل: هو فعل يحصل به زهوق الروح. [1]، يقول الراغب "أصل القَتْل : إزالة الروح عن الجسد كالموت، لكن إذا اعتبر بفعل المتولّي لذلك يقال قَتْلٌ ، وإذا اعتبر بفوت الحياة يقال: موت. قال تعالى: ﴿أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ آل عمران : 144...[2] ، والقتل لفظ عام يطلق على كل نفس أزهقت بفعل فاعل ، كقتل الإنسان والحيوان والحشرات.

وأما الذبح فهو إزهاق الروح بكيفية مخصوصة ، " فأصل الذّبح: شقّ حلق الحيوانات..." فالذبح خاص بالحيوان ، من أجل إباحة أكله إن كان حلال الأكل ، والفرق بين الذبح والقتل ، أن القتل يعني إزهاق الروح ليس من أجل الإنتفاع بالجسد بخلاف الذبح ، والقتل فيه المشروع ، كقتل القاتل عمدا ، وقتل العدو ، والضار من الحيوان ، وفيه الممنوع ، كقتل أي نفس بغير حق .

---

[1] – التعريفات ، ص : 172.

[2] – مفردات غريب القرآن ، ص :655.

وأبشع صور القتل بالنسبة للإنسان ذبحه ، لأن فيه تعذيب وإهانة له ، لذلك لم يعرف في أي شريعة أنزلت الأمر بذبح الأعداء ، أو المجرمين ، أو إدراجه في صور العقاب .

فالتعبير بلفظ (القتل) أقل فظاعة وبشاعة من لفظ (الذبح) ، فما وجه استعمال كل لفظ في سياقه ؟ .

نتذكر دائما عندما نتحدث عن سورة البقرة ، أنها سورة التكريم والتنعيم والتفضيل ، وغالبا عندما تكرر في القرآن قصة أو آية ، نجد أن ما جاء في سورة البقرة قد اختير له أفخم الألفاظ وأقواها وأشدها ، سواء تعلق الأمر بالنعيم أو العقاب ، كما مر معنا في لفظ (انفجرت ، وانبجست) .

وإذا عرفنا أن لفظ الذبح أشنع وأقوى في تصوير مشاهد العذاب من كلمة القتل ، أدركنا بسهولة أن لفظ الذبح هو الوارد في سورة البقرة ، ولفظ القتل في سورة الأعراف ؛ وفرعون سام بني اسرائيل بالعذاب فقتلهم وذبحهم ، فكلا الوصفين وقعا ، ولكن ناسب ذكر كل وصف سياقه الذي يقتضيه ، ويرى السامرائي أن العموم في اللفظ ناسب العموم في السياق ، بمعنى : أن القتل أعم من الذبح ، و سورة الأعراف مبنية على العموم ، فناسب العموم العموم ، فقصة بني اسرائيل ذكرت بعمومها وتفاصيلها في سورة الأعراف ، وأما سورة البقرة فلم يرد فيها ذكر لفرعون مع بني اسرائيل ، وفي سورة الأعراف ذكر موسى وهارون ، وذكرهما أعم من ذكر موسى وحده في سورة البقرة ، إضافة إلى أن سياق سورة الأعراف قبل هذه الآية : ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ الآية :127. فناسب قول فرعون فعله ، فقد قال : (سنقتل أبناءهم) فقال : (يقتلون ابناءكم) وهو المناسب ، فقد فعل ما قاله وهدد به .[1]

---

[1] – أسئلة بيانية ، ج/1 ، ص :12.

وماقاله السامرائي إضافة قيمة في بيان وجه المناسبة بين الفعل وسياقه ، ولكن ما قُرر سابقا ، بأن المقام مقام تكريم أولى وأوضح في بيان علة اختصاص كل لفظ بموضعه ، ويؤكد ذلك ورود لفظ الذبح في سياقات أخرى مشابهة لسياق سورة البقرة ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ إبراهيم :06. وسياق سورة ابراهيم سياق تذكير بالنعم ، بدليل قوله تعالى قبل هذه الآية ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ الآية :05 ، والمناسب في التذكير استحضار أبشع الصور الكامنة في الذاكرة ، ليؤثر ذلك فيهم ايجابا ، فيحيي ضمائرهم ، ويوقظ هممهم ؛ ومن ذلك أيضا قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ القصص : 04. فذكر المولى سبحانه الحالة التي وصل إليها فرعون من قسوة القلب والفساد في الأرض ، والذبح أبشع من القتل في تصوير جرائمه ، إضافة إلى ذلك أن الآية التي وردت بعدها جاءت بذكر الفرج والمنة على بني إسرائيل : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ فتمام المنة عليهم تغيير تلك الأحوال ، من الأسوإ إلى الأفضل ، فناسب ذكر الأسوإ في تصوير أحوالهم وهو الذبح ، لأنه لو ذُكر القتل ، لكان التعبير أقل تصويرا لسوء أحوالهم . فيتلخص من ذلك أن الخطاب القرآني يختار المفردة التي تلقي إشعاعا شاملا في مفردات السياق كلّه، من حيث لا يسدّ غيرها هذا المكان، وتنفرد بمكانها من حيث ملاءمة أقصى التأثير، وهذا ما يؤكد بلاغة النظم القرآني وإعجازه ، وإحكام آياته .

ب . **الإبدال بين (يفعل ، ويخلق) :**

ورد في قصة سيدنا زكريا ومريم عليهما السلام في سورة آل عمران قوله سبحانه بعد قصة زكريا: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ الآية :40. وبعد قصة مريم قال :﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ الآية :47. وقد سبق أن ذكرنا هذه الآية في الفصل الثاني في باب إبدال الأسماء ، وتعرضنا للفرق بين (**الغلام ، والولد**) ، **وفي هذا** الفصل نبحث في هذا الآية عن إبدال آخر يتعلق بالأفعال ، فقد وقع الإبدال بين الفعلين المضارعين (يفعل ، ويخلق)، **فالفعل ورد** في قصة زكرياء ، والخلق ورد في قصة مريم عليهما السلام ، والسؤال المطروح ما وجه إبدال لفظة (يفعل) بلفظة (يخلق) ؟ ، **وما هو السر البلاغي وراء** ذلك ؟

يقول الراغب عن معنى (**الفعل**) أنه : " التأثير من جهة مؤثّر، وهو عامّ لما كان بإجادة أو غير إجادة، ولما كان بعلم أو غير علم، وقصد أو غير قصد، ولما كان من الإنسان والحيوان والجمادات..والذي من جهة الفَاعِلِ يقال له:**مَفْعُولٌ** ومُنْفَعِلٌ، وقد فصل بعضهم بين المفعول والمنفعل، فقال:**المَفْعُولُ** يقال إذا اعتبر بفعل الفاعل، **والمُنْفَعِلُ إذا اعتبر** قبول الفعل في نفسه، قال:**فَالْمَفْعُولُ أعمّ** من المنفعل، لأنّ المُنْفَعِلُ يقال لما لا يقصد الفَاعِلُ إلى إيجاده وإن تولّد منه، كحمرة اللّون من خجل يعتري من رؤية إنسان..وقيل لكلّ فِعْلٍ **انْفِعَالٌ إلاّ للإبداع الذي** هو من الله تعالى، فذلك هو إيجاد عن عدم لا في عرض وفي جوهر **بل ذلك هو** إيجاد الجوهر." [1] فالراغب نظر للفعل من جهة الأثر، وفرق بين أثر المخلوق الذي هو حدث ، وبين أثر الخالق الذي هو الإبداع .

---

[1] – المفردات في غريب القرآن ، ص :640/639.

ويهمنا أن نعرج على ما قاله الزركشي في برهانه ، عند الحديث عن الفرق بين العمل والفعل ، فقد أكد أن الفعل له سمة تميزه عن العمل ، وهي : (السرعة) بدليل قوله تعالى : {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ} كَانَ فِعْلُهُمْ بِزَمَانٍ وَقَالَ {يَفْعَلُونَ حَيْثُ مَا يُؤْمَرُونَ} مَا يُؤْمَرُونَ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ فَيَنْقُلُونَ الْمُدُنَ بِأَسْرَعَ مِنْ أَنْ يَقُومَ الْقَائِمُ مِنْ مَكَانِهِ وَقَالَ تَعَالَى {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا} خَلَقَ الْأَنْعَامَ وَالثِّمَارَ وَالزُّرُوعَ بِامْتِدَادٍ ، وَقَالَ {كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ} فَإِنَّهَا إِهْلَاكَاتٌ وَقَعَتْ مِنْ غَيْرِ بُطْءٍ . ... وقال: {والذين هم للزكاة فاعلون} أَيْ يَأْتُونَ بِهَا عَلَى سُرْعَةٍ مِنْ غَيْرِ تَوَانٍ فِي دَفْعِ حَاجَةِ الْفَقِيرِ فَهَذَا هُوَ الْفَصَاحَةُ فِي اخْتِيَارِ الْأَحْسَنِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ ...[1]

وقال أبو هلال العسكري وهو يذكر الفروق بين الفعل والإنشاء : "وَقَالَ بَعضهم الإِنْشَاء ابْتِدَاء الايجاد من غير سَبَب وَالْفِعْل يكون عَن سَبَب ."[2]

فتلخص من أقوال العلماء أن الفعل من معانيه الإبداع ، ومن سماته السرعة ، والإيجاد من سبب ، وبالعودة إلى قصة زكرياء عليه السلام نجد أن المولى سبحانه وتعالى استجاب دعاءه ، فبشره بالولد ، ولم يكن بين البشارة والحمل وقت ممتد ، بل سارع المولى سبحانه في المن على عبده زكرياء ، هذه المنة التي تدل على إبداع المولى سبحانه وتعالى وقدرته ، فعندما تتعطل الأسباب تتعطل على الخلق لا على مسبب الأسباب ، فالعقم ، والكبر ، لا يقفان أمام القدرة الإلهية ، فالله خلق ما هو أعجب من ذلك ؛ والملاحظ أن هذه البشارة جاءت مقدرة على الأسباب (الرجل ، والمرأة ، النطفة والرحم) فهو خلق مقدر على الأسباب المعروفة لدى الجميع .

وأما لفظ (الخلق)فورد في قصة مريم ، وإن كان يحيى تعجب من تلف الأسباب ، فمريم تعجبت من انتفائها أصلا ، لذلك جاء البيان الإلهي بلفظ (الخلق) الذي يعني الإيجاد بلا سبب ، وهو خلق انسان بلا أب ، ولا عجب ، فالله يقول : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ آل عمران

---

[1] – البرهان في علوم القرآن ، ج/4 ، ص :83.

[2] – الفروق لأبي هلال العسكري ، ص :133.

: 59. وأصل الخلق " التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشّيء من غير أصل ولا احتذاء، قال تعالى: ﴿خَلَقَ السماواتِ وَالأَرْضَ﴾ الأنعام: 01. أي: أبدعهما، بدلالة قوله: ﴿بَدِيعُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ﴾ البقرة: 117.[1] يقول ابن عاشور :"وَعُبِّرَ عَنْ تَكْوِينِ اللَّهِ لِعِيسَى بِفِعْلِ يَخْلُقُ إِيجَادُ كَائِنٍ مِنْ غَيْرِ الأَسْبَابِ الْمُعْتَادَةِ لإِيجَادِ مِثْلِهِ، فَهُوَ خَلْقٌ أُنُفٌ(مستأنف) ناشيء عَنْ أَسْبَابِ إِيجَادِ الذَّرِّ، وَكَانَ لِفِعْلِ يَخْلُقُ هُنَا مَوْقِعٌ مُتَعَيِّنٌ، فَإِنَّ الصَّانِعَ إِذَا صَنَعَ شَيْئًا مِنْ مَوَادَّ مُعْتَادَةٍ وَصَنْعَةٍ مُعْتَادَةٍ، لاَ يَقُولُ خَلَقْتُ وَإِنَّمَا يَقُولُ صنعت."[2]

ويرى السامرائي : أن الفعل أيسر من الخلق ، فالفعل عام ، فيصح أن يقول الإنسان : أنا أفعل ما أشاء . ولا يصح أن يقول : (أخلق) ، فالخلق خاص بالله سبحانه ؛ وهناك ربط لطيف بين الفعلين والمشهدين ، فناسب ذكر الفعل الأيسر (يفعل) الذي هو أيسر من (يخلق) مع زكريا ، لأن إيجاد ولده كان من أبوين ، فالأمر أيسر من إيجاد ابن مريم من أم بلا أب ، فناسبه ذكر الفعل (يخلق) ، فناسب اللفظ الحدث من ناحية السهولة والغرابة .[3]

فاتضح أن كل فعل ورد في مقامه وموضعه المناسب له ، بحيث أن دلالة كل فعل أعطت للصورة المعروضة تمامها وبيانها ، وحقق إبدال الفعل المضارع (يفعل) بالفعل المضارع (يخلق) الإنسجام التام والترابط المعنوي ، مما يؤكد على أحقية كل فعل بموضعه ، ولا يمكن أن يستعاض عنه بأفعال ترادفه (كأوجد ، وأنشأ ، وصنع ، وأبدع ...) وغيرها من الأفعال .

---

[1] – المفردات في غريب القرآن ، ص :296.

[2] – التحرير والتنوير : ج/3 ، ص: 249.

[3] – ينظر أسئلة بيانية للسامرائي ، ج/1 ، ص / 32.

جـ . الإبدال بين (تحزنوا ، وتأسوا) :

قال تعالى ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ آل عمران :153. وقال أيضا : ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ الحديد :23.

عبر القرآن الكريم في سورة آل عمران بكلمة (تحزنوا) ، بينما في سورة الحديد استعمل كلمة بدلا منها وهي : (تأسوا) ، ولا شك أن في هذا الإبدال أسرارا بلاغية ، ولطائف بيانية ، وللوقوف على هذه الأسرار يتعين أن نقف على الدلالة اللغوية كلمتي (الحزن ، والأسى) ، وخصوصية التوظيف القرآني لهاتين الكلمتين .

فالحزن في اللغة العربية نقيضُ الفرَح، وهُوَ خلافُ السُّرور... والجمعُ أَحْزانٌ وَقَدْ حَزِنَ يَحْزَنُ حَزَناً وحَزِنَ وحَزَّنَ وحَزُنَ الرجُلُ حَزْناً وهو حَزِينٌ وحَزْنانٌ :شَدِيدُ الحُزْنِ. ويُقَالُ حَزَنَه الأَمرُ يَحْزُنُه حُزْناً وأَحْزَنَه، فَهُوَ مَحْزونٌ ومُحْزَنٌ وحَزِينٌ وحَزِنٌ ..."[1]

وقد قيل إن الحزن نقيض السرور ، أما الفرح فنقيضه الغم ؛ والحزن يعني الأسى ، فهما مشتركتان في المعنى ، وقد يفترقان ، تقول عائشة بنت عبد الرحمن : " وبالحزن فسر الطبري آية الحديد عن ابن عباس. وعنه أيضاً قال: الصبر عند المصيبة والشكر عند النعمة . ونحوه ما في الكشاف، وجامع القرطبي وأنشد: * يقولون لا تهلك أسى وتجمل * . وفسر "الراغب" الأسى بالحزن، وقال: وحقيقته اتباع الفائت بالغم. وأصله من الواو لقولهم: رجل أسَوان أي حزين... ثم تعلق على كل ذلك بقولها : " وتفسير الأسى بالحزن قريب، وفيه مع هذا القرب، أن الأسى يكون على ما فات، والحزن قد يكون على حاضر أو فات: يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ} {إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ}{أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ } [2]. وفي هذا التعليق تؤكد بنت الشاطيء على مسئلة الفروق

---

[1] – لسان العرب ، ج/13 ، ص :111.

[2] – الإعجاز البياني للقرآن ومسائل نافع بن الأزرق ، ص :421/420.

اللغوية ، وإنكار الترادف في القرآن الكريم ، ولذلك عبرت عن اشتراك الكلمتين في أصل المعنى (بالقرب) ، وفرقت بين اللفظتين بأدلة من القرآن الكريم ، وهو المرجع في جميع ذلك ، وقد لاحظت الفرق بين الكلمتين بأن الأسى لا يكون على حاضر أو مستقبل بخلاف الحزن فإنه يستعمل فيهما ، وهذا الفرق وجيه ، ولكن هناك فروقا أخرى يمكن أن تضاف لذلك ؛ فمن المعروف في اللغة العربية أن تغير الأحوال وتعدد صفات الذات سبب في تعدد الكلمات ، كما هو الحال في تعدد أسماء السيف ، والأسد ، وتقلبات النفس في الحب والغرام ، والرجاء والتمني وغير ذلك، لذلك نجد من العلماء من يعتبر الأسى حزنا ، ولكن بزيادة في درجته ، كما فسر ابن عاشور الأسى في قوله تعالى﴿ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ الأعراف :93. بشدة الحزن[1] ، وهذا فرق جلي . وهناك فرق آخر نلمحه في بنية الكلمتين ، يعكس قول ابن عاشور ، وهو : أن كلمة (الحزن) مختتمة بنون ساكنة ، أما (الأسى) فمختتمة بالف مد مقصورة ، والحروف المكونة لكلمة الحزن (ح ، ز ، ن) فيها حرارة الحاء ، وزلزلة الزاي ، وعراقة النون ، أما كلمة (أسى) فحروفها المتكونة منها (أ ، س ، ى) ففيها أثر القطع ، وسهولة السين ، وامتداد الألف المقصورة ، وبالمقارنة بين المكونات الحرفية للكلمتين نجد أن كلمة الحزن أشد وأشق ، غير أنها تنتهي بسكون ، وهي متوافقة مع المعنى المعجمي للكلمة الذي يعود إلى معنى (الصعوبة والغلظة والخشونة) ، ويرى الباحث أن الحزن ما يقع على النفس من غم في مدة لا تطول حتى يسكن ، أما الأسى فهو الحزن اللازم ، الذي يعيش مدة طويلة في نفس صاحبه ويتجدد ، فالحزن أقصر لبثا من الأسى ، لذلك يحزن المرء على فقد والديه مدة ، ثم يسكن ذلك الحزن ولا يتجدد ، فهذا الحزن لا يسمى أسى ، وإنما يكون الأسى إذا فقد المرء مثلا مالا ، أو فرصة ثمينة لا تعوض ، أو عمرا طويلا في غير فائدة ، فيصحبه الحزن كلما تذكر ذلك ، وقد يكون هناك فرق آخر ، وهو أن الحزن لما يتعلق بالعلاقات الإنسانية من فقد حب أو شخص أو

---

[1] – التحرير والتنوير ، ج/9 ، ص : 15

التعرض لإذاية في نفس أو عرض أو غير ذلك ، والأسى يكون على فقد الأغراض والأموال ، والفرص ، والله أعلم .

وبالرجوع إلى الآيتين يتضح لنا أن كلمة الحزن وردت في سياق الحديث عن الهزيمة في المعركة أمام الأعداء ، فالمسلمون في معركة أحد تعرضوا لمحنة كبيرة أمام الكفار ، ووقعوا في أخطاء جسيمة ، حولت نصرهم إلى هزيمة ، بعد أن خالف الرماة على الجبل أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووقع في هذه المعركة شهداء كثر ، ونال الكفار من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكسرت رباعيته ، وشج جبينه ، ومات في هذه المعركة عمه حمزة سيد الشهداء ، ومثل بجسده ، وكانت المعركة كلها غم وهم وشدة وحرج ، ورجع المسلمون منها في حالة نفسية مهزومة ، فأنزل الله عليهم هذه الآيات .[1]

وأما كلمة (الأسى) فوردت في سياق توجيه المؤمنين إلى العقيدة الصحيحة والإيمان بالقدر في ما ينزله الله من مكروه بهم ، قال تعالى : ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ الحديد :22. فكل مصيبة تكون في الأرض ، وكل مصيبة تصيب الإنسان إلا وهي في الكتاب مسطورة ، فهنا توجيه رباني للمسلم ليكون موقنا بالله ، وليعلم أن كل شي بقضاء الله وقدره ، وليس كل مكروه شر ا ، (فعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم)، وليس كل محبوب خير ا ، (وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) ، وهذا المعنى هو الذي جاءت به آية سورة الحديد (لكيلا تاسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما ءاتيكم) ، وبما أن السياق ليس فيه تحديد لنوع المصائب ، وليس فيه ذكر للموت ، جاء بلفظ (الأسى) ، لأن ما يفوت الإنسان من أغراض وأرباح وأوقات وفرص ، أكثر في الغالب مما يفوته من فقدان الأشخاص ، لذلك جاء التعبير بالأغلب ، وبهذا المعنى يمكن أن نقول : إن الحزن أشد من الأسى ـ عكس ما قال ابن عاشور سابقا ـ ، لأن الأسى قد يكون على الشيء اليسير القليل ، وقد

---

[1] – ينظر: (أسباب النزول للواحدي ، ص : 121) و(الكشاف ، ج/1، ص:427).

يكون على فقد غرض من أغراض الدنيا خسيس ، وأما الحزن فيكون على فقد الأشياء المهمة في حياة الإنسان ، فهو أشد من الأسى ، وبهذا المعنى جاء التعبير القرآني باللفظ الأشد (الحزن) في سياق المعركة والموت والهزيمة ، وجاء في باللفظ الأقل شدة (الأسى) في التوجيه العام لما يجب أن يكون المسلم عليه إزاء فقدان المنافع .

د . الإبدال بين (يخرصون ، يظنون) :

ورد الفعلان في قوله تعالى﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ الزخرف :20 ، وفي قوله سبحانه : ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ الجاثية :24.

جاء الإبدال بين الفعلين المضارعين (يخرصون ، ويظنون) ، وسُبق كل منهما بنفي العلم (مالهم بذلك من علم) ، فبعد نفي العلم أثبت لهم مرة (الخرص) ومرة (الظن) ، فما معنى ذلك ؟ وما هي الأسرار البلاغية للإبدال بين الفعلين ؟.

يقول ابن منظور يَخْرُصُ ، بِالضَّمِّ، خَرْصاً وتخَرَّصَ أَي كَذَب. وقَوْلٌ خَرَّاصٌ :كذّابٌ فِي التَّنْزِيلِ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ؛)قَالَ الزَّجَّاجُ :الْكَذَّابُونَ . وتَخَرَّصَ فلانٌ عَلَى الْبَاطِلِ واخْتَرَصَه أَي افْتَعَله،وقِيلَ الْجَائِزُ أَن يَكُونَ الخَرَّاصُون الَّذِينَ إِنما يَظُنّون الشيءَ وَلاَ يَحْقُقُونَ مَا يَعْلَمُونَ.وَقَالَ الْفَرَّاءُ مَعْنَاهُ لُعِنَ الْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ قَالُوا مُحَمَّدٌ شَاعِرٌ ، وأَشباه ذَلِكَ خَرَصُوا بِمَا لاَ عِلْم لَهُمْ بِهِ. وأَصل الخَرْصِ التَّظَنِّي فِيمَا لاَ تَسْتَيْقِنُه، وَمِنْهُ خَرْصُ النَّخْلِ إِذا حَزَرْتَ التَّمْرَ لأَن الحَزْرَ إِنما هو تقدير بِظَنٍّ لاَ إِحاطة...[1] وعلل أبو هلال العسكري سبب استعمال الخرص في معنى الكذب بقوله "إِنَّمَا اسْتعْمل الْخرص فِي مَوضِع الْكَذِب لأَن الْخرص يجْرِي على غير تَحْقِيق فَشبه بِالْكَذِبِ فَهُوَ فِي مَوْضِعه وَاسْتعْمل فِي مَوْضِعه..."[2] فقوله تعالى : (يخرصون) أي : يكذبون .

وأما (الظن) فهو " الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض، ويستعمل في اليقين والشك. وقيل: الظن: أحد طرفي الشك بصفة الرجحان." [3] .

---

[1] – لسان العرب ، ج/7 ، ص :21.

[2] – الفروق للعسكري ، ص:45.

[3] – التعريفات للجرجاني ، ص :144.

يقول ابن منظور الظَّنُّ شَكٌّ إِلاَّ يَقِينٌ لَيْسَ بيقينِ عِيانٍ ، إِنما هُوَ يقينُ تَدَبُّرٍ ، فأَما يَقِينُ العِيَانِ فَلاَ يُقَالُ فِيهِ إِلاَّ عَلِمَ...[1]

ويقول الراغب : "الظن: اسم لما يحصل عن أمارة، ومتى قويت أدّت إلى العلم، ومتى ضعفت جدّا لم يتجاوز حدّ التّوهّم..."[2] وعرفه أبو هلال العسكري بقوله أَن:الظَّن ضرب من أَفعَال الْقُلُوب يحدث عِنْد بعض الأمارات وَهُوَ رُجْحَان أحد طرفِي النَّجَوُّز وَإِذا حدث عِنْد أَمَارَات غلبت وزادت بعض الزِّيَادَة فَظن صَاحبه بعض مَا تَقْتَضِيه تِلْكَ الأمارات سمي ذَلِك غَلَبَة الظَّن وَيسْتَعْمل الظَّن فِي مَا يدْرك وَفِي مَا لاَ يدْرك...[3] فقوله تعالى : (يظنون) أي : يشكون .

فنحن أمام معنيين (الكذب ، والشك) ، فنتاج الكذب القول بلاعلم ، والتعلق بأمارات فاسدة لا تصلح دليلا أصلا ، ونتاج الشك التصور بلا علم ، المستند إلى أمارات لا تفيد علما يقينيا ، وبهذا المعنى نتوجه للنظر في سياق الآيتين ، مع استصحاب ما قاله علماؤنا الأجلة في توجيههما.

يرى الخطيب الإسكافي ، والكرماني ، وابن جماعة ، وابن الزبير الغرناطي ، أن سياق الآية الأولى يتحدث عن المشركين الذي نسبوا لله البنات ، وعبدوهم ، وساقوا الحجة على صحة ما يفعلون بقولهم : (لوشاء الرحمن ما عبدناهم) ، أي : أنه لوكانت عبادتهم ضالة فاسدة ، لما يسر الله لهم ذلك ، فهو صاحب المشيئة الذي لا يحدث في ملكه ما يريد ، وهذه الحجة في أصلها واهية ، استعملت لتقرير واقع كاذب ، فنفى الله عنهم العلم ، وأثبت لهم الخرص ، الذي يعني الظن الواهي الكاذب .

وأما سياق الآية الثانية فهو يتحدث عن المشركين المنكرين للبعث ، المستدلين على ذلك بأمارات موجودة ، لكن ليست يقينية ، ولا صادقة ، فأنكروا البعث لمجرد أن ما تعارف عليه الناس في هذه الدنيا هو ولادة وموت ، ولم يعرف

---

[1] – لسان العرب ، ج/13 ، ص :272.

[2] – المفردات في غريب القرآن ، ص : 539.

[3] – الفروق للعسكري ، ص :98.

أن حدث في الدنيا بعث لأناس ماتوا من قبل ، فهذه الأمارة صادقة من حيث العرف الدنيوي ، ولكن ليس فيها دلالة على عدم البعث ، فتعلق هؤلاء المنكرين بهذه الحجة هو مجرد ظن لايقين ، لذلك نفى الله عنهم العلم ، وأثبت لهم الظن ، الذين حصل لديهم بأمارة ، ولكن ليس فيها يقين ، بل هي عين الشك .[1]

[1] – ينظر : (دة التنزيل ، ص :1174) و (كشف المعاني ، ص : 333) و (البرهان في متشابه القرآن ، ص :224) و (ملاك التأويل ، ص : 440).

3 . 3 . الإبدال بين الأفعال المبنية للمجهول :

ينقسم الفعل باعتبار فاعله إلى معلوم ومجهول. فالفعل المعلوم : ما ذُكر فاعِلهُ في الكلام نحو : قرأ محمد الكتاب ، ويكتب محمد الدرس .

والفعلُ المجهول : ما لم يُذكر فاعله في الكلام ، بل كان محذوفاً ، ويسميه النحاة كذلك ب(الذي لم يسم فاعله).

وأغراض بناء الفعل للمجهول ، الإيجاز اعتماداً على ذكاء السامع، وإما للعلم به، وإما للجهل به، وإما للخوف عليه، وإما للخوف منه، وإما لتحقيره؛ فتُكْرِمُ لسانك عنه، وإما لتعظيمه تشريفاً له فتكرمُه أن يُذكر، إن فعل ما لا ينبغي لمثله أن يفعله، وإما لإبهامه على السامع.

فإن كان ماضياً ضُم أوله ، وكُسر ما قبل آخره، فتقولُ في: كتب ، وأرسل ، وتسلم ، واستبشر (كُتِبَ ، أُرسِلَ ، تُسُلِّمَ ، اسْتُبْشِرَ) .

وإن كان مضارعاً ضُم أوله ، وفُتح ما قبل آخره ، فتقول في : يكتب ، ويرسل ، ويتسلم ، ويستبشر (يُكْتَبُ ، يُرْسَلُ ، يُتَسَلَّمُ ، يُسْتَبْشَرُ).

وهناك وجوه أخرى لبناء الفعل المجهول تأتي على حسب عدد حروفه ، وصحته وعلته .. وغير ذلك مما هو مقرر في كتب النحو ؛ وأما فعل الأمر فلا يكون مجهولا أبدا .[1]

وقد ورد في القرآن الكريم الإبدال بين بعض الأفعال المبنية للمجهول ، وقد اختار البحث بعض النماذج منها ، وهي كالتالي :

---

[1] – ينظر : (شرح ابن عقيل ، ج/2 ، ص :114) . و (جامع الدروس العربية للغلاييني ، ج/1 ، ص : 51/50).

1 . الفعل الماضي المبني للمجهول :

1 . أ . الإبدال بين (رُدِدت ، ورُجعت) :

جاء ذلك في قصة أصحاب الجنتين ؛ أحد الأصحاب كان مؤمنا ، والآخر كافرا ، فأخبرنا القرآن الكريم عن الكافر منهما وهو يقول :﴿مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ الكهف : 36.

وقال تعالى في سياق آخر، وهو يحدثنا عن بعض الصفات المذمومة في الإنسان:﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ فصلت :50.

وقع الإبدال بين الفعلين (رددت ، ورجعت) ، وللعلماء في توجيه ذلك آراء وجيهة ، يقول الإسكافي : " للسائل أن يسأل عن قوله في الأولى: (رددت) وقوله في الثانية: (رجعت) وهل كان يجوز أحد اللفظين مكان الآخر في الاختيار؟

والجواب أن يقال: إن الأولى بقوله: (رُددت إلى ربّي) أولى، وذلك لما تقدّم من وصف الجنتين اللتين حوتا مراده، واشتملتا على ما أراده، وتقديره فيها أنهما يدومان له . والردّ عن الشيء يتضمن معنى كراهية للمردود ، تقول : قصد فلان فلاناً فرُدّ عنه، وقصد فلاناً فرجع عنه، فلما كان الأول ينقل عن جنته وهو خلاف محبّته كان استعمال اللفظ الذي يدل على الكراهية فيه أولى ؛ والثانية لم يتقدمها مثل ما تقدم هذه ، لأن قبلها: (لايسأم الإنسان من دعاء الخير وإنْ مسّه الشر فيئوس قنوط) ، إلى قوله: (للحسنى) وليس في (رُجع) " ما في (رُدّ)من كراهة وهوان يلحقان المردود ولا يلحقان المرجوع، فافترقا لذلك. " [1]

فالفعل (رد) فيه ثقل واستكراه ، أما الفعل (رجع) فيستعمل في الغالب لما هو أخف وأيسر ، وقد أكد ذلك السامرائي في بحثه عن استعمالات القرآن للفعل ،

---

[1] – درة التنزيل ، ص :875. وينظر : (البرهان في متشابه القرآن ،ص :169) و(كشف المعاني ، ص :239) و(ملاك التأويل ، ص :318).

فخلص إلى أن الفعل (رد) استعمله القرآن في غالب الأحوال للأمور الثقيلة والمستكرهة ، سواء كان ذلك في الرد فيما هو فيه من حال إلى غيره ، أي : كراهية ترك ما هو فيه إلى غيره ، لأن ما هو فيه محبوب لديه وتركه ثقيل عليه ، وساق لذلك عدة أدلة من القرآن الكريم ، كآية التوبة في المنافقين ، وآية الجمعة في اليهود ، وأكد كذلك أن الفعل (رد) استعمل في العقوبات والعذاب ، ولم يستعمل الفعل (رجع) ، إضافة إلى أن الفعل (رد) فيه تضعيف مستكره ثقيل على اللسان ، فناسب ثقل اللفظ ثقل الفعل ، ولهذا الثقل لم يرد فاصلة في القرآن الكريم ، خلاف الفعل (رجع) فوروده فاصلة في القرآن كثير.[1]

ويرى الباحث أن الفعلين يكشفان لنا عن نفسية صنفين من الناس ، رجل كافر بالله ، منكر للساعة وشاك في حقيقتها ، منعم مترف ، متعلق بالدنيا تعلق الرضيع بأمه ، لا يقبل فراقها إلا على مضض ، لذلك استعمل القرآن في حقه الفعل (رد) ، وفي الآية الأخرى صورة للإنسان الذي لا يعرف ربه ، سواء كان كافرا أوفارغا قلبه من الإيمان ، ذلك الذي يعيش على وهم أنه ما رزقه الله من خير إلا وهو يحبه ، ففي الآية ذكر لصفات الإنسان النفسية التي لم تصقل بالإيمان ، أي : أن كل إنسان إلا وهذه الأفكار الخاطئة موجودة في عقله ، مالم يعالجها بالتدين الصحيح والفكر السليم؛ والآية لم تذكر حالة هذا الإنسان الإجتماعية والمادية ، فالإنسان قد يكون فقيرا ، أو متوسط الحال ، أو غنيا ، وأغلب الناس في الطبقتين الأولى والثانية ، ولا شك أن تعلق الغني بالدنيا يختلف عن تعلق الفقير ، لذلك جاء هنا الفعل (رجعت) لأنه أقل شدة من الفعل (رد) ولأن القرآن هنا يحكي صفات الإنسان على وجه العموم .

يقول ابن عاشور: " أن الإنسان تتفاوت أفراده في هذا الخلق المعزو إليه على تفاوت أفراده في الغرور ، ولما كان أكثر الناس يومئذ المشركين كان هذا الخلق فاشيا فيقتضيه دين الشرك. ولا نظر في الآن كان يومئذ من

[1] – ينظر: من أسرار البيان القرآني للسامرائي ، ص :47.

لمين لأ نَّهُمُ النَّادرُ ، عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمَ قَدْ يُخَامِرُهُ بَعْضُ هَذَا الْخُلُقِ وَتَرْتَسِمُ فِيهِ شَيَاتٌ مِنْهُ وَلَكِنَّ إِيمَانَهُ يَصْرِفُهُ عَنْهُ انْصِرَافًا بِقَدْرِ قُوَّةِ إِيمَانِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لاَ يَبْلُغُ بِهِ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي يَقُولُ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً، وَلَكِنَّهُ قَدْ تَجْرِي أَعْمَالُ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صُورَةِ أَعْمَالِ مَنْ لاَ يَظُنُّ أَنَّ السَّاعَةَ قَائِمَةٌ مِثْلَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تُونِفُ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَاللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ عَذَابِنَا، وَإِذَا ذُكِرَ لَهُمْ يَوْمُ الْجَزَاءِ قَالُوا: مَا ثَمَّ إِلاَّ الْخَيْرُ وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَجَعَلَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الآيَةِ مَذَمَّةً لِلْمُشْرِكِينَ وَمَوْعِظَةً لِلْمُؤْمِنِينَ كَمَدًا لِلأَوَّلِينَ وَانْتِشَالاً لِلآخِرِينَ ." [1]

وقد سبق ذكر أغراض بناء الفعل وحذف الفاعل ، ومن ذلك : الجهل ، والإنكار ، والخوف ، والتعظيم ، والتحقير ... وفي هاتين الايتين حذف الفاعل بغرض الجهل والإنكار والإستخفاف ، فكان لبناء الفعل للمجهول انسجام مع موضوع الكلام الذي ورد على لسان أولئك المنكرين .

. ب . الإبدال بين (أُنزِل ، وأُلقِيَ) :

ورد ذلك في قوله تعالى وهو يتحدث عن مشركي قريش : ﴿وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (6) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ (7) أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (8) ﴾ سورة : ص .

وورد مثل ذلك على لسان قوم صالح ، قال تعالى :كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ (24) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (25) ﴾ سورة : القمر.

نلاحظ أولا أن السياقين مختلفين ، فسياق الآية الأولى يتحدث عن المشركين العرب في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، والآية الثانية تتحدث عن كفار ثمود قوم

---

[1] – التحرير والتنوير ، ج/25 ، ص :13.

صالح ، وما يجمع الآيتين هو : الحديث عن أقوام الأنبياء المشركين الذين تعرضوا للأنبياء بالتكذيب والتهكم ، فقال المشركون من قريش في حق النبي صلى الله عليه وسلم : (أأنزل عليه الذكر) ، وقال المشركون من ثمود في حق النبي صالح عليه السلام : (أألقي الذكر عليه) ، وفي هذا الرد العنيف من الفريقين إنكار للنبوة ، وتكذيب لله ورسوله ، ولكن تتضح درجة العنف من كل فريق من خلال استعمال الفعلين .

فالمشركون من أهل مكة عبروا بـ(أأنزل) ، وهي كلمة أقل شدة من كلمة (أألقي) التي قالها قوم صالح ، والإلقاء يتضمن معنى الإنزال ، فألقي كأنزل كما قال المفسرون ، لكن يضاف إلى أن الإلقاء نزول بسرعة ، يقول الفخر الرازي : "وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ مَنْ طَرِيقِ الْمُبَالَغَةِ وَذَلِكَ لأَنَّ الإِلْقَاءَ إِنْزَالٌ بِسُرْعَةٍ وَالَّذِي كَانُوا يَقُولُونَهُ «الْوَحْيُ مَعَ الْمَلَكِ فِي لَحْظَةٍ يَسِيرَةٍ» وَكَأَنَّهُمْ قَالُوا الْمَلَكُ جِسْمٌ وَالسَّمَاءُ بَعِيدَةٌ يَنْزِلُ فِي لَحْظَةٍ فَقَالُوا أُلْقِيَ وَمَا قَالُوا أُنْزِلَ ...[1]

وقد ذكر الكرماني سببا آخر في قول كفار قريش (أأنزل عليه) ، وهو: " أن مَا فِي هَذِه السُّورَة . حِكَايَة عَن كفار قُرَيْش يجيبون مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِين قَرَأَ عَلَيْهِم {أنزلنا إِلَيْك الذّكر لتبين للنَّاس} فَقَالُوا :{أأنزل عَلَيْهِ الذّكر من بَيْننَا}وَمثله {الْحَمد لله الَّذِي أنزل على عَبده الْكتاب} {وَتبَارك الَّذِي نزل الْفرْقَان على عَبده} هُوَ كثير.

وَمَا فِي الْقَمَر حِكَايَة عَن صَالح وَكَانَ يَأْتِي الأَنْبِيَاء يَوْمئِذٍ صحف مَكْتُوبَة وألواح مسطورة كَمَا جَاءَ إِبْرَاهِيم ومُوسَى فَلهَذَا قَالُوا {أألقي الذّكر عَلَيْهِ} مَعَ أَن لفظ الإِلْقَاء يسْتَعْمل لما يسْتَعْمل لَهُ الإِنْزَال . "[2]

ويمكن أن يضاف إلى ذلك أنه ورد في القرآن الكريم قول فرعون لموسى وهو يستخف به : (فلولا ألقي عليه أساورة من ذهب) ، ويذكر القرآن أيضا حكاية

---

[1] – مفاتيح الغيب ، للرازي ، ج/29 ، ص :307.

[2] – البرهان في متشابه القرآن ، ص :216.

عن ملكة سبأ أنها قالت (إني ألقي إلي كتاب كريم) ، وملكة سبأ من العهد القديم ، فربما كان القدماء يعتبرون كل إنزال من السماء يسمى إلقاء ، والله أعلم.

وهناك معنى آخر يمكن أن يستأنس به ، وهو قول ابن عطية في تفسير قوله تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ القصص :86.

قال رحمه الله : " وقوله تعالى:يُلْقَى إِلَيْكَ ، عبارة عن تقليده النبوءة وتبليغ القرآن. كما تقول: ألقى فلان إلى فلان بالرياسة ونحو هذا... "[1] فيؤخذ من معنى الإلقاء معنى التقليد والرئاسة والملك ، وهذا المعنى يتفق مع أحوال النبوة في الزمن الماضي ، فلقد كان في الأنبياء الملوك ، كداود وسليمان ، وطالوت الملك ، وغيرهم ، فربما كان تعبيرهم ب(أألقي) ترجمة لواقع النبوة في أزمانهم ، بأن النبوة والملك كانا يمثلان شيئا متلازما ، وهذا الرأي قد لا يستقيم ، لأن أغلب المؤرخين يذكرون قوم صالح بأنهم كانوا في زمن قديم جدا ، بين نوح وإبراهيم ، ولم يكن من الأنبياء يومئذ إلا القليل ، فالنبوة الملكية لم تكن معروفة في أزمانهم على الأقل ؛ وبقي من الإحتمال أن يقال : أنهم قبيلة معروفة بنظام ملكي ، فلذلك لما دعاهم سيدنا صالح عليه السلام إلى عبادة الله واتباعه ، رأوا في ذلك أنه خروج عن العرف السائد عندهم ، باعتبار أن الحاكم فيهم كان يقلد من عائلة توارثت الملك ، أو يقلد باختيار منهم ، وسيدنا صالح لم يكن من العائلة الحاكمة ، ولم يقلد الحكم باختيار منهم ، فاعتراضهم عليه ربما كان بسبب أنهم رأوا في دعوته أنه أراد أن ينصب نفسه ملكا عليهم دون اختيار منهم وتقليد ، وعلى كل حال فالتعبير بكلمة (أألقي) ربما تكون مفتاحا لمعرفة حياة قوم صالح ، وطبيعة نظمهم ، فالكلمة بنت بيئتها ، والله أعلم .

---

[1] – تفسير ابن عطية : ج/4 ، ص :303.

2 . الفعل المضارع المبني للمجهول :

. أ . الإبدال بين (يُنصَرون ، ويُنظرون) :

ورد ذلك في قوله تعالى لبني إسرائيل : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ (86) ﴾ البقرة . وورد في آية أخرى قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (161) خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ (162) ﴾ البقرة .

ففي الآية الأولى نفى المولى سبحانه تخفيف العذاب عن بني إسرائيل الذين ارتكبوا تلك المنهيات ، ونفى عنهم النصير ، وأما في الآية الثانية فنفي تخفيف العذاب ، ونفي الإنظار تعلق بالكافرين ؛ فالإبدال في الآيتين وقع بين الفعلين المضارعين (ينصرون ، وينظرون) ، فما هو السر البلاغي وراء هذا الإبدال ؟.

يقول ابن عاشور في تفسير الآية الأولى :(وَالْقَوْلُ فِي اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ كَالْقَوْلِ فِي أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى)وَالْقَوْلُ فِي فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ نَظِيرُ الْقَوْلِ فِي لاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ).

وَ مُوقِعُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ(يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ)هُوَ الأرتنا الْمُجْرِمَ بِمِثْلِ هَذَا الْجُرْمِ سالْعُظْمِ الْعَذَابُ الْعَظِيمُ وَلاَ يَجِدُ نَصِيراً يَدْفَعُ عَنْهُ أَوْ يُخَفف."[1]

فهذه الآية تتحدث عن نفي النصير ، وسياقها يتحدث عن بني إسرائيل الذين اشتروا الحياة الدنيا بتضييع الآخرة ، واشتراء الدنيا لا يعني سوى الخسارة والبوار ، لأن الدنيا دار فناء لا يدوم فيها نعيم ولا ملك لأحد ، لذلك بين المولى سبحانه وتعالى أن هؤلاء الذين باعوا آخرتهم سيكون حسابهم عسيرا ، وليس لهم من الله مفر ، فلا ناصر لهم ولا نافع ، فعقابهم شديد ، وسيتجردون من كل شيء ، من الأموال والأقارب والأصحاب .

وأما سياق الآية الثانية فهو يتحدث عن المشركين الذين توعدهم الله بشدة العذاب ، وبأنهم لا ينظرون ، وكلمة (ينظرون) لها معنيان ، ويفرق بين المعنيين بالمصدر ، فالنظر يكون بمعنى الرؤية ، ويعني أيضا التأخير والإمهال .

قال الراغب : " نظر اللَّهُ تعالى إلى عِبَادِهِ هو إحسانُهُ إليهم وإفاضةُ نِعَمِهِ عليهم. قال تعالى: ﴿وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ﴾آل عمران :77. وعلى ذلك ﴿وَإِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾المطففين :15.

والنَّظَرُ الانْتِظَارُ . يقال: نَظَرْتُهُ وانْتَظَرْتُهُ وأَنْظَرْتُهُ. أي أخَّرْتُهُ. قال تعالى: ﴿وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ هود:122. ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ يونس :102. وقال:﴿انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ الحديد:13.. ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ الدخان :29. فنفى الإنظارَ عنهم إشارةً إلى ما نبَّه عليه بقوله:﴿ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ الأعراف :34..."

---

[1] – التحرير والتنوير ، ج/1 ، ص : 592.

فبهذا المعنى لكلمة (ينظرون) فسر العلماء مضمون الآية ، أي : أن الكافرين لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ، ولا يقيم لهم وزنا ، ويضاف إلى ذلك تعجيل العذاب لهم وتشديده عليهم ، فجملة (لا ينظرون) فيها صورتان من صور المهانة والعذاب ، صورة احتقار معنوي ، وصورة عذاب مادي معجل ، كأنه شخص حانق متغيظ يترقب عدوه على عجل كي يشفي منه الغليل ، وهذه الصورة وردت في القرآن في وصف النار ، قال تعالى ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (7) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ...(8) ﴾ سورة الملك . أَصْلُهُ تَتَمَيَّزُ ، أَيْ تَنْفَصِلُ ، أَيْ تَتَجَزَّأُ ءً تَخْيِيلاً لِشِدَّةِ الاضْطِرَابِ بِأَنَّ أَجْزَاءَهَا قَارَبَتْ أَنْ تَتَقَطَّعَ، وَهَذَا كَقَوْلِهِمْ بَعَضِبَ فُلاَنٌ وَطَارَتْ مِنْهُ شُقَّةٌ فِي الأَرْضِ وَشُقَّةٌ فِي السَّمَاءِ ."[1]

والمتأمل في الخطاب القرآني يجده يخاطب المشركين بما تقتضيه أحوالهم ، فقد سجل القرآن الكريم مقولات أهل الشرك ، وتكرر ذلك عدة سور و بأساليب شتى ، ومن هذه المقولات : استعجالهم العذاب ، قال تعالى عنهم : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ ﴿ فأمطرنا علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ ﴿ فأسقط علينا كسفا من السماء ﴾ . وغير ذلك في القرآن كثير .

فالمشركون دأبوا على طلب العذاب والإستخفاف به ، ظنا منهم بأن ذلك ليس واقعا ، واتكالا على ما ألفوه من إمهال الله للظالمين ، فخاطبهم الله سبحانه وتعالى بنقيض زعمهم ، فإن كانت الدنيا دار إمهال واغتررتم بها حتى لهجتم بطلب العذاب بلا خوف ولا حياء ، فإن الدار الآخرة دار الحساب ، وكل يأخذ ما يستحق على عجل ، فناسب الخطاب ب (لا ينظرون) حال المشركين ، الذين كانوا يستعجلون العذاب .

---

[1] – التحرير والتنوير ، ج/29 ، ص:24.

وأما سياق آية البقرة فهو كما مر سابقا سياق يتحدث عن بني إسرائيل ، وقد خاطبهم الله عز وجل قبل هذه الآية بقليل ، فقال لهم : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ البقرة :48.

نَّصْرُ هُوَ إِعَانَةُ الْخَصْمِ فِي الْحَرْبِ وَغَيْرِهِ بِقُوَّةِ النَّاصِرِ وَغَلَبَتِهَا إِنَّمَا قُدِّمَ الْمُسْنَدُ إِلَيْهِ لِزِيَادَةِ التَّأْكِيدِ لِأَنَّ فِي نَفْيِ نَصْرِهِمْ مُحَقَّقٌ زِيَادَةً عَلَى مَا اسْتُفِيدَ مِنْ نَفْيِ الْفِعْلِ مَعَ إِسْنَادِهِ لِلْمَجْهُولِ ...[1]

فنفي النصير يوم القيامة هو خطاب لبني إسرائيل ، وهو متناسب مع جو السورة التي تكرر فيها خطابهم بذلك ، ومتناسب مع حالهم وتصرفاتهم ، فلقد جاء في سياق آية البقرة أن الله سبحانه وتعالى نهاهم عن سفك الدماء وقتل الأبرياء الضعفاء ، لكنهم عصوا أمر الله ، وفعلوا ما نهاهم عنه ، واستعبدوا الضعفاء ، وسفكوا دماءهم ، واستضعفوهم ، فتوعدهم الله بالذل والهوان وعدم النصير ، جزاء وفاقا، فالجزاء من جنس العمل ، فكما أنهم اعتدوا على من لا ناصر له ، فستدور عليهم الدوائر ، ويكونون في يوم لا يملك فيه أحدهم قوة ولا ناصر.

فناسب كل فعل موقعه ، وتناسق كل وعيد مع مستحقه ، فلا إنظار لمستعجلي العذاب ، ولا نصير لمستضعفي العباد.

---

[1] – التحرير والتنوير ، ج/1، 486.

3 . 4 . الإبدال **بين** أفعال الأمر :

أ . الإبدال **بين** : (احمل ، اسلك).

قال تعالى في قصة سيدنا نوح وهو يصنع السفينة : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ هود:40.

وقال أيضا : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ المؤمنون :27.

وقع الإبدال بين الفعلين (احمل ، واسلك) في قصة واحدة ، وهذا ما يدفع للتساؤل عن سبب ذلك ، وما هو السر البلاغي وراء هذا الإبدال ؟.

ذكر العلماء في توجيه هاتين الآيتين آراء عدة ، ويمكن أن تتكون من ضمها إلى بعض صورة أكثر جلاءوا إقناعا.

ذكر ابن الإسكافي وابن الزبير عدة علل سياقية تؤكد سبب اختصاص كل كلمة بموضعها ، فجاءت على النحو التالي :

- أن سورة " هود" أطول من سورة " المؤمنون " في عدد آياتها ، وقصة نوح في سورة " هود " جاءت مفصلة ، أما في سورة " المؤمنون " فجاءت مجملة ، فكان موضع الإختصار أولى بالمجمل من الكلام ، وموضع البيان أولى بالبسط .
- أن لفظة (حمل) أكثر اتساعا في التصرف اللغوي من لفظة (سلك)، لذلك جاءت الأولى في سورة " هود" المبنية على التفصيل ، والثانية في سورة " المؤمنون " المبنية على الإجمال .

- أن دلالة التفصيل في سورة "هود" تتمثل في الأوامر الثلاث : (احمل) في مرحلة التهيئة والإعداد ؛ (اركبوا) في مباشرة الركوب ؛ (اهبط) في وقت النزول ؛ " كأن نظام العملية كان يقتضي أن يؤمر نوح بمراحلها واحدة واحدة في حينها ، فقد أمر أولا بصنع الفلك فصنعه ...وأمر بالمرحلة التالية (قلنا احمل)[1] ...الخ ؛ وأما في سورة " المؤمنون " فلم تتعرض بالتفصيل للحدث عبر مراحله ، إضافة إلى ذلك أن استفتاح الأمر في سورة " هود" (قلنا احمل) ، وفي سورة " المؤمنون " (فاسلك) ، والأمر الأول أطول من الثاني .[2]

وهذا التحليل مبني على مسألة الطول والإختصار ، والإجمال والتفصيل ، ولكن هناك رأي آخر للطاهر بن عاشور ، يرى فيه أن الخطاب في سورة " هود" جاء وقت وقوع الطوفان ، أي : في لحظة الحدث ، مما ترتب عنه إسناد الحمل إلى نوح ، وهذا الإسناد مثل لنا مشهد السرعة ، لأن نوحا لم يحمل من كل زوجين اثنين وأهله ،وإنما أشرف على عملية ركوب المأذون لهم في السفينة .

وأما في سورة " المؤمنون " فالخطاب فيها كان قبل وقوع الحدث ، لذلك لا نلحظ فيها قلقا ولا سرعة ، وهذا المعنى صورته لنا كلمة (اسلك) ، وقبلها (فإذا جاء أمرنا) ، خلافا لسورة "هود " فقبل(قلنا احمل) (حتى إذا جاء أمرنا)، وهذا التركيب يفيد معنى بداية الحدث والشروع فيه.[3]

فابن عاشور حلل المسألة من وجهة زمن الحدث ، فالحدث الأولى يحكي الواقع ، والحدث الثاني كان يحكي ما ذا سيقع ، لذلك عبر القرآن عن الحدث في سورة " هود " بـ(احمل) التي تفيد الشدة والسرعة في إنجاز العمل ، وناسب أن يبدل هذا الفعل في سورة " المؤمنون " بالفعل (اسلك) الذي ورد في سياق الإخبار عن الحدث قبل وقوعه.

ويتلخص مما ذكر أن ابن الزبير والخطيب الإسكافي ، جعلا مقارنة بين السورتين ، ووجهوا الإبدال بين الفعلين (احمل) و(اسلك) بناء على توافق كل فعل

---

[1] – في ظلال القرآن ، سيد قطب (1358ه) ، دار الشروق ، القاهرة ، ط/17، 1412ه. ج/4، ص:1880.

[2] – ينظر: درة التنزيل ، ص : 937. وملاك التأويل ، ج/2، ص :257.

[3] – ينظر : التحرير والتنوير ، ج/18، ص :46.

مع سياقه من ناحية دوره في تصرف اللغة ، فنال الفعل الأوسع السياق المفصل ، والفعل الأقل اتساعا السياق المجمل ، وهذا الرأي وجيه ، ولكن ما ذكره ابن عاشور أوجه وأدل من غيره في بيان الصورة اللغوية التي مثلها كل فعل في سياقه ، وهذا ما يشد القارئ ويثير اعجابه ، ويضع يده على الدليل الأكثر اقناعا ووضوحا في بيان إعجاز القرآن وبلاغته.

ب ـ الإبدال **بين** : (ارسل ، ابعث).

قال تعالى عن ملإ فرعون وهم يثيرون حفيظته لمواجهة موسى عليه السلام :﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ الأعراف :111. وتكرر هذا القول في سورة الشعراء ، قال سبحانه وتعالى عنهم : ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ الشعراء :36.

وقع الإبدال بين الفعلين (أرسل ، وابعث) ، لما بينهما من الإشتراك في المعنى ، ويؤكد العلماء أن الإرسال والبعث يختلفان في المعنى ، لأن لغة القرآن لا تقر بالترادف ، وما من كلمة إلا ولها خصوصيتها المعنوية واللفظية ، والسياق القرآني كفيل بإبراز تلك الفروق والخصائص لاستعمال الكلمة ، وسنبحث تلك الفروق والخصائص بين معنى الإرسال والبعث .

يقول أبو هلال العسكري في الفرق بين البعث والإرسال : "أنه يجوز أن يبْعَث الرجل إلى الآخر لحَاجَة تخصه دُونك وَدون الْمَبْعُوث إِلَيْهِ ، كالصبي تبعثه إلى الْمكتب فَتَقول: بعثتُه وَلَا تَقول أرْسلته لِأَن الْإِرْسَال يكون إلا برسالة وَمَا جَرِي مجْرَاهَا."[1] أي : أن البعث لا يشترط فيه الرسالة ، بل يتحق بمجرد تحريك الشيء نحو اتجاه معين ، أما الإرسال فلا بد فيه من رسالة .

وهذا الفرق الذي لاحظه أبو هلال العسكري مقبول ، ولكن نحتاج في قبوله إلى بيان الدلالة القرآنية .

فالبعث في القرآن الكريم جاء مع حروف الجر التالية : (في ، واللام ، ومن ، وعلى ،وإلى) ولم يأت مع (الباء) ، وأما الإرسال فجاء مع : (على ـ بكثرة ـ وإلى ، والباء ، وجاء مع المعية (مع)) ؛ ونلاحظ من خلال هذه الإحصائية المختصرة أن البعث في القرآن أكثر من الإرسال تصرفا مع حروف الجر، ودلالة ذلك أنه أعم منه ،

---

[1] – الفروق اللغوية ، ص :289.

كما أن الإرسال تميز عن البعث بمجيئه مع حرف الجر (الباء) وحرف المعية (مع) ، ودلالة ذلك أن الإرسال يقتضي وجود رسالة ، أي ما يرسل به الشخص أو معه.

وقد يعبر بأحدهما عن الآخر، وهذا الإشتراك هو الذي يبقي الغموض والإلتباس في توجيه معنى الآيتين اللتين معنا، ولا يكفي في فهم الآيتين الإعتماد على الفروق التي ذكرها أبو هلال ، بل لا تستقيم .

وهناك فرق آخر ذكره ابن الزبير ، حيث يرى أن الإرسال أخص من البعث في باب الإرسال ، والإرسال يخص الإنتقال بمسافة ، سواء كانت المسافة حقيقية أم مجازية ، وأما البعث فهو أوسع من الإرسال ، فهو يضم مع الإرسال معنى :(الإحياء ، والبعث الأخروي) ، ويرى في الإبدال بين الفعلين في الآيتين تفنن في التعبير لاغير؛ [1] وهذا ما يؤخذ على ابن الزبير، لأنه لم يأخذ ما ذكره من فروق بين (الإرسال والبعث) ليطبقه على الآيتين ، بل فرق بين الفعلين من أجل الفرق ، وترك الأمر غامضا .

وأما الكرماني والإسكافي : فقد أضافا إلى معنى الإرسال معنى آخر، وهو: (العلو) ، أي : أن الإرسال يكون من مرسل ذي قدر ومكانة ، لذلك جاء لفظ (أرسل) في سورة الأعراف ، كاشفا عن رتبة فرعون في سياق الكلام ، لأن الكلام في سورة الأعراف كان من قوم فرعون ، قال تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (110) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111)﴾ الأعراف.

وأما في سورة الشعراء ففرعون هو الذي تولى الخطاب بنفسه فلم يلتبس بغيره ، قال تعالى : ﴿قَالَ الْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36)﴾ الشعراء.[2]

---

[1] – ينظر : ملاك التأويل ، ج/1 ، ص : 216.

[2] – ينظر : البرهان في متشابه القرآن ، ص : 127 ، و: درة التنزيل ، ص :655/654.

فتبين أن كلمة (أرسل) وُضِعت كتاج على كلام الملإ من قوم فرعون ، حتى لا يهضم لفرعون قدر خلال الحوار؛ فهذا التوجيه من أعظم التوجيهات دقة وتذوقا لبيان القرآن الكريم ، وهو مبني على ملاحظة طبيعة الخطاب في سياقه ، ويمكن أن نضيف عليه ملاحظا آخر مكملا لهذا الرأي وهو : أن الخطاب في سورة الأعراف كان من قوم فرعون لفرعون ، أي قال له الملأ من قومه : (أرسل) حفاظا على الأدب مع السلطان ، وأما في سورة الشعراء فالخطاب كان من فرعون لأحد وزرائه (هامان ، أو قارون ، أو غيرهما) لذلك استعمل فرعون كلمة (ابعث) اعتبارا بعلوه ومرتبته ، لأنه لوقال (ارسل) لرفع من قدر وزرائه وأتباعه ، ونسب لهم تصدير الأوامر.

فنلاحظ إذا دور الكلمة في تصوير مشهد الخطاب ، فكلمة (أرسل) حافظت على مرتبه الحاكم الآمر ، وكلمة (ابعث) اعطت للمأمور بها سلطة التنفيذ لا سلطة الأمر ، فحافظت هي أيضا على مرتبة صاحب القرار الأول .

فالإبدال بين الفعلين حقق في الخطاب بلاغة عالية ، بحيث لا يمكننا أن نضع في مكان (أرسل) (ابعث) ، وهذه هي سمة الخطاب القرآني لا يمكن أحدا من أن يزحزح حرفا من مكانه بله كلمة .

جـ. الإبدال بين (سارعوا ، وسابقوا) :

قال تعالى :﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ آل عمران :133.

وقال جل في علاه : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ الحديد:21.

وقع الإبدال بين قوله تعالى : (سارعوا ، وسابقوا) ، وهو أمر من الله لعباده بأن يجتهدوا ويستعدوا ويحرصوا على فعل الخيرات الموصلة إلى نعيم الجنات ؛ والسؤال الذي يحتاج إلى إجابة وبيان ، لماذا أبدل فعل المسارعة بفعل المسابقة بين الآيتين ؟ ، وماهي الأسرار البلاغية وراء ذلك ؟.

والإجابة عن هذا التساؤل تحتاج إلى إيضاح معنى الفعلين ، ثم النظر في سياق كل فعل في السورة التي ورد فيها.

يقول الراغب :السُّرْعَةُ: ضدّ البطء، ويستعمل في الأجسام والأفعال، يقال: سَرُعَ، فهو سَرِيعٌ وأَسْرَعَ فهو مُسْرِعٌ وأَسْرَعُوا: صارت إبلهم سِرَاعاً. وسَارَعُوا، وتَسَارَعُوا. قال تعالى:﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ آل عمران :133. ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ آل عمران :114. ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ﴾ ق:144. وقال:﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً﴾المعارج :43 .سَرَعَانُ القوم: أوائلهم السِّرَاعُ ...[1]

وقال في مادة (سبق) : " أصل السَّبْق: التّقدّم في السّير، نحو: ﴿وَالسَّابِقاتِ سَبْقاً﴾ النازعات : 04والاِسْتِبَاقُ: التَّسَابُقُ. قال تعالى: ﴿ إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ﴾ يوسف :17.وقال سبحانه : ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ يوسف :25. ثم يتجوّز به في غيره من التّقدّم، قال تعالى :﴿ما سَبَقُونا إِلَيْهِ﴾ الأحقاف :11. ﴿سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ طه:129 ، أي: نفذت وتقدّمت؛ ويستعار السَّبْقُ لإحراز الفضل والتّبريز، وعلى ذلك﴿وَالسَّابِقُونَ

---

[1] – المفردات في غريب القرآن ، ص :407.

السابِقُونَ ﴾ الواقعة:10. أي: المتقدّمون إلى ثواب الله وجنّته بالأعمال الصّالحة، نحو قوله: ﴿ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ ﴾ آل عمران :114. ، وكذا قوله: ﴿ هُمْ لَها سابِقُونَ ﴾ المؤمنون:61.، وقوله: ﴿ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ الواقعة :60. أي: لا يفوتوننا. وقال: ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ﴾ الأنفال :59. ، وقال: ﴿ وَ ما كانُوا سابِقِينَ ﴾ العنكبوت :39. تنبيه أنهم لا يفوتونه.[1]

هذه الجولة مع الراغب في الحقل القرآني تبين أن الفعل (سبق) يعني التقدم والسير السريع في إحراز فضيلة السبق ، فالمسابقة تكون بالمسارعة ، وليس كل مسرع سابق ، حتى يصل المتسابق إلى غرضه وغايته .

ويرى ابن الزبير الغرناطي أن توجيه هاتين الآيتين يتوقف أولا على تأكيد حقيقة قرآنية وهي : أن ترتيب سور المصحف أمر توقيفي ، أي : أنه ترتيب من عند الله ـ وهذه مسألة اختلف فيها العلماء وليس هذا موضعها ـ ورتب على ذلك أن سورة " آل عمران " متقدمة في الترتيب على سورة " الحديد " ، وهذا يتناسب مع معنى الفعلين (سارعوا ، وسابقوا) لأن السبق بدايته المسارعة ، فالمسارعة أولا ، والمسابقة ثانيا ، فناسب الأول الأول ، والثاني الثاني .[2]

وهذا التوجيه في حقيقة الأمر لا يعدو كونه بحث عن التوافق بين ترتيب السور في المصحف ، وبين ترتيب مراحل الفعل ، وهذا التوجيه يصلح أن يكون معضدا ومؤيدا للتحليل الموضوعي المبني على النظر في سياق السورتين ومعنى الفعلين ، لذلك يرى الباحث أن هناك توجيها آخر أكثر موضوعية وإقناعا ، وهو:

أن سياق سورة آل عمران يكتنفه من الناحيتين القبلية والبعدية قضية هامة هي محور السورة كلها تقريبا ، وهي غزوة أحد ، وما وقع فيها من أحداث سلبية وإيجابية للمسلمين . قال تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (121) إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَ اللَّهُ وَلِيُّهُما وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (122) ﴾. يقول الزمخشري : " والطائفتان حيان من الأنصار: بنو سلمة من الخزرج،

---

[1] – نفس المصدر ، ص : 395.

[2] – ينظر : ملاك التأويل ، ج/1، 91/90.

وبنو حارثة من الأوس، وهما الجناحان. خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألف، وقيل في تسعمائة وخمسين، والمشركون في ثلاثة آلاف ووعدهم الفتح إن صبروا، فانخزل عبد الله بن أبيّ بثلث الناس وقال: يا قوم، علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فتبعهم عمرو بن حزم الأنصاري فقال: أنشدكم الله في نبيكم وأنفسكم، فقال عبد الله : لو نعلم قتالا لاتبعناكم، فهمّ الحيان باتباع عبد الله فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن ابن عباس رضى الله عنه: أضمروا أن يرجعوا، فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا.

والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس، وكما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع، ثم يردها صاحبها إلى الثبات والصبر ويوطنها على احتمال المكروه..." [1]

فيجتمع لدينا من خلال السياقين سياق اللغة ، وسياق الموقف أن القضية التي كانت في حيز التهذيب والمعالجة هي الروح المعنوية للجند المسلمين ، الذين ابتلوا بوجود المنافقين بينهم يثبطونهم ، ويزرعون بينهم الشك ، ويدفعونهم للفشل والتقاعس عن الجهاد ، فبسبب ذلك خاطبهم الله سبحانه وتعالى بقوله : (سارعوا) .

يقول ابن عاشور وَالسُّرْعَةُ الْمُشْتَقُّ مِنْهَا مُسْتَعَارٌ فِي الْحِرْصِ وَالْمُنَافَسَةِ وَالْفَوْرِ إِلَى عَمَلِ الطَّاعَاتِ الَّتِي هِيَ سَبَبُ الْمَغْفِرَةِ وَالْجَنَّةِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ السُّرْعَةُ حَقِيقَةً وَهِيَ سُرْعَةُ الْخُرُوجِ إِلَى الْجِهَادِ عِنْدَ النَّفِيرِ كَقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ :«وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا»... [2] وهذا المعنى هو المناسب لسياق الآية ، لأن ما بعدها كذلك يدور حول بيان مصائر الشهداء ، وأجر الجهاد والتضحية في سبيل الله .

ولما كان القتال شيئا تكرهه النفس ، خاطب الله عباده بما يزيل تلك المثبطات ، ويدفع النفس للتضحية بالغالي والنفيس ، بسرعة وإقدام ؛ ولما وصف الباري عز وجل الجنة وشبهها بعرض السماوات والأرض ، حذف أداة التشبية (الكاف ، أو ما يقوم مقامه) ، مع ذكر وجه الشبه ، وهذا التشبيه يسمى عند علماء البلاغة ، التشبيه

---

[1] – الكشاف ، ج/1 ، ص :409.

[2] – التحرير والتنوير ،ج/4 ، ص:88.

المؤكد المفصل ، " أي: لم تُذكرْ فيه أداة التشبيه، لكن ذُكِر فيه وجه الشبه، مثل قولنا: "خالد أسَدٌ في الشجاعة والبأس". "[1] خلافا لتشبيه الجنة في سورة " الحديد " فقد ذكر فيه أداة التشبيه (الكاف) وهذا النوع أقل بلاغة من السابق.

وسياق سورة الحديد لا يتحدث عن القتال ،وإنما يتحدث عن الدنيا ومظاهرها وانخداع الناس بها ؛ قال تعالى : ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ الحديد :20.

ولما كانت الدنيا مقصد كل إنسان ، والسباق فيها قائم ومحتدم ، بيَّن المولى سبحانه مجمل ما يتسابق فيه الناس من تفاخر وتكاثر في المال والأولاد وغير ذلك ، ونبه المؤمنين إلى نوع التسابق إن كان ولا بد ، فجاء الخطاب (سابقوا) ، وكأن المولى سبحانه يقول للناس : خير ما يتسابق فيه العقلاء طاعة الله والعمل الصالح ، أما غير ذلك فمآله الفناء والبوار ، والندم والخسران ؛ فناسب إبدال الفعل (سارعوا) بالفعل (سابقوا) سياقه والغرض التهذيبي الذي سيق له .

---

[1] – البلاغة العربية للميداني ، ج/2 ، ص :174.

د . الإبدال **بين** أفعال التروك :

الإبدال **بين** (لا تقربوها ، ولا تعتدوها) :

ومن ذلك قول الله عز وجل : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ البقرة : 187.

وقوله أيضا : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ البقرة : 229.

وقع الإبدال في هاتين الآيتين بين قوله تعالى : (فلا تقربوها) ، وقوله : (فلا تعتدوها) ، والكلام في الآيتين يتعلق بحدود الله ، فسياق الآية الأولى يتحدث عن أحكام الصيام والإعتكاف في المساجد ، وعلاقة الرجل بزوجته أثناء ذلك ؛ وأما الآية الثانية فسياقها يتحدث عن أحكام الطلاق والخلع ، فالسياقين مختلفين ، ولكن يجمعهما أنهما يتحدثان عن حدود الله وأوامره ، فلذلك قال الله فيهما : (تلك حدود الله) ، لكن في الآية الأولى قال (لا تقربوها) ، وفي الثانية قال : (لا تعتدوها) ، فما هو السر البلاغي وراء هذا الإبدال ؟

اتفق أغلب أهل العلم على أن السر في اختصاص كل نهي بسياقه يعود إلى طبيعة الحد في الشريعة الإسلامية ، فـ " الحدود ضربان: حد هو منع من ارتكاب المحظور، وحد هو فاصلة بين الحلال والحرام، فالأول ينهى عن مقاربته ، والثاني

ينهى عن مجاوزته..."[1] من هذه القاعدة الشرعية انطلق فهم العلماء في توجيه آيتي البقرة .

فنظر الخطيب الإسكافي إلى قوله تعالى (لا تقربوها) في بعض استعمالاتها في القرآن الكريم ، كقوله تعالى لآدم في الجنة (ولا تقربا هذه الشجرة) ، ورأى أن ذلك خرج على أغلظ الوعيد ، فهو يشبه قول النبي صلى الله عليه وسلم في المنع من مقاربة الحرام : ((..وَ منوَ قع فِي الشُّبُهَاتوَ قع فِيالْحَ رَ امكَالرَّاعِي يرْ عَى حول الْحمى يُوشك أَن يرتع فِيهِ ...)) .[2] " فلما كان هذا الموضع الأول نهيا عن مواقعة النساء في حالة الاعتكاف في المساجد صار فيه تحذير من دواعي المواقعة فاقتضى من المبالغة ما لم يقتضه قوله: (.. فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها..) " البقرة: 229"، فكأنه قال: لا تتجاوزوها... " [3]

وأضاف ابن الزبير على ذلك " أن النهى عن مقاربة الشئ عنوان على تأكيد التحريم وتغليظه ، ولما كان قرب النساء بالمباشرة بالأجساد وما يجارى ذلك داعيا إلى المواقعة، وقل من يملك فى ذلك نفسه ويغلب هواه ولهذا قالت عائشة رضى الله عنها: "وأيكم يملك أربه .."[4]

والمقصود منعه فى أمثال هذه المواطن إنما هو الجماع... وتأمل إطراد ذلك فيما يرجع إلى نحو هذا ، كقوله تعالى فى الحيض: (ولا تقربوهن حتى يطهرن) وانما المحرم الجماع ، وقال تعالى: (ولا تقربوا الزنى) ، ومن هذا منع الطيب للمحرم لأنه داعية إلى الجماع ...

وأما النهي في الآية الثانية فإنما هو " ... عن تجاوز حد مضروب بين محرم ومحلل ، ومن هذا قوله تعالى: (الطلاق مرتان) إلى قوله تعالى: (فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به) ثم قال: (تلك حدود الله فلا تعتدوها)

---

[1] – درة التنزيل ، ص : 330.

[2] – الترغيب والترهيب ، ج/2 ، ص :350.

[3] – درة التنزيل ، ص :328.

[4] – صحيح البخاري ، ج/1، ص: 67 ، رقم الحديث (302).

، فحصل من الآية الكريمة أنه سبحانه حرم أموالهن على الأزواج بغير حق ما لم يقع منهن نشوزا أو إباية عن القيام بما يجب عليهن...فليس هنا إلا حلال أو حرام لا واسطة بينهما ولا ما هو مسبب للاحرام قصد تحريمه لتغليظ ما يتسبب عنه ، مثل هذا إنما يرد النهى فيه عن الإعتداء الذى هو مجازاة ما يحل إلى مايحرم." [1]

وخلاصة القول أن كل فعل ناسب الأحكام التي ذكرت قبله في السياق ، وتبين من خلال ما ذكره العلماء أن الحدود التي ينهى عن مقاربتها هي الحدود التي يتقدمها شاطيء من المغريات التي قد تضعف النفس أمامها فتقترفها ، لذلك عالج المولى سبحانه وتعالى مثل هذه الأحكام ـ وهو خالق النفس ويعلم ما يصلحها ـ بالإبتعاد عن المساحة المحيطة بالحرام ، حتى لا يقع الإنسان في ما حرم الله ، وهذا من الإعجاز التشريعي الذي يتكامل مع الإعجاز البياني في إبراز عظمة هذا القرآن العظيم.

وأما الحدود التي نهى الله عن تجاوزها فهي ما يتعلق بالحقوق والواجبات في تعامل الناس بعضهم ببعض ، فقد يتسبب البغض والحقد في ارتكاب الظلم في حق الآخرين ، فناسب أن يحد من طيش الأهواء ، وخبث الأحقاد والضغائن ، بالنهي عن التجاوز والإعتداء .

فناسب إذا كل فعل مقامه وأحكامه ، وتبين أن القرآن الكريم معجز في كل حرف من حروفه ، وفي كل كلمة من كلماته ، فهو كتاب الله المجيد ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ فصلت : 42.

---

[1] – ملاك التاويل ، ج/1، 63.

الخاتمـــــة :

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وتقضى الحاجات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبوات ، وسيد البريات ، وعلى آله وأصحابه أزكى الصلوات والتسليمات . أما بعد :

فقد يسر الله سبحانه وتعالى لي من خلال هذه الدراسة الإطلاع على العديد من كتب التفسير ، وكتب أهل اللغة والبلاغة والمعاجم ، من المتقدمين والمتأخرين ؛ وهذا الإطلاع أعتبره أهم إنجاز أنعم الله به علي ، فلله الحمد والمنة .

وأشكره سبحانه على توفيقه ، بأن أعانني على إتمام هذا العمل المتواضع ، الذي لا أدعي فيه كمالا أو تماما ، إلا أنني بذلت ما في الوسع ، وآمل من الله السداد والتوفيق ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

جاءت هذه الدراسة في ثلاثة فصول ، غلب عليها الجانب التطبيقي ، نظرا لطبيعة الدراسة ، وتحقيقا لموضوع هذه الرسالة " بلاغة الإبدال في الخطاب القرآني " بدراسة الأمثلة التطبيقية من القرآن الكريم ، وكانت النتائج التي توصلت إليها متنوعة ، ومن أبرزها ما يلي :

- أن المتشابه اللفظي في القرآن الكريم يعتبر من أهم خصائصه الأسلوبية ، وقد تحدث القرآن عن ذلك حينما قال : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ الزمر:23 ، وأن دراسة الأساليب القرآنية في باب المتشابه اللفظي لا تزال في حاجة إلى جهود الباحثين.
- أن الإبدال في القرآن الكريم فرع من فروع المتشابه ، ودراسته لا تخلو من دلالات خاصة ميزت اختيار الأسلوب في القرآن ، وهي محل تدبر وتأمل ، ودافع للإيمان بإعجاز القرآن في اختيار مفرداته وحروفه.

- أن الإبدال في القرآن الكريم له ارتباط شديد بالسياق ، ودراسته تفتح آفاقا جديدة لدراسة السياق في الحقل القرآني ، والتعرف على خصوصيته.
- زادت قناعتي بأن علوم القرآن لا تنفد ، فبرغم الجهود التي بذلت في سبيل خدمة هذا القرآن العظيم ، إلا أنه لا يزال هناك الكثير من المسائل والقضايا القرآنية التي لم تنل حظها من الدرس والتنقيب ، ومنها موضوع المتشابه اللفظي ، وبالتحديد موضوع الإبدال .
- أنه لا بد لاستخراج دلالة الإبدال في القرآن الكريم من جهد كبير في استقراء لغة القرآن ، فلغة القرآن تتميز بالتناسق والترابط من أول القرآن إلى آخره ، فلا يكفي في فهم بلاغة الإبدال ، وأسباب اختيار الحروف والمفردات في مواضعها ، الإعتماد على المعاني النحوية أو المعجمية.
- أن الإبدال في القرآن الكريم وسيلة من وسائل نشر الثقافة القرآنية ، ومنهج ييسر على الدارس إدراك مواطن الإعجاز البياني في القرآن الكريم ، كما أنه ييسر حفظ القرآن ؛ وهو وسليلة دعوية في استمالة المسلم العادي للإقبال على كتاب الله بدل هجره ، كما أنه يساعد المدافعين عن كتاب الله في قوة الحجة والبرهان ، لدحض أفكار المشككين في إعجاز القرآن وبلاغته .
- وقد لاحظت من خلال هذه الدراسة أن الكتب المصنفة في توجيه متشابه القرآن قديما وحديثا ، يغلب عليها طابع الموسوعية ، أي : أنها تجمع أشتات المعرفة في سفر واحد ، مما أدى إلى تداخل فروع المتشابه اللفظي في بعضها ، وهذا ما صعّب نوعا ما من لملمة فرع " الإبدال " كموضوع واحد ؛ وهذا المأخذ ساري المفعول في الدراسات الحديثة ، فأغلبها صنفت موضوع المتشابه كموضوع واحد ، وقد لا أكون مخطئا إذا ادعيت أن كل من ألف في موضوع المتشابه إلا وجعل فروعه فصولا لبحثه ، وكرر نفس التوجيهات التي سبق إليها الأقدمون ، باستثناء الدكتور محمد فاضل صالح السامرائي ، الذي يعتبر مجددا في باب توجيه المتشابه ، توجيها مبنيا على الإستقراء والإحصاء ، والفهم والذوق ، إلا أنه أهمل تصنيف

المتشابه ، فتميزت أغلب كتبه بعناوين تبعيضية (لمسات بيانية) (من أسرار التعبير القرآني)...الخ.

❖ **المقترحات والتوصيات** :

- ضرورة التوسع في جمع وحصر مواطن الإبدال في القرآن الكريم ، في موسوعة علمية ، من خلال مشاريع بحثية .
- الدعوة إلى إنشاء معجم خاص بالإبدال ، لتقصي أوجهه في أساليب القرآن الكريم ، وما يتبع ذلك من أبعاد دلالية ، وهذا عمل يحتاج إلى جهد كبير ، ووقت أطول ، ونأمل من الله عز وجل أن يفوق له من يقوم به.
- ضرورة إدماج هذا الموضوع كمادة تعليمية في الجامعة ، نظرا لارتباطه بنظرية النظم والسياق ، ولسانيات النص ، وقد اعتبره شيخ البلاغيين المعاصر " الدكتور محمد محمد أبو موسى " وجها من وجوه الدراسات التطبيقية لنظرية النظم.
- فروع المتشابه لا تزال تحتاج إلى دراسات وبحوث ، ومنها:
- التقديم والتأخير في باب المتشابه اللفظي.
- الذكر والحذف.
- الزيادة والنقص.
- التعريف والتنكير.
- الإفراد والجمع والتثنية .
- الإدغام وفكه.
- تنوع الصيغ .

وختاما أكرر حمدي وشكري لله تعالى على العون والتيسير ، كما أجدد شكري لمشرفي الأفاضل ، ولكل من ساعدني على إنجاز هذا البحث ، كما أعترف أن هذا البحث معرض للنقص والخطإ ، وكيف لا وهو إنتاج بشري ، فالكمال لله وحده ،

وأستحضر في هذا المقام قول الثعالبي : "أن أولَا يَبْدُو من ضعف ابْن آدم أَنه لاَ يكْتب كتابا فيبيت عِنْده لَيْلَة إِلاَّ أحب فِي غدها أَن يزِيد فِيهِ أَو ينقص مِنْهُ [1] " فإن كانت الليلة ترغب في المراجعة ، فماذا نقول بعد إنجاز دام أياما كثيرة .

هذا باختصار ما حاول البحث أن يقوله عن طريق المقاربة و التسديد ، فأستغفر الله من كل ما زلت به القدم ، أو طغى به القلم ، وأسأله الأجر والسداد ، والخير والرشاد ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

[1] - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي ،(429هـ)، ت: د. مفيد محمد قمحية ، دار الكتب العلمية - بيروت/لبنان، ط/1 ، 1403هـ1983م . ج/1 ، ص :27.

ـ فهرس المصادر والمراجع ـ

- **القرآن الكريم.**

﴿ أ ﴾

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي) ، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (685ه) ، تحقيق : محمد عبد الرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط/1، 1418ه.
- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل نافع بن الأزرق ، عائشة محمدعلي عبد الرحمن (بنت الشاطيء) ، دار المعارف ، مصر ، ط/3.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ،لمصطفى صاق الرافعي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط/8 ، 1425ه-2005م.
- إعراب القرآن وبيانه ، محيي الدين أحمد مصطفى درويش (1403ه) ، دار الإرشاد والشؤون الجامعية ، سوريا ، ط/4 ،1415ه.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، تفسير أبي السعود (982ه) ، دار إحياء التراث ، بيروت.
- أسئلة بيانية في القرآن الكريم ، فاضل السامرائي ، مكتبة الصحابة ، جدة، ط/1، 2008 م .
- أسباب النزول للواحدي (468ه) ، ت: عصام بن عبد المحسن الحميدان ، دار الإصلاح ، الدمام ، ط/2، 1412ه-1992م.
- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للاكتاب (1349ه،1974م).
-

﴿ ب ﴾

- البحر المحيط في التفسير ، لأبي حيان الأندلسي (745ه) ، .ت : صدقي محمد جميل ، دار الفكر ، بيروت.
- بيان إعجاز القرآن للخطابي ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، ، ت/ محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف مصر، ط/3 ، 1976م.

- بلاغة العطف في القرآن الكريم ، د/ عفت الشرقاوي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط/1 ، 1981م.
- البلاغة العربية ، لعبد الرحمن حبنكة الميداني ، دار القلم بيروت ، (ط/1، 1416ه،1996م).
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح ، عبد المتعال الصعيدي (1391ه) ، ط/17، (1426ه ،2005م) ، مكتبة الآداب ، القاهرة.
- بغية الوعاة ، للسيوطي . تحقيق: د. علي محمد عمر، (مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 1: 2005 م).
- البرهان في أصول الفقه ، لإمام الحرمين الجويني (478ه) ، ت: صلاح بن محمد بن عويضة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط/1، (1418ه، 1997م).
- البرهان في متشابه القرآن للكرماني ، ت : د . أحمد عز الدين خلف الله (دار الوفاء ، مصر، ط4 :2009 م).
- البرهان في علوم القرآن ، لأبي عبد الله بدر الدين الزركشي (794ه) ، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر ، ط/1، 1376- 1957م.

﴿ ج ﴾

- جامع الدروس العربية للغلاييني ، المكتبة العصرية ، صيدا بيروت ، ط/28، (1414ه،1993م).
- الجامع لأحكام القرآن ، لشمس الدين القرطبي (671ه) ، ت: أحمد البردوني ،وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة.
- جمالية المفردة القرآنية ، لأحمد ياسوف ، دار المكتبى ، دمشق ، ط/2 ، 1999م.
- الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي (749ه) ، ت ، / فخر الدين قباوة ، ومحمد نديم فاضل ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط/1، 1413ه،1992م.

﴿ د ﴾

- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، ت/ محمود محمد شاكر، مطبعة المدني ، القاهرة ، (ط/3، 1413ه،1992م) .
- دلالات التراكيب ، دراسة بلاغية ، د/محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، (ط/2، 1408ه،1987م).

- دراسة المتشابه اللفظي من آي التنزيل ، لمحمد فاضل صالح السامرائي ، دار عمار الأردن ، ط/3، 2011م.
- درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ، تحقيق د/ محمد مصطفى آيدين ، معهد البحوث العلمية بمكة المكرمة ، ط/1 ،2001م.

﴿ ه ﴾

- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع للسيوطي (911ه) ت/ عبد الحميد هنداوي ، المكتبة التوقيفية. مصر، ج/1.

﴿ و ﴾

- وجوه الإستبدال في القرآن الكريم " لمؤلفه :عز الدين محمد الكردي ، (دار المعرفة بيروت ، ط1، 2007.).
- وفيات الأعيان لابن خلكان . تحقيق : إحسان عباس (دار صادر ، بيروت ، 1968م).

﴿ ح ﴾

- الحدود في علم النحو، أحمد بن محمد بن محمد الرجائي الأبذيّ ، شهاب الدين الأندلسي (860هـ) ، ت: نجاة حسن عبد الله نولي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، 1421ه-2001م.

﴿ ط ﴾

- طبقات الحنابلة، أبو الحسين ابن أبي يعلى، محمد بن محمد (526هـ)، ت: محمد حامد الفقي ، دار المعرفة – بيروت.
- طبقات النحويين واللغويين ، أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي ، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط/1 ، 1954 ، القاهرة.

﴿ ي ﴾

- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي ،(429هـ)، ت: د. مفيد محمد قمحية ، دار الكتب العلمية - بيروت/لبنان، ط/1 ، 1403هـ1983م

﴿ ك ﴾

- الكليات ، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ،لأيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (1094هـ) ، ت: عدنان درويش - محمد المصري ، مؤسسة الرسالة – بيروت.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، لجار الله الزمخشري (538ه) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط/3 ،1407ه.
- كشف المعاني في المتشابه من المثاني ، لبدر الدين بن جماعة (733ه)، ت: د/عبد الجواد خلف ، دار الوفاء المنصورة ، ط/1 ،1410ه-1990م.
- الكتاب ، لسيبويه (180ه) ، ت: عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط/3، (1408ه،1988).

﴿ ل ﴾

- لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ، ت: أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية ، بيروت.
- اللغة العربية معناها ومبناها ، للدكتور تمام حسان ، دار الثقافة ، المغرب 1994.
- لمسات بيانية للسامرائي ، دار عمار ،الأردن ، ط/3 - 2003 م.
- لسان العرب ، لابن منظور(711ه) ، دار صادر بيروت ، ط/3 (1414ه،1997م).

﴿ م ﴾

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، لإبي الحسن نور الدين " الهيثمي " (807ه) ، ت: حسام الدين القدسي ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، 1414ه-1994م.
- المدهش ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (597هـ) ، ت: الدكتور مروان قباني، دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان.
- الموافقات للشاطبي ، ت/ أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ، دار ابن عفان ، ط/1 ،1997م.
- الموسوعة الفقهية الكويتية ، تصدر عن وزارة الشؤون الدينية والأوقاف ، الكويت ، ط/2، 1427ه.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، جلال الدين السيوطي (911هـ) ، ت: فؤاد علي منصور ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط/1 ، 1418هـ 1998م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لابن عطية (542ه) ، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط/1، 1422ه.

- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل ، لابن الزبير الغرناطي (708ه)، ت : عبد الغني محمد علي الفاسي ، دار الكتب العلمية ، بيروت.
- من روائع القرآن ، تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عزوجل ، د/سعيد رمضان البوطي ، مؤسسة الرسالة (1420ه،1999).
- معاني الأبنية في العربية ،د/صالح فاضل السامرائي ،جامعة الكويت.
- معاني النحو، محمد فاضل السامرائي ، دار إحياء التراث العربي ،بيروت ، ط/1، 2007م.
- معاني القرآن وإعرابه ، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (311هـ)، ت: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب – بيروت ،ط/1 ، 1408 هـ - 1988 م.
- معجم مقاييس اللغة لابن فارس (395ه) ، ت/ عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، بيروت، (1399ه .1979م) .
- معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط/1، 1408ه،1988م.
- مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ) ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط/3 ،1420.
- المفصل في صناعة الإعراب للزمخشري (538ه) ، ت/ د. علي بوملحم ، مكتبة الهلال ، بيروت ، ط/1 ، 1993.
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (502ه) ، ت/صفوان عدنان الداودي ، دار القلم دمشق ، (1412ه،1991م) .
- المتشابه اللفظي في القرآن الكريم د/ محمد القاضي ، دار الصحوة ، القاهرة ، (ط/1، 1430ه، 2009م).
- المثل السائر لابن الأثير (637ه) ، ت/ أحمد الحوفي ، وبدوي طبانة ، دار نهضة مصر.
- مشارق الأنوار على صحاح الآثار ، لعياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل (544هـ)، المكتبة العتيقة ودار التراث ، تونس / القاهرة .
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، لابن هشام (761هـ) ،ت: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله ، دار الفكر – دمشق .ط/6 ، 1985م.

﴿ ن ﴾

- النبأ العظيم ، محمد بن عبد الله دراز (المتوفى : 1377هـ) ، ت/ أحمد مصطفى فضلية ، دار القلم بيروت (1426، 2005).
- النكت في إعجاز القرآن للرماني ، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ، ت/ محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف مصر، ط/3 ، 1976م.
- نظم الدرر في تناسب السور ، لأبي بكر البقاعي (885ه) ، دار الكتاب الإسلامي ، مصر.

﴿ ص ﴾

- صحيح البخاري ، لمحمد بن اسماعيل البخاري (256ه) ت: محمد زهير بن ناصر الناصر ، دار طوق النجاة ، ط/1 ، 1422ه.
- الصناعتين لأبي هلال العسكري (395ه) ، ت/علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1999م.

﴿ ع ﴾

- عادات القرآن الأسلوبية للدكتور راشد بن حمود بن راشد الثنيان، مجلدين ، دار التدمرية ، ط1 ، 2012 .
- علم الدلالة ، د/أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط/5 ،1998م.
- علم اللغة الحديث ، د. محمد حسن عبد العزيز ، مكتبة الآداب القاهرة ، ط/1،2011م.

﴿ ف ﴾

- الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن وعلم البيان لابن قيم الجوزية (751ه) ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، 1987م.
- في ظلال القرآن ، سيد قطب (1358ه) ، دار الشروق ، القاهرة ، ط/17، 1412ه.
- فنون الأفنان لابن الجوزي ، ت . د . حسن ضياء الدين عتر(دار البشائر، بيروت ، ط1، :1987 م).
- الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (395ه) ، ت : محمد إبراهيم سليم ، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة .

- فتح الباري شرح صحيح البخاري ،لابن حجر العسقلاني (852ه) ، ت: محمد فؤاد عبد الباقي. دار المعرفة - بيروت، 1379ه.

﴿ ق ﴾

- القاموس المحيط ، للفيروزآبادي (817ه) ، ت: محمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة ، لبنان ، ط/8 ، 2005م.

﴿ ر ﴾

- رياض الصالحين ، ت . شعيب الأرنؤوط (مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ط3 : 1998م).

﴿ س ﴾

- السبك في العربية المعاصرة ، د/ محمد سالم أبو عفرة ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط/1 ، 2010م.
- السياق والمعنى، دراسة في أساليب النحو العربي ، د/ عرفات فيصل المناع ، مؤسسة السياب ، لندن ، ط/1 ، 2013.
- سير أعلام النبلاء ، لشمس الدين الذهبي (748ه) ، ت : شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط/3 ، 1985م.
- سر صناعة الإعراب ، لأبي الفتح ابن جني (392ه) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط/1، 1421ه،2000م.

﴿ ت ﴾

- تاج اللغة وصحاح العربية ، لاسماعيل بن حماد الجوهري (393ه) ، ت/ أحمد عبد الغفور عطار ، ط/4،(1407ه،1987م) ، دار العلم للملايين . بيروت .
- تاريخ بغداد ، لأبي بكر أحمد بن علي ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (643ه) ، ت : الدكتور بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط/2، 2002م.
- تهذيب اللغة ،لأبي منصور الأزهري الهروي، (370ه)، ت: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت . ط/1، 2001م.
- التحرير والتنوير ، للطاهر بن عاشور (1383ه) ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1984م.
- التطبيق الصرفي للدكتور عبده الراجحي ،(دار المسيرة القاهرة ،ط1 : 2008م.).

- التعبير القرآني ، للدكتور فاضل صالح السامرائي ، دار عمار ، عمان ، ط/4 ،(1427ه،2006م).
- التعريفات للشريف الجرجاني (816ه) ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط/1 ، 1403ه،1983م.
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير(774ه) ، ت: سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للتوزيع والنشر ، ط/2 ، 1420ه-1999م.
- الترغيب والترهيب للمنذري (656ه) ، ت: إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط/1، 1417ه.

﴿ خ ﴾

- خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري (المتوفى: 837هـ) . ت : د ، عصام شقيو (دار ومكتبة الهلال- بيروت،2004 م).
- الخصائص لابن جني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط/4، 1991.

﴿ ش ﴾

- الشافية في علم التصريف ، لابن الحاجب المالكي (646ه) ، ت/ حسن أحمد العثمان ، المكتبة المكية ، مكة ، ط/1، (1415ه،1995م).
- وشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، ت/ محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار التراث بمصر، ط/20 ، (1400ه،1980م).
- شرح الجمل في النحو ، عبد القاهر الجرجاني ، ت : د/ خليل عبد القادر عيسى ، ط/10،2011م ، دار ابن حزم ، بيروت.
- شرح المفصل ، لعلي بن يعيش النحوي (643ه) ، ت: أحمد السيد أحمد ، المكتبة التوفيقية ، مصر .
- شذا العرف في فن الصرف ، لأحمد بن محمد الحملاوي (1351ه)، ت: نصر الله عبد الرحمن نصر الله ، مكتبة الرشد الرياض.

ـ فهـــرس المـوضــوعـات ـ

الموضـــــــــــوع : رقم الصفحة

الإهداء :.....

المقدمـــــة :..... أ

المدخل :..... 01

تعريف البلاغة في اللغة والإصطلاح :.....03/01

تعريف الإبدال لغة واصطلاحا :.....12/09

مفهوم السياق وذكر أنواعه :.....16/14

الفصـــــــــل الأول :.....20

تعريف الحرف لغة واصطلاحا : 22/20

الإبدال بين حروف المعاني :.....24

حروف العطف ومعانيها :.....32/24

الإبدال بين حروف العطف :.....33

الإبدال بين (الواو، والفاء):.....33

الإبدال بين (الفاء ، وثم) :.....40

الإبدال بين (ثم ، والواو) :.....47

الإبدال بين (الواو ، وبل).....54

الإبدال بين حروف الجر :.....60

الموضـــــــــوع : رقم الصفحـــة

معاني حروف الجر :.....68/60

الإبدال بين(إلى ، وعلى):.....69

الإبدال بين (الباء ، واللام):.....74

الإبدال بين(من ، وفي):.....78

الإبدال بين حرف الجر وما يؤدي معناه :.....82

الإبدال بين (عن ، وشبه الجملة : من بعد) :.....82

الإبدال بين (من ، ولفظة : خشية):.....88

الإبدال بين أنواع مختلفة :.....92

الإبدال بين حروف النفي :.....97/92

الإبدال بين حرفي الإستقبال :.....102

الفصل الثاني : الأثر البلاغي للإبدال في باب الأسماء :.....109

الإبدال في أسماء الله الحسنى : 112

الإبدال بين اسماء مختلفة : 121

الإبدال بين المصادر :.....135

الإبدال بين المصادر المكررة :.....136

الإبدال بين المصادر التي لم تكرر:.....144

الإبدال بين أسماء الفاعلين والمفعولين :.....154

الموضوع : رقم الصفحة

الإبدال بين أسماء الفاعلين المكررة :.....154

الإبدال بين أسماء الفاعلين التي لم تتكرر :.....163

الإبدال بين أسماء المفعولين المكررة :.....168

الإبدال بين أسماء المفعولين التي لم تتكرر :.....174

الإبدال بين الصفات المشبهة واسم التفضيل :.....178

الإبدال بين الصفات المكررة :.....178

الإبدال بين الصفات التي لم تتكرر :.....184

الإبدال بين أسماء التفضيل : 186

الإبدال بين الإسم الموصول :.....191

الفصـــــــــل الثالث : الإبدال في باب الأفعال : 196

الإبدال بين الأفعال الماضية :.....198

الإبدال بين الأفعال المضارعة :.....217

الإبدال بين الأفعال المبنية للمجهول :.....230

الإبدال بين أفعال الأمر والنهي :.....240

الخاتمة : 254

فهرس المصادر والمراجع :.....259

فهرس الموضوعات :..... 267

ملخص

يعالج الباحث في هذه الرسالة قضية الإبدال في الآيات المتشابهة في القرآن الكريم؛ والإبدال هو: تغيير يحدث على مستوى الحرف (في المعنى)، والكلمة (بلام أو فعل)، في آيات قرآنية تكرر ورودها في القرآن الكريم. فتناولت الرسالة في الفصل الأول موضوع الإبدال على مستوى الحرف، كحروف العطف وحروف الجر، وغيرها. وفي الفصل الثاني تناول قضية الإبدال بين الأسماء والصفات، كأسماء العلم، و أسماء الجنس، وأسماء الفاعلين والمفعولين، والصفة المشبهة، وغير ذلك. وختم الباحث فصوله بفصل ثالث ، تناول فيه قضية الإبدال بين الأفعال. ثم ذكر الباحث في الخاتمة أهم النتائج ، وبعض التوصيات. ويعتبر موضوع الإبدال موضوعا ذا أهمية كبيرة في الدرس اللغوي والبلاغي، باعتباره قضية تتشكل من المعجم الدلالي للكلمة والحرف، ومن المعنى الوظيفي لهما.

الكلمات المفتاحية :

البلاغة؛ الإبدال؛ السياق؛ الترادف؛ الاشتقاق؛ الانسجام؛ سأسرار الإعجاز؛ فخر الدين الرازي؛ الجرجاني؛ عبد الله دراز.

نوقشت يوم 10 جوان 2015